

جورج طرابيشي

# المرض بالضرب

التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي



منشور

مطبعة النهضة للنشر والتوزيع



المرض بالغريب

## من مؤلفات جورج طرابيشي

- نظرية العقل: نقد نقد العقل العربي (1)، طبعة ثانية، دار الساقي 1999.
  - إشكاليات العقل العربي: نقد نقد العقل العربي (2)، طبعة ثانية، دار الساقي 2002.
  - وحدة العقل العربي: نقد نقد العقل العربي (3)، دار الساقي 2002.
  - العقل المستقل في الإسلام؟ : نقد نقد العقل العربي (4)، دار الساقي 2004.
  - من النهضة إلى الردة، دار الساقي 2000.
  - مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام، دار الساقي 1998.
  - في ثقافة الديمقراطية، دار الطليعة، 1998.
  - مذبح التراث في الثقافة العربية المعاصرة، دار الساقي 1993.
  - المتفقون العرب والتراث: التحليل النفسي لعصاب جماعي، دار الريس 1991.
  - معجم الفلاسفة، الطبعة الثانية، دار الطليعة 1997.
  - الدولة القطرية والنظرية القومية، دار الطليعة 1982.
  - الروائي وبطله: مقارنة للشعور في الرواية العربية، دار الآداب 1995.
  - شرق وغرب، رجولة وأنوثة، الطبعة الرابعة، دار الطليعة 1997.
  - أنثى ضد الأنوثة: دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء التحليل النفسي، طبعة ثانية، دار الطليعة 1995.
  - الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية، الطبعة الرابعة، دار الطليعة 1988.
  - عقدة أوديب في الرواية العربية، الطبعة الثانية، دار الطليعة 1987.
  - رمزية المرأة في الرواية العربية، الطبعة الثانية، دار الطليعة 1987.
  - الرجولة وإيديولوجيا الرجولة في الرواية العربية، دار الطليعة 1983.
  - الأدب من الداخل، الطبعة الثانية، دار الطليعة 1981.
  - لعبة الحلم والواقع: دراسة في أدب توفيق الحكيم، الطبعة الثانية، دار الطليعة 1997.
- وبالإنجليزية:

Woman against her sex: a critique of Nawal El-Saadawi, Saqi books, 1989.

جورج طرابيشي

# المرض بالغربة

التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي



معنى  
رابطة السفالين العرب

\* اسم الكتاب: المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي

\* تأليف: جورج طرابيشي

\* الطبعة الأولى: 2005

\* موافقة وزارة الإعلام رقم: 80378 تاريخ 2005/7/25

\* الإخراج الفني: بترا للنشر والتوزيع

\* الناشر:

دار بترا للنشر والتوزيع [www.darpetra.com](http://www.darpetra.com)

سوريا، دمشق. هاتف 5128483

رابطة العقلايين العرب

\* التوزيع:

دار بترا للنشر والتوزيع

سوريا، دمشق. هاتف 5128483

دار ورد للنشر والتوزيع

سوريا، دمشق. هاتف 5141441

\* جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو استعماله بأي شكل،

إلكتروني أو ميكانيكي، بما في ذلك النسخ، التسجيل، أو عبر أي أداة تخزين أخرى،

من دون إذن خطي من الناشر.

## الفهرس

7	تصدير
9	مقدمة
	الفصل الأول
15	من الصدمة إلى الرضة
	الفصل الثاني
37	من جرح الهزيمة إلى ضمادة التراث
	الفصل الثالث
53	من التقدم إلى النكوص
	الفصل الرابع
111	من النهضة إلى الردة
	الفصل الخامس
155	من الموضوع إلى المنهج
	الفصل السادس
173	من التغريب إلى التحديث

## إصدارات رابطة العقلانيين العرب

- 23 عاما: دراسة في السيرة النبوية المحمدية، تأليف علي الدشتي، ترجمة: ثائر ديب، دار بئرا 2004.
- فلينزع الحجاب، تأليف شامدورت جافان، ترجمة: فاطمة بلحسن، دار بئرا 2005.
- المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي، تأليف جورج طرابيشي، دار بئرا 2005.
- ازدواجية العقل: دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي، تأليف جورج طرابيشي، دار بئرا 2005.
- حرية الاعتقاد الديني، تصنيف وتقديم: محمد كامل الخطيب، دار بئرا 2005.
- نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة، تأليف رجاء بن سلامة، دار الطليعة 2005.
- مواقف من أجل التنوير، تأليف محمد الحداد، دار الطليعة 2005.
- مدخل إلى التنوير الأوروبي، تأليف هاشم صالح، دار الطليعة 2005.
- يوسف القرضاوي بين التسامح والإرهاب، تأليف عبد الرزاق عيد، دار الطليعة 2005.

رابطة العقلانيين العرب تسعى إلى نشر الفكر  
العقلاني النقدي الجذري، وهي ترحب بأن تنشر كل  
ما لا يجد طريقه إلى النشر بسبب جراته الفكرية



## تصدير للطبعة الجديدة

هذا الكتاب هو في الأصل أطروحة دكتوراه كان يفترض بي أن أقدمها إلى جامعة السوربون/ باريس الثالثة لولا أنني امتنعت، في اللحظة الأخيرة، عن تقديمها.

أولاً لأنه كان يفترض بي أن أعيد كتابتها بالفرنسية، مما كان سيستغرق مني سنتين أو ثلاثاً من العمل الإضافي، وبالتالي من تأجيل النشر. وثانياً لأن تقديمها على شكل أطروحة دكتوراه كان يقتضي التخفيف من لهجتها النقدية الجذرية، وهو ما كان يتعارض مع غايتها بالذات من حيث أنني أردتها، بمنتهى الحرارة، التزاماً بمنطق النهضة في مواجهة منطق الردة الذي طغى في الساحة الثقافية العربية.

ولكن نظراً إلى طابعها الأطروحي فقد جاءت مادتها ضخمة أكثر مما ينبغي على ما يبدو. وهذا ما شكاً منه قراء الطبعة الأولى الصادرة في لندن عام 1991، كما لاحظت من تعليقات النقاد والأصدقاء ممن قرأوها. ولهذا عمدت، وأنا أعدّ لهذه الطبعة الجديدة، إلى تقسيمها إلى جزئين: جزء أول هو هذا الذي بين يدي القارئ، وهو يتناول بالتشريح النقدي الخطاب العربي المعاصر كما تمارسه شريحة واسعة من الأنتلجنسيا العربية، ويمدده على سرير التحليل النفسي ليكشف فيه عن مكامن النكوص والانقلاب من منطق النهضة إلى منطق الردة، والتحول عن إرادة الدخول في العصر إلى إرادة الخروج من العصر. أما الجزء الثاني فسيتناول حالة فردية من هذا «العصاب الجماعي» كما تتمثل في كتابات المفكر المصري حسن حنفي التي تقدم نموذجاً مدهشاً عن ازدواجية العقل العربي في تأرجحه بين قطبي التراث والحداثة، وفي تخبطه الفصامي بين إستراتيجيتين ثقافيتين: نقد الذات وتعظيم الذات.

يبقى أن نشير إلى أن العنوان الأصلي لهذا الكتاب كان «المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي». ولكن ناشر الطبعة الأولى ارتأى

أن يكون العنوان أقل «جراحية»، فاتفقنا على إبداله بـ«المثقفون العرب والتراث». والحال أن العنوان الأول يكتسب اليوم راهنية جديدة. فمن ظاهرة ثقافية تحول «المريض بالغرب» إلى ظاهرة سياسية تجد تعبيرها الأكثر تمييزاً في العمليات الإرهابية التي باتت تستهدف ـ منذ هجمات 9/11 ـ الغرب بما هو كذلك، لا سياسة فحسب، بل أيضاً وأساساً حضارة. والحال أيضاً أن ثقافة كراهية الآخر، وكراهية حضارة الآخر ـ وهنا الغرب ـ هي التي تشكل اليوم، مهما تعددت وتتوعد المحفزات الخارجية، ينبوع الداخلي الأول للإرهاب، ولأسيما أن ثقافة الكراهية تلك، التي تخصصت في إنتاجها الشريحة المشار إليها من الأنتلجنسيا العربية، قد حظيت خلال العقود المنصرمة، وبفضل المنّ النفطي، بتمويل مادي هائل أتاح لها أن تتحول إلى ثقافة سائدة.

ج.ط

باريس 2005

## مقدمة

ليست المقدمات بمستحبة دوماً. فشان المقدمة أحياناً شأن من يريد أن يلخص لك قصة بوليسية، فيبدأ أول ما يبدأ بإخبارك من هو القاتل. وإذا كانت المقدمة تفترض تلخيصاً مكثفاً للفكرة المركزية التي سيجري تطويرها على امتداد فصول الكتاب، فإنه قد يكون من المشروع التساؤل: كيف يمكن أن يلخص في سطور قليلة كل ما استأذنه الشهور، بل السنون المديدة، من جهود في الحس بواقع الأشياء، وفي الربط فيما بينها، وفي جمع المشاهدات والشواهد، وفي إخضاعها جميعاً للتحليل وإعادة التركيب، وفي استنتاج دلالاتها الظاهرة والباطنة، الواقعية والرمزية، وفي إعادة نسجها على نول رؤية واحدة وخط منهجي واحد؟

ومع ذلك لا بد، كما في كل مقدمة، من وقفين: واحدة عند المنهج، وأخرى عند الموضوع.

وأما المنهج - وهو هنا التحليل النفسي - فقد كنا لدورناه بقدر أو بآخر من اليسر في دراساتنا عن الرواية العربية. وقد كانت المهمة سهلة، والخصوبة مضمونة نسبياً. فالرواية العربية كانت ولا تزال، في تيارها الأعرض، رواية سيرة ذاتية. والحال أن التحليل النفسي، الذي رأى النور مع التحليل الذاتي الذي أخضع فرويد نفسه له، كان ولا يزال بامتياز منهجاً لكتابة السيرة الذاتية أو لإعادة قراءتها.

ولكن الصعوبة التي واجهتنا، في محاولتنا تمديد الخطاب العربي المعاصر على سرير التحليل النفسي، هي البنية «الموضوعية» لهذا الخطاب، المستقلة ظاهرياً عن ذاتية منتجه، فضلاً عن أن فاعل الفعل في عملية إنتاج هذا الخطاب هو ولو الجماعة، وليس ضمير الأنا المتكلم. ولا يتسع لنا، في إطار هذه المقدمة، أن نفيض في الكلام عن الكيفية التي أمكن لنا بها أن نتغلب - على ما نعتقد - على هذه الصعوبة. ولكن حسبنا الإشارة إلى أن للرضات الكبرى في تاريخ الجماعات والشعوب - ومنها على سبيل المثال رضة حزيران-يونيو 1967 - من شأنها أن تولد سلاسل متناظرة من

ردود الأفعال المتطابقة أو المتماثلة بحيث تبدو الجماعة وكأنها تسلك سلوك الفرد الواحد، وبحيث يمكن اتخاذها موضوعاً لعلوم الذاتية البشرية، ومنها التحليل النفسي الذي ما منعه انتماؤه المجهور به إلى علم النفس الفردي من أن يطور فروعاً وشعباً في مضمار علم النفس الجمعي.

وما نحرص على التنبؤ به هنا من الناحية المنهجية هو أن التزامنا بدليل عمل فرويديّ النسب لا يمنعنا من البقاء منفتحين على التأويل اليونغي، أو على التأويل الذي طوّره جيرار ماندل، على سبيل المثال، وغيره من رواد المدرسة ما بعد الفرويدية. فالتحليل النفسي لم يكن في يوم من الأيام مذهباً، وهو ما ألّف قط جسماً نظرياً مكتمل النمو؛ فهو قيد تخلق مستمر؛ وما من محلل نفسي جدير بهذا الاسم إلا وكان له - مهما يكن من أورتونكسيته - إسهامه الخاص، بل لغته الخاصة ورؤيته الخاصة في الممارسة والتنظير.

ولأن المنهج التحليلي النفسي ليس مجموعة جاهزة من القواعد، فإن الكلام عن «تطبيقه» يبدو في غير محله. فأى «تطبيق» لمنهج التحليل النفسي هو إعادة اختراع، وبالتالي تطوير له وإخصاب. وكل تطبيق يكفي بأن يكون «تطبيقاً» يحكم على نفسه سلفاً بالعقم، أي بالوصول إلى نتائج معروفة مقدماً. فالتحليل النفسي عملية بناء مستمرة. وقد لا يتعدى حظ البناء للواحد لبنة واحدة. وقد يفلح من هو معماري حقاً من البنائين في تشييد طابق أو أكثر، هذا إن لم يستقل لنفسه بعمارة على حدة. ولكن «التطبيق» المحض، بدون حد أدنى من الابتكار والإضافة، هو بحكم المستحيل. إذ أن التحليل النفسي، مهما ادعى لنفسه من قوام العلم الموضوعي، هو أيضاً فن ذاتي. وخصوبته، كمنهج، مرهونة بهذا الشق المرتبط منه بشخص «مطبق» المنهج وبرؤيته ومعرفته وامتلاكه لأدواته وعمق حدوسه ورحابته.

ولأن التحليل النفسي ليس منظومة جاهزة من القواعد، بل هو - كمنهج - برسم إعادة الاختراع دوماً، فإن القارئ لنا لن يقع في كتابنا هذا على أي عرض نظري. صحيح أننا قد نضطر بين الحين والآخر إلى شرح مبدأ بعينه أو نظرية بعينها من المبادئ والنظريات المتراكمة في ورشة العمل الدائمة التي هي المنهجية التحليلية النفسية، ولكن أكثر ما سنتحاشاه هو ذلك

النهج الأكاديمي التقليدي الذي عودنا عليه في الآونة الأخيرة الباحثون «التطبيقيون» الذين تنقسم بحوثهم أو أطروحاتهم الجامعية لا محالة إلى قسمين: قسم قاموسي يتضمن عرضاً نظرياً سكونياً لجملة من المبادئ والمسلّمات المتعلقة في سماء التجريد، ثم قسم إجرائي تلبس فيه تلك المجردات النظرية ما يناسبها من كموة، مفصلة في الغالب سلفاً.

ولكن غياب العرض المستقل لمبادئ التحليل النفسي كجسم نظري قائم في ذاته في كتابنا هذا لا يمنع بطبيعة الحال من حضور المنهج على نحو منجل وملتحم، وقابل بالتالي للاستقراء، في جميع المقدمات والنتائج – والجسور الواصلة بينها – التي نطلق منها أو ننتهي إليها في هذه الجلسة التحليلية النفسية المطوّلة مع الخطاب العربي المعاصر. وهذا الحضور في ظل الغياب لن يتيح لنا أن نكون أكثر جدلية في حركة ذهابنا وإيابنا النقدية داخل الخطاب العربي المعاصر فحسب، بل سيعطينا أيضاً – إلا فيما ندر – من تحميل القارئ مشقة هضم الشروح للقاموسية لمصطلحات التحليل النفسي. وصحيح أنه ستكون لنا، حيثما دعت الضرورة المنهجية، لغتنا الاصطلاحية الخاصة، إلا أن هذه اللغة ستظل مفهومة من القارئ المثاني مهما كانت ضئيلة، أو حتى معدومة، حصيلته من المعرفة المسبقة بمبادئ التحليل النفسي ومذاهبه.

وإذا جئنا بعد ذلك إلى موضوع كتابنا – وهو في الوقت نفسه الموضوع المطابق على ما نفترض لمنهجنا – فإننا نجد أنفسنا ملزمين، في إطار هذه المقدمة، بتقديم بعض التحديدات أو الإيضاحات حول العنوان بالذات: «عصاب جماعي عربي». فإن يكن العصاب هو بالتعريف كل خلل أو اضطراب من طبيعة مرضية<sup>(1)</sup> يصيب الشخصية أو قطاعاً منها نتيجة لتمحورها حول عقدة نفسية، فإن العقدة التي ينتظم من حولها «العصاب الجماعي العربي» هي، كما سيأتي البيان، عقدة التثبيت على الماضي في مواجهة حاضر جارح. وعلى اعتبار أن هذه العقدة من طبيعة نكوصية، فقد كان لا بد لنا من تحديد اللحظة التاريخية التي أتاحت المناسبة لاشتغال آلية

---

1. من هنا كان «عصاب» على وزن «فعل»، وهو وزن الظواهرات المرضية باللغة العربية من قبيل «صداع» و«خراج» و«زحار» و«جذام» و«سعار»، إلخ.

النكوص، أي الارتداد إلى الوراء؛ وتلك كانت، على ما سيأتي البيان أيضاً، رضة الهزيمة الحزيرية التي كان لها مفعول مُمرضٌ على الشخصية العربية.

وعلى هذا النحو يتحدد لموضوع كتابنا عدد من القسّمات المتقارنة. فالخطاب الذي نخضعه للتحليل هو الخطاب العربي المعاصر، أي الخطاب الذي بدأ ينتج نفسه ويعيد إنتاجها منذ هزيمة حزيران 1967. وهو بذلك يتميز عن الخطاب العربي الحديث الذي رأى النور غداة الحرب العالمية الثانية، كما يتميز عن الخطاب العربي النهضوي الذي يغطي تمام عصر النهضة من 1798 إلى 1939.

وما نخضعه للتحليل هو خطاب، والخطاب هو وظيفة إنتاجية للأنتلجاسيا. وعليه، عندما نتحدث عن عصاب جماعي عربي، فإننا لا نعممه ليشمل جميع العرب في جميع بلدانهم وجميع أجيالهم وطبقاتهم، بل نخصمه لنقصد به حصراً الخطاب المعصوب الذي تنتجه وتعيد إنتاجه شريحة واسعة من الأنتلجاسيا العربية منذ الرضة الحزيرية. وبما أن عصابية هذا الخطاب تكمن في تثبيته على الماضي، فمن الممكن إذن تحديده بمزيد من التخصيص بأنه خطاب للتراث أو الخطاب التراثي في نتاج الأنتلجاسيا العربية المعاصرة - أو ما يسمي نفسه أيضاً بخطاب الأصالة. وبما أن كل نكوص نحو الماضي يجد مبرراته ودوافعه - اللاشعورية في الغالب - في إحباطات الحاضر، فإن كل خطاب تراثي يحمل أو يعكس ضمناً موقفاً من الحاضر ومن العصر، وبالتالي، من حضارة العصر. ومن هنا صدور الخطاب العربي للحديث المعصوب عن ثنائية شالّة: فكان لا تراث إلا في مواجهة العصر وبالمضادة معه، وكأن لا أصالة إلا في مواجهة الحداثة وبالقطفية معها. وإما لأن كل مرض بالماضي هو مرض من العصر، فإن خطاب الارتداد إلى التراث غالباً ما يفتقر، عن ضرورة شبه قهرية، بخطاب ارتداد عن العصر.

وهنا تحديداً نضع إصبعنا على نقطة تحول خطيرة في مسار الأنتلجاسيا العربية، في تيار غالب من تياراتها راهناً.

فهذه الأنتلجانسيا مثّلت بقدر أو بآخر، وعلى امتداد تاريخها الحديث، عامل نهضة وتقدم.

ولكن هذه الأنتلجانسيا عينها، أو شريحة واسعة وسائدة منها، باتت تحتل موقعها اليوم، وكما سيأتي البيان، داخل معادلة للتخلف بالذات باعتبارها عاملاً من عوامله.

ولعلنا لا نملك وصفاً للتحول في موقف هذه الشريحة الواسعة والسائدة اليوم من الأنتلجانسيا العربية إلا بالرجوع إلى قولة بديعة لطف حسين.

ففي «مستقبل الثقافة في مصر» الصادر عام 1938، كان هذا الداعية النهضوي قد شخص أزمة الأنتلجانسيا العربية بأنها أزمة علاقة مع الحضارة الحديثة، مؤكداً على أنه قد آن الأول «لنقبل على هذه الحضارة باسمين لا عابسين».

واليوم، وبعد مضي أكثر من نصف قرن، لئن طرأ من تبدل في موقف الأنتلجانسيا العربية، فليس في انقلاب عبستها إلى بسمه. فهي لا تزال على وضعها الانفعالي الذي لحظها عليه من كان يدعى بالأمس - أي قبل الردّة - بعميد الألب العربي. وإنما الذي انقلب على يديها من الضد إلى الضد هو شعار طه حسين نفسه. فلما كان حالها يردد اليوم: «لندبر عن هذه الحضارة عابسين لا باسمين».

وأخطر ما في هذا الانقلاب أنه يأخذ، في أيام الردّة هذه، شكل جائحة إيديولوجية ووباء نفسي. وإنما لأن هذا الوباء يتهدّدنا جميعاً، بنون ضمانه من أي مناعة، كان كتابنا هذا الذي سيحاول أن يرصد، في قسم أول، العصاب الجماعي للأنتلجانسيا العربية في الحالة العامة لتخصّصه واشتغاله وتعبيراته، وفي قسم ثان، حالة مشخصة وخاصة من تظاهره هي الحالة التي تقدمها كتابات حسن حنفي الذي هو بلا جدال الممارس الأكثر تميزاً والأشمل تمثيلية والأغزر إنتاجاً للخطاب للتراثي المريض بالغرب في الإيديولوجيا العربية المعاصرة.

وكتابنا، رغم التزامه المنهجي وتقيده الصارم بروح الموضوعية العلمية، لا يخفي أنه يريد نفسه عن سبق قصد وتصميم متورطاً في المعركة. فالوباء لا بد أن يوقف عند حده، وعدواه عن الانتشار. وهذا ما

يجب أن يكونه أمر اليوم على مدى السنوات القادمة في لائحة مهمات كل مثقف عربي حريص على أن تكتب له النجاة.

لأنه إذا ما قُيِّض لخطاب العصاب أن يصبح هو أيضاً خطاب السلطة، فإن ما سيفتح أمام المثقف، وأمام الإنسان العربي في كل بقعة من الوطن، هو مستقبل من الظلامية.

وفي هذا العقد الأخير من القرن العشرين تبدو الظلامية، بحكم التطور الهائل في تقنية التعبئة الإيديولوجية والنفسية للجماهير، مرشحة لأن تكون شمولية أكثر من أي وقت سبق، ومرشحاً معها العالم العربي بالتالي للانكفاء على ذاته في قرون ومسطى جديدة.

ولن يكون التواطؤ ولا الامتثالية - وهو الموقف الذي يُغري أعداداً متزايدة من المثقفين العرب - ضماناً للنجاة.

فالظلامية هي مثل الثورات، بل أكثر من الثورات، في قسوتها على أبنائها. فإن كانت الثورة تنتهي بأكملهم، فإن الظلامية تبدأ به. فهي لا تطيق وجود متورين حتى في صفوف دعائها.

ولكن الظلامية، رغم كل شيء، ليست قدراً نهائياً. إذ أن العصاب نفسه - ما لم ينحط إلى ذهان - هو بالتعريف تعبير عن صراع. فمهما يكن من قسوة إحباطات الحاضر ومن قوة التثبيت الرضّي على الماضي والدفع باتجاه النكوص، فإن في الدينامية النفسية قوى دافعة أيضاً باتجاه المقاومة والمعافاة والتقدم. وكتابنا هذا لا يطمح، في التحليل الأخير، إلا إلى تسليط بعض إضاءات على الآلية العصابية اللاشعورية لتكف عن أن تكون بؤرة خصبة للإيديولوجيا الظلامية، ولتتأخر بالتالي فرص أفضل لعوامل الصحة للتغلب على عوامل المرض، وهذا سواء على مستوى السطح في الخطاب الإيديولوجي، أو على مستوى العمق في الركائز النفسية التحتية لهذا الخطاب.

ج. ط

باريس 1990



# الفصل الأول

## من الصدمة إلى الرضة

«العربي.. يعجب بماضيه وأسلافه، وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله».

جمال الدين الأفغاني

«العصاب هو عجز الإنسان عن الإفلات من قبضة الماضي ومن عبء تاريخه».

فيليب ريف

«العصابي يشيح عن الواقع لأنه يجده لا يطاق، يتماهى أو في بعض أجزائه».

سيمون فرويد

ثمة شبه إجماع في الخطاب العربي المعاصر على توصيف لحظة احتكاك العالم العربي بالغرب بأنها كانت بمثابة صدمة.

وقد تتعدد في الخطاب العربي المعاصر أوصاف هذه الصدمة: فهي تارة الصدمة الاستعمارية أو الكولونيالية أو الإمبريالية، وتارة ثانية الصدمة الأوروبية أو الغربية، وتارة ثالثة الصدمة الحضارية أو صدمة الحداثة.

ولكن مهما تعددت الأوصاف فإن الموصوف يبقى واحداً: فالصدمة هي اليوم واحد من المفاهيم المحورية التي تحكم وعي الوعي العربي لذاته.

والحال أن هذا المفهوم، المقتبس من علم الميكانيك وعلم النفس معاً، يحيل، بالدلالة التي يتم توظيفه بها في الخطاب العربي المعاصر، إلى راد الفعل أكثر منه إلى الفاعل، إلى المصدوم أكثر منه إلى الصادم. فبييت القصيد هنا مصير من تلقى الصدمة، لا مصير من جاءت منه الصدمة.

وبعبارة أخرى، إن المفترض الأساسي لميكانيكا الاحتكاك هذه هو أننا لسنا أمام حالة تصادم بين جسمين متحركين، بل أمام حالة صدم جسم متحرك لجسم ثابت. ومن ثم، فإن مدلول الصدمة هو بالتحديد تلك الحركة التي تدب في الجسم الثابت فتجعل منه متحركاً ثانياً نتيجة لقوة الدفع التي تلقاها من المحرك الأول.

هذه العطالة التي آلت إلى حركة، بقوة دفع مخارج لها، هي التي عمّدت في الفكر العربي الحديث وفي الخطاب العربي المعاصر باسم النهضة.

ولسنا بحاجة إلى الإكثار من الشواهد. حسبنا أن نأخذ عينة تمثيلية ثلاثية لممثلي أبرز ثلاثة تيارات في الخطاب العربي المعاصر: التيار العقلاني المعتدل أو النسبي<sup>(1)</sup> والتيار السلفي المنتور، والتيار السلفي الخالص.

يقول محمد عابد الجابري، وهو اليوم من أبرز ممثلي العقلانية المعتدلة في الساحة الفكرية العربية<sup>(2)</sup>:

— «إن النهضة العربية الحديثة كانت أساساً، ومنذ البداية، وليدة الصدمة مع قوة خارجية ومهددة، قوة الغرب وتوسعه الرأسمالي»<sup>(3)</sup>.

---

1. نشدد هنا على النعت «النسبي» لأننا نعتقد أن التيار العقلاني المطلق معنوم الوجود أو مقنوم الوجود (بقوة الرقابة الذاتية أيضاً) في الفكر العربي الحديث والمعاصر.

2. كتبنا هذا الكلام عام 1990 قبل أن يفصح الجابري عن تراجعاته ومساوماته مع الأصولية.

3. انظر مداخلته في «ندوة التراث وتحديات العصر»، بعنوان: «إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر: صراع طبقي أم مشكل ثقافي؟»، في: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1985)، ص 41.

ويقول محمد عمارة، وهو ممثل بارز للسلفية المتتورة<sup>(1)</sup>:

— «كان منطقياً ومبرراً ذلك المشهد الذي استيقظ له الشرق العربي وفتح بسببه عقله وعيونه، مشهد الغرب الذي عاد في صورة بونابرت ومن بعده من تلاء من الغزاة، لينتصر عسكرياً، بعد أن انتصر في بلاده حضارياً... وعندما أدهش هذا المشهد عقل العرب وقلوبهم، حرك فيهم ما يحركه مس الكهرياء، إذا هي لم تصعق فتميت، وإذا هي وقعت عند حد الإيقاظ والتنبيه»<sup>(2)</sup>.

ويقول راشد الغنوشي، ممثل السلفية الخالصة:

— «لم يصحُ [العالم الإسلامي] من غطيطة الطويل إلا على مدافع الغرب تلك كهوفه المتداعية ونقوض مؤسساته، فتصدمه في كبرياته وطمأنينته الزائفة إلى سلامة أوضاعه.. [فكانت] صدمة عنيفة في شعور المسلم أيقظته من نومة الانحطاط»<sup>(3)</sup>.

وواضح من هذه الشواهد أن صدمة اللقاء مع الغرب كان لها مفعول إيقاظي أو تنبيهي، ومن هنا كانت المرادفات الأخرى التي سمي بها عصر النهضة العربية: عصر الاستفاقة أو الصحوة أو اليقظة.

والحال أن الأطروحة المركزية التي يدور عليها البحث الذي نضعه هنا بين يدي القارئ هي أن ذلك المفعول الإيقاظي التنبيهي قد انقلب إلى ضده، أي إلى مفعول تنويمي تخديري، وذلك طرداً مع تحول الصدمة CHOCK إلى كدمة أو رضة TRAUMA.

وحالما نتقدم بهذه المصادرة نتطرح علينا جملة من الأسئلة، وأولها: ما الفارق بين الصدمة والرضة؟

1. هنا أيضاً سنلاحظ أن محمد عمارة كفّ خلال الخمسة عشر عاماً التي انصرفت على صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن أن يكون «متتوراً» ليصير سلفياً خالصاً.
2. محمد عمارة، العرب والتحديث، سلسلة عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1980)، ص 159-160.
3. راشد الغنوشي، مقالات (منشورات حركة الاتجاه الإسلامي بتونس، دار الكروان، باريس 1984)، ص 42 و 88.

إنه فارق كمي في المقام الأول: فإذا كانت حمولة الصدمة من شحنة التنبيه ضمن طاقة احتمال الجسم المصدوم، وقابلة بالتالي للضم والتمثل وإعادة التوظيف، تحولت إلى قوة دفع وحفز، وكان لها مفعول «دوي القصف» المنبه من «نومة الاحتطاط» على حد تعبير ممثل السلفية الخالصة، أو مفعول «المس الكهربائي» الموقظ للقلب والعقل من «نوم الغفلة» على حد تعبير ممثل السلفية المتنورة<sup>(1)</sup>، أو أخيراً مفعول «المهماز» على حد تعبير ممثل العقلانية المعتدلة في توكيده بأن الحضارة الأوروبية كانت في «تحديها للحرب ثقافياً وعسكرياً المهماز الذي أيقظهم وطرح مشاكل النهضة عليهم»<sup>(2)</sup>.

ولكن بالمقابل إذا كانت شحنة الصدمة من التنبيه فوق طاقة احتمال الجسم المتلقي، وغير قابلة بالتالي للدمج والتوظيف في ما سنسميه بعملية الأيض النفسي METABOLISME، كان لها مفعول عكسي: فبدلاً من أن تطلق في الجسم المعني آليات الدفاع السوي والتكيف الواعي من خلال تعرف الواقع ومواجهته (وذلك هو مرادف «الصحة» أو «البقطة») تطلق فيه على العكس الآليات اللاشعورية للدفاع المرضي من خلال العزوف عن تعرف الواقع وعن مواجهته، ومن خلال إلغاء العقل النقدي، والعدول عن التعاطي الواقعي والمعرفي مع العالم إلى التعاطي السحري، والاستعاضة عن الوقائع بالاستيهامات، وعن الأشياء بالألفاظ.

والفارق أيضاً فارق كيفي: فالصدمة مفهوم فيزيائي في الأصل، أما الرضة فأخوذة هنا بالمعنى النفسي. وتتجلى الطبيعة الفيزيائية للصدمة في وظيفتها التغييرية: تغيير الذات وتغيير الواقع الخارجي معاً. فالصدمة ليست مجرد إيقاظ من «نوم الغفلة»، بل هي استحضار أيضاً، على صعيد الوعي، لضرورة التغيير عن طريق التدخل الواعي والإرادي في مسار التاريخ. ومن هذا المنظور جرى في عصر النهضة توظيف تعبوي لم يسبق له مثيل للآية 11 من سورة الرعد التي تم تأويلها في غير سياقها بهدف صياغتها

1. والتعبير هو بالأصل للطهطاوي، الرائد الأول والكبير للسلفية المتنورة.

2. محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ط2 (دار للطباعة، بيروت 1985)، ص18.

في معادلة لاهوتية - ناسوتية فذة لجدل التغيير: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». والواقع أن التغيير هو القاسم المشترك بين مختلف الإستراتيجيات النهضوية في عصر الرواد، ابتداءً بشيخ الأزهر في زمن الحملة الفرنسية، الشيخ حسن العطار (1776-1835) الذي لخص على النحو التالي درس الذي استفاده من تجربة الاحتكاك مع علماء الحملة النابوليونية: «إن بلادنا لا بد أن تتغير، ويتجدد بها من العلوم ما ليس فيها»<sup>(1)</sup>. وبدوره أكد تلميذ حسن العطار، الشيخ رفاة الطهطاوي (1801-1873)، على الحاجة الكبرى إلى للتغيير كيما تستيقظ «سائر أمم الإسلام من نوم الغفلة» و«يبحثوا عن العلوم البرانية، والفنون والصنائع، وهي التي كمالها ببلاد الإفرنج ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع»<sup>(2)</sup>. وبينى خير الدين التونسي (1820-1890) إستراتيجية التغيير هذه على «إغراء» و«تحذير» معاً: إغراء «نوي الغيرة والحزم من رجال السياسة والعلم» بتبني مشروع التغيير و«التماس ما يمكنهم من الوسائل الموصلة إلى حسن حال الأمة الإسلامية وتنمية أسباب تمدنها بمثل توسيع دوائر العلوم والعرفان وتمهيد طرق الثروة من للزراعة والتجارة وترويج سائر الصناعات»، وتحذير «نوي الغفلة من عوام المسلمين» من مغبة معارضة مشروع التغيير بحجة عدم جواز الاقتداء بما «تفعله الأمة الإفرنجية»، إذ «الواجب مجاراة الجار [ولو كان إفرنجياً غير مسلم] في كل ما هو مظنة لنقصه»، فذلك شرط «الاستعداد الواجب شرعاً» لمواجهته ومقاومته، و«هل يمكننا الحصول على الاستعداد المشار إليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا؟ وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا في للتأسيس على دعائمي العدل والحرية، اللتين هما أصلان في شريعتنا، ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك»<sup>(3)</sup>. ولعلنا هنا بطبيعة الحال

1. نقلاً عن: عسرة، العرب والتحديث، ص 160.

2. نقلاً عن: المصدر نفسه، ص 203.

3. خير الدين التونسي، أقوم الممالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق ودراسة معن زيادة،

ط 2 (للمؤسسة الجامعية، بيروت 1985)، ص 149-154.

بصدّد تعداد جميع مناحي التغيّير التي دارت عليها إستراتيجيات الرواد النهضويين: العلم والتعليم، التنظيم السياسي والمدني، العمران والصناعات والفنون، الأخلاق ووضع المرأة، الاستتارة العقلية والدينية، التضامن القومي والتسامح المذهبي، الخ. ولكن لنا أن نلاحظ أن «صدمة اللقاء مع الغرب» كان لها مفعول صحي من وجهة للنظر النفسية إذ استأثرت الوعي الجمعي إلى تمثّل الضرورة التاريخية للتغيير، سواء منه ما كان باتجاه إعادة تشكيل الذات AUTOPLASTIQUE أو ما كان باتجاه إعادة تشكيل العالم المحيط ALLOPLASTIQUE؛ أي بعبارة أخرى، ضرورة التكيف مع الواقع وتكييف الواقع في آن معاً. وبذلك يمكن القول إن إستراتيجية التغير والتغيير المزدوجة هذه، التي تتلخص بها إشكالية عصر النهضة برمتها، أتاحت للعرب أن يجتازوا بنجاح وسلامة نسبيين أخطر أزمة حضارية مرّ بها وجودهم عبر التاريخ، وأن يتحاشوا، بشغلهم المزوج على ذاتهم وواقعهم، مصير الأوباء المنقرضة، وهو المصير الذي عرفه فعلاً في العصور الحديثة الهنود الحمر الذين عجزوا عن التكيف مع الواقع وعن تكييف الواقع سواء بسواء.

لكن إذا كانت الصدمة تستتفر الوعي على هذا النحو وتشحذه وتجعله أكثر حساسية بالواقع الداخلي والخارجي على حد سواء، فإن ما تستتفره الرضة النفسية بالمقابل هي القوى الضديّة للاشعور، ويكون من شأنها بالتالي أن تنكّم الوعي وأن تخدّر حساسيته وأن تفتح أمامه المسارب للهرب من الواقع بدل مواجهته. وإن يكن للمفعول الوظيفي للصدمة هو مطلب التغيير، فإن منزوع الرضة النفسية هو إلى التثبيت FIXATION. فبدلاً من تسريع النمو، يزداد الضغط اللاشعوري من أجل وقف النمو ومن أجل إلغاء النمو. وما كان مع الصدمة مهمازاً، يستحيل مع الرضة لجاماً. والاننفاع إلى الأمام باتجاه التقدم تنكفي على نفسها نكوصاً. وآلية الدفاع السوي التي كانت تعمل وفق مبدأ التكيف والتكيف تنقلب إلى آلية دفاع مرضي من النمط النعامي أو القوقعي. وبدلاً من مطلب الصحة وتصحيح «الخلل في العمران وفي السياسة»<sup>(1)</sup>، يعمي الاحتماء بالمرض هو الدريئة المثلى. ولا

1. المصدر نفسه، ص152.

يندر في بعض الحالات المشتطة أن يبلغ من ضيق الذات بذاتها أن يداخلها الاعتقاد بأن الوسيلة الوحيدة المتبقية أمامها لحماية ذاتها وفك الحصار عنها هي تدمير ذاتها. ومن هنا كان، في بعض حالات الرضعة العامة، تواتر ظاهرة الانتحار الجماعي. ولكن بما أنه يتعذر على المعدة في العادة أن تهضم نفسها، فإنه غالباً ما يكتفى من تدمير الذات بتدمير واجهتها الأكثر قابلية للتدمير، أي الوعي. والوعي المدمر أو الملقى هو الشكل الرئيسي لتظاهر العصاب الجماعي. ولكن بما أن العصاب، سواء أكان فردياً أم جماعياً، لاحق على الرضعة وعقبى لها، فقد أن لنا أن نطرح السؤال الأكثر عيانية: ما هي في تاريخ الحالة المرضية العربية التجربة التي كان لها مفعول الرضعة وأدت إلى تخض عصاب جماعي تظاهرت أولى أعراضه - ولا تزال - في شكل وعي مدمر أو ملغى في أوساط عين الشريحة الاجتماعية المتخصصة في إنتاج الوعي، أي الأنتلجاسيا؟

إنه مرة ثانية دوي القصف. ولكنه هذه المرة ليس دوي قصف المدافع النابليونية، بل دوي قصف للطائرات الإسرائيلية التي أذاقت العرب في حرب حزيران-يونيو 1967 مرارة هزيمة بدا معها حلوا طعم جميع الهزائم التي مني بها الوطن العربي قطرا قطرا وإقليماً إقليمياً في مواجهة المستعمر الغربي، أفرنسياً كان أم إنكليزياً أم طليانياً، على امتداد الحقبة الكولونيالية التي بدأت باستعمار الجزائر عام 1830 وانتهت عملياً - مع بعض استثناءات طرفية - بفوز هذه الأخيرة باستقلالها عام 1962.

ولكن قبل أن ندخل في تحليل حرب 1967 باعتبارها مظهراً نموذجياً لرضعة جماعية ونبيّن لماذا احتلت موقعها في سجلات الشعور - واللاشعور - العربي بوصفها «حرب يونيو السوداء»<sup>(1)</sup>، لا بد لنا أن نسجل نقطة خلاف - هي هنا جوهرية - مع ممثل العقائدية المعتتلة الذي تصدى، ضمن أفق مشروعه الأوسع ل«نقد العقل العربي»، لإجراء «دراسة تحليلية نقدية»، من موقع «النقد الابستمولوجي»، «للخطاب العربي المعاصر».

---

1. للتعبير لأنور عبد الملك والتسويد منا. انظر: أنور عبد الملك، ربح الشرق (دار المستقبل العربي، القاهرة 1983)، ص 12.

إن صاحب هذه الدراسة يصادق مثلنا على أنه «ما إن وقعت هزيمة 1967 حتى أخذ الخطاب العربي ينتكس إلى الوراء، لا ليتحصن في مواقع صلبة بروح الواقعية الثورية، بل ليركن إلى أطلال الماضي يستعيد حلم النهضة وسط كابوس الهزيمة»<sup>(1)</sup>.

ولكنه انطلاقاً من هذه المصادرة يقيم بين هزيمة 1967 والخطاب العربي المعاصر علاقة معاكسة لتلك التي نتطلع إلى إقامتها بدورها.

فهو يرى أن «كل ما حدث على صعيد الواقع [في حرب 1967] هو انكسار جيوش واحتلال أراض، الشيء الذي لا يعني على صعيد الواقع كذلك أكثر من الواقعة التالية، وهي أن العرب خسروا حرباً أخرى مع إسرائيل»<sup>(2)</sup>. وتنتبه على هذه الفكرة يضيف قوله: «لا مجال تماماً لمقارنة هزيمة 1967 بما حل بفرنسا أو بألمانيا أو باليابان في الحرب العالمية الثانية»<sup>(3)</sup>. وانطلاقاً من هذه الملاحظة التقريرية يسهل عليه أن يقلب - في جوابه عن سؤال: «لماذا إذن كان وقع هذه الخسارة على الوعي العربي عظيمًا مهولاً؟» - علاقة العلة والمعلول بين الرضة وخطابها الإيديولوجي، ليؤكد أن الخطاب العربي المعاصر ما رأى في هزيمة 1967 تلك المفاجعة السوداء التي رآها فيها إلا لأنه في الأصل خطاب «مريض»، خطاب «لامعقول»، «خطاب وجدان وليس خطاب عقل». وهو يعمم هذا الحكم لا يشمل به الخطاب العربي المعاصر وحده - وهذه نقطة نتفق وإياه بصددتها بحكم التزامنا المنهجي بالذات - بل كذلك - وهنا نعود إلى الاقتراق عنه - الخطاب العربي الحديث برمته، أي للخطاب العربي الذي ساد المساحة الفكرية العربية منذ مطلع عصر النهضة في أواسط القرن التاسع عشر إلى الثمانينات من القرن العشرين. وعنده أن هذا الخطاب، «سواء ما كان منه ينتمي إلى أواخر القرن الماضي أو ما كان منه يكتب أو تعاد كتابته في أيامنا هذه - أوائل الثمانينات - هو خطاب عاجز عن «استيعاب الحقيقة

1. الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص32.

2. المصدر نفسه، ص33.

3. الموضع نفسه.



استيعاباً عقلانياً، بل كل شأنه أن «يعبر، في الأغلب الأعم، عن أحوال نفسية وليس عن حقائق موضوعية ولا عن تطلعات خاضعة للرقابة العقلية»<sup>(1)</sup>. وفضلاً عن أن «مقولات الخطاب العربي الحديث والمعاصر كانت ولا زالت مقولات فارغة جوفاء تعبر عن لفعالات إزاء الأحداث وليس عن منطق هذه الأحداث»، فإنها، كمقولات كل خطاب معصوب، تجهل التاريخية والتطور وتخضع لمبدأ التكرار اللازمي: «إذا كنا نضع كلمة «تطور» بين مزدوجين، معلنين بذلك عن تحفظنا من تطبيق هذا المفهوم - مفهوم التطور على قضايا الفكر العربي الحديث والمعاصر، فلأن الفصول السابقة أثبتت بما لا يحتاج إلى مزيد بيان أنه لم يحصل أي تطور حقيقي في أية قضية من القضايا النهضوية التي عالجها، وبعبارة أخرى أن الخطاب العربي والمعاصر لم يسجل أي تقدم ذي بال في أية قضية من قضاياها، بل لقد ظل سجين «بدائل»، يدور في حلقة مفرغة، لا يتقدم خطوة إلا ليعود القهقري خطوة... وقد تأكد لدينا أن زمن الفكر العربي الحديث والمعاصر زمن ميت أو قابل لأن يُعامل كزمن ميت»<sup>(2)</sup>.

إن القول على هذا النحو بلاتاريخية الفكر العربي الحديث والمعاصر يبدو لنا أنه يصدر هو نفسه عن رؤية لاتاريخية.

ففيما يتعلق بالتكرار وبالزمن الميت، فإننا لا نرى، أولاً، أن الخطاب العربي الحديث أو النهضوي كان يكرر ذاته. فصحيح أن المسائل التي دار عليها هذا الخطاب كانت بقدر أو بآخر واحدة، وصحيح أن المفكر النهضوي كان يعود بقدر أو بآخر إلى طرح عين المسائل التي سبقه إلى طرحها من تقدم عليه من مفكري النهضة، ولكن ما ذلك لأن زمن الفكر النهضوي كان «زماً ميتاً» ولا لأن هذا الفكر كان يخضع لألية التكرار العصبية. ولئن بدا أن فكر النهضة كان ينتظم في وحدة تكرارية، فهذا لأنه كان يصدر عن ويصب في إشكالية واحدة، هي بالتحديد إشكالية النهضة. وما دامت هذه الإشكالية قائمة ولم تجد حلها على صعيد الواقع العملي، ما

1. المصدر نفسه، ص 13 و 32.

2. المصدر نفسه، ص 33 و 178.

كان للفكر النهضوي أن يجاوزها ولا أن يجاوز تكراره الظاهري<sup>(1)</sup>.

ونحن لا نرى، ثانياً، أن الخطاب العربي المعاصر يكرر الخطاب العربي الحديث. فبقدر ما أن الخطاب العربي المعاصر هو من إفراز الرضعة الحزيرانية، بينما الخطاب العربي الحديث أو للنهضوي هو من إفراز الصدمة النابوليونية، فإن العلاقة التي تجمع بين الأول والثاني ليست علاقة وصل ونكرار، بل علاقة قطع ونكوص. ولئن بدا «بصورة لا تكاد تصنق» أن الخطاب للفكري العربي المعاصر يرتد «إلى ما قبل قرن من الزمن لي طرح من جديد نفس القضايا التي كان ينظر إليها قبل الهزيمة على أنها تجوزت»<sup>(2)</sup>، فإن هذا الارتداد ليس من قبيل التكرار أو الدوران في حلقة مفرغة كما يفترض مؤلف «الخطاب العربي المعاصر»، بل هو ارتداد بكل ما في الكلمة من معنى، أي نكوص. فالخطاب العربي المعاصر، الذي أفرزته الرضعة الحزيرانية، إن كان يطرح نفس القضايا التي طرحها الفكر النهضوي قبل قرن من الزمن، فإنه لا يقدم عنها نفس الإجابات. إنه يعود إلى طرحها لا ليقيم إجابات أكثر تقدماً من تلك التي قدمها الفكر النهضوي، بل ليقيم إجابات أكثر تأخراً، إجابات ما قبل نهضوية إذا جاز التعبير. وبمعنى آخر، إنه لا يرتد إلى عصر النهضة، بل يرتد عن عصر النهضة. يستأنف إشكالية عصر النهضة لا لينضوي تحت لوائها من موقع متغيرات العصر، بل لينسحب منها ويتبرأ منها كما سنرى لاحقاً. فهو، في إشكاليته بالذات، مضاد للنهضة. وحتى عندما يجهر بانتمائه اللفظي إلى عصر

1. إن الجابري نفسه هو خير من صاغ في الاستمولوجيا العربية إشكالية الإشكالية عندما قال، في نص سابق على الخطاب العربي المعاصر، إن «ما يؤسس ويحدد وحدة فكر ما، في مرحلة تاريخية ما، هو وحدة إشكالية هذا الفكر»، وعندما مثل على وحدة الإشكالية هذه بفكر عصر النهضة قلة: «لنأخذ مثلاً قريباً لتوضيح هذا المعنى، وليكن ما ندعوه بـ«الفكر العربي الحديث»، فكر «عصر النهضة». لقد عالج هذا الفكر إشكالية واحدة هي إشكالية النهضة، ومن هنا وحدته»، وعندما أشار أخيراً - معتبراً أن ذلك قد يكون من دلائل الخصوبة - أن «الإشكالية الواحدة لا تنقيد بإطار الزمان مكان، بل إنها تنقل، ما لم تتجاوز، مفتوحة أمام أي مفكر لاحق ليتابع التفكير فيها» (انظر: «المدخل العام»، الذي وضعه عام 1980 لمؤلفه نحن والتراث، ط3 (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 1983)، ص 38-40.

2. الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص 34.

النهضة، فإنه لا يُنمي ذاته في الواقع إلا إلى تياراتها الأكثر امتثالية والأقل جذرية. فهو عندما يختار بين الأفغاني والكولكي، مثلاً، فإنه يختار بلا تردد الأول ضدّاً على الثاني. وحتى عندما ينحاز على هذا النحو إلى الأفغاني - والأفغاني كما نعتقد أفغانيان<sup>(1)</sup> - فإنه ينحاز إلى الأفغاني السلفي ضدّاً على الأفغاني النهضوي. ولا يندر في بعض الحالات أن يرتد في هذا النكوص السلفي المنزع إلى ابن تيمية نفسه، بله إلى ابن حنبل<sup>(2)</sup>. وإذا كنا نكتفي هنا بالإشارة العجلى إلى أن هذه المحاولة لإلغاء عصر النهضة أو للقفز فوق إشكالياتها إلى ما قبلها وإلى ما دونها تمثل مظهراً إضافياً من المظاهر التي تتجلى بها عملية تنمير الوعي الذاتي التي تحكم كل سيرة نكوصية، أفردية كانت أم جماعية، فلأنه ستكون لنا وقفة مطولة لاحقاً عند النوافع النفسية التي تكمن وراء هذه الحاجة القهرية إلى تبييض صفحة الذاكرة الجماعية ومحو كل أثر فيها لعصر النهضة المقروء من قبل اللاشعور كما سنرى على أنه خطيئة، بل جريمة قتل بحق الأب.

أما فيما يتعلق، بعد ذلك، بمبحث الأسباب أو إتيولوجيا الأعراض المرضية التي يمكن استقراؤها من تحليل العلاقة بين هزيمة 1967 وخطابها الإيديولوجي، فإننا نميل إلى أن نصوغ معادلة العلة والمعلول صياغة معاكسة لتلك التي يقترحها مؤلف «الخطاب العربي المعاصر». فالجابري يرى أن هزيمة 1967 ما كانت لتقرأ تلك القراءة المريضة من قبل الوعي العربي لولا أن الخطاب اللانطق بلسان هذا الوعي والمفرز من قبله هو بالأساس خطاب مريض، كل وظيفته أن يعكس «أحوالاً نفسية وليس حقائق موضوعية». والحال أننا نرى أن هزيمة 1967، بمفعولها الرضّي، هي التي أمرضت الوعي العربي وخطابه معاً، أو على الأقل هي التي أتاحَت المناخ النفسي الملائم لجرثومة المرض اللثاوية في الوعي العربي لتتطور ولتحتطم دفاعات الصحة فيه وتسلمه فريسة مستباحة لحفزات اللاشعور وتياراته التحتية الجارفة.

1. مثل هذه الازدواجية نلتقيها عند كثرة من مفكري النهضة لا في طورين متباينين من حياتهم فصب، بل أحياناً في الطور الواحد أيضاً.

2. وهذا هو شأن حسن حنفي كما سنرى.

وبعبارة أخرى، إن مرض الخطاب العربي المعاصر هو عند مؤلف «الخطاب العربي المعاصر» بلا تاريخ، بلا «ما قبل وما بعد»، ومن هنا اعتباره مجرد امتداد لمرض الفكر العربي، بله العقل العربي برمته، دونما تمييز «بين مرحلة وأخرى»<sup>(1)</sup>، على حين أنه في تأويلنا مؤرّخ، ومحقب، ومتعّين، كما في كل الحالات العصابية، برضة أو بعلّة مُمرضة مخارجة له.

وبطبيعة الحال إننا، إذ نوّكد أن لعصابية الخطاب العربي المعاصر باثولوجيتها الخاصة، لا ننفي عامل الوراثة. فلا ريب عندنا أن الخطاب العربي المعاصر قد ورث عن سلفه، الخطاب العربي النهضوي والحديث، استعدادات مرضية، أو على كل حال جبلة ليست المناعة من أولى سماتها. فمن موروثاته من الخطاب النهضوي ما اتسم به من ازدواجية مستعصية على الحل بين روح المنافحة وروح النقد، وهي الازدواجية التي أملتتها على الخطاب النهضوي الحاجة إلى تأكيد الذات في مواجهة الغزوة الكولونيالية المنطلقة من قاعدة التفوق للحضاري الغربي، والحاجة إلى تغيير الذات في الوقت نفسه للاقتدار على القيام بعبء تلك المواجهة. كما أن من موروثاته من الخطاب العربي الحديث، وتحديداً الخطاب الثوري الذي ساد الساحة الفكرية العربية في مرحلة الاستقلالات القطرية ابتداءً من نهاية الحرب العالمية الثانية، التضخم الإيديولوجي على حساب تقلص البُعد المعرفي، وهو التضخم الذي سافقته إليه الحاجة التاريخية والإرادوية إلى التبدّل السريع للواقع على أساس من إستراتيجية حرق المراحل وتطويع «النهضة» إلى «ثورة» استباقاً للشروط الموضوعية التي ما كانت قد نضجت بعد لتطور من هذا القبيل. ولكن أياً يكن الدور الإيمراضي الذي يمكن أن يعزى لمثل هذه الموروثات، وحتى لتلك الأكثر إيغالاً منها في القمم كما قد تكشف عنها حفريات البنية الأثرية للعقل العربي في طوره الإسلامي الشفوي والمدنّن على حد سواء، فإن تفعيل هذه الموروثات يظل مرهوناً بخبرة راضّة فعلية من نتاج الواقع الموضوعي لا من استيهام الواقع النفسي، وهو ما يعيننا مرة ثانية إلى «حرب يونيو السوداء».

1. الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص7.

إن السؤال الأساسي الذي يطرح نفسه، بعد ترتيب المعادلة الإثنولوجية للرضة الحزيرانية انطلاقاً من وقع ضخمة الهزيمة على الخطاب، لا انطلاقاً من تضخيم الخطاب لوقع الهزيمة، هو التالي: لماذا كان لهزيمة 1967 وحدها، دون سائر الهزائم العربية في الحروب مع إسرائيل، وقع الرضّة ومفعول الرضّة؟

أولاً، لأنها كانت لامتوقعة. فالرضّة، كما يلاحظ ساندور فيرنزي، وهو من المحللين النفسيين القلائل الذين خصّوا الرضّة بتأملات نظرية، لا تكون رضّة بالمعنى النفسي للكلمة إلا إذا جاءت عن غير انتظار وإلا إذا كانت مسبقة بشعور عارم بالنقّة بالذات، وبمغالاة في تقييم قوة الذات، وبالوهم المرفوع إلى درجة اليقين بأن «شيئاً من ذلك القليل لا يمكن أن يحدث: ليس لذاتي أنا»<sup>(1)</sup>.

والحال أننا لا نغالي إذا قلنا إن ما من عربي، لا على مستوى القاعدة ولا حتى على مستوى القيادة، كان يتوقع عند اندلاع حرب 1967 شيئاً آخر غير النصر. وخلافاً لأبسط أصول المنطق الإستراتيجي الذي لا يلغي احتمال الهزيمة مهما تكن درجة يقين النصر، لم يكن ثمة توقع من الجانب العربي لاحتمال الخسارة، ولا حتى مجرد تفكير به<sup>(2)</sup>. وكيف كان لاحتمال

1. ساندور فيرنزي، تأملات حول الرضّة، في: الأعمال الكاملة، م 4 (منشورات بابو، باريس 1982) ص 139.

2. ربما نستثني من هذا الحكم متقفاً مثل ياسين الحافظ الذي كان يملك، بالإضافة إلى عقلانية نامية وإلى روح نقدية قيد التجنر، حساً رؤيويّاً أكيدا وجد ما يعزز مصداقيته في تواجد للكاتب يومئذ في باريس حيث كانت الحرية الإعلامية توفر شروطاً أنسب لمعرفة حقيقة موازين القوى وللتأزم بمعيار الواقعية والموضوعية في توقع النتائج. كتب يقول في سيرته الذاتية: «عندما نشبت حرب حزيران كنت ما أزال في باريس. في هذه المدينة يمكن للمرء أن يتابع الحرب ويعرف حقيقة مجرياتها أحسن مما لو كان في بلد عربي، حيث التعقيم أو المبالغة الإعلاميان. لقد أمسكت قلبي منذ أن بدلت الأمور في التأزم، وبالتحديد منذ أن طلب عبد الناصر سحب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ، واستجيب الطلب خلافاً لكل توقع. وعندما اندلعت الحرب، في اليومين الأولين بالتحديد، تملكني خوف من الهزيمة وأمل في صمود ما في نفس الوقت. وما إن أخذ غبار المعركة ينجلي عن هزيمة على الجبهات الثلاث، حتى أحسست بما يشبه الزلزلة الممزوجة بالعار» (ياسين الحافظ، «تاريخ وعي أو سيرة ذاتية لبيدولوجية-سياسية»، في: الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة، الآثار الكاملة. دار الطليعة، بيروت 1979)، ص 42.

الخسارة أن يجد موطن قدم في الوعي العربي ما دام هذا الوعي قد مارس على امتداد العقدين التاليين لهزيمة 1948 إستراتيجية إلغاء الوعي بخصوص كل ما يتعلق بمعرفة حقيقة العدو، ومادامت العين الإيديولوجية لهذا الوعي، الخاضعة لتكثيف إعلامي مكثف، كانت تعكس له على شبكيتها، من الجانب العربي، صورة مؤنثة ومفعمة للنفس نرجسياً لجيش أيوبي الرسالة، مكتمل العدد والعدد والجاهزية ومسلّم به سلفاً «كأقوى جيش في منطقة الشرق الأوسط»، في الوقت الذي تقدم له فيه عن جيش العدو صورة «عصابات»، وعن مواطني دولة العدو صورة «شذاذ أفاق»، وعن دولة العدو بالذات صورة «دويلة» أو كيان «هزيل» و«مصطنع»، عديم للقومية الذاتية، ولا يعتاش إلا على صدقة الاستعمار؟

ثانياً، لأن الهزيمة اللامتوقعة لم تكن مغطاة ولا قابلة للتغطية من وجهة نظر الدفاع عن التمامية النرجسية. كانت طعنة صماء للمثال الأثوي العربي، ولم يكن لها صمام أمان لتتفيس ضغطها الذي لا يطاق على عزة الذات القومية. كانت، بين سائر الهزائم العربية، هي الأكثر غريباً، وبالتالي الأكثر إذلالاً وجارحية. فهزيمة 1948 كان يمكن تبريرها بإلقاء التبعة فيها على الطبقات الحاكمة «العميلة» و«الرجعية». وهزيمة 1956 كان يمكن تمويهها، بل قلبها إلى نصر، ما دامت إسرائيل قد شنت الحرب بتواطؤ مباشر مع أعنى دولتين استعمارييتين وبمشاركة مباشرة لقوات إنزالهما الجوي والبحري. فخصم كبير أَرْضَى للنفس وأبرأ للجرح النرجسي من خصم صغير. وبالفعل، ومن وجهة نظر الجارحية للنرجسية تحديداً، «لا مجال لمقارنة هزيمة 1967 بما حل بفرنسا أو بألمانيا أو باليابان في الحرب العالمية الثانية». ولكننا هنا أيضاً لا نتفق مع مؤلف «الخطاب العربي المعاصر» إلا لنقلب طرفي المعادلة. فاليابان لم تهزم إلا في مواجهة دولة عظمى وبعد أن قصفت بقنبلتين نوويتين. أما هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في الحرب العالمية الثانية فكانت فعلاً مجرد هزيمة عسكرية. الجيش هو الذي انكسر، لا المجتمع. والحاجة المعنوية التي برزت بعد الهزيمة هي الحاجة إلى المقاومة، لا الحاجة إلى تغيير بنية المجتمع الفرنسي، ولا بالأحرى الحاجة إلى نقد بنية العقل «الفرنسي». أما هزيمة 1967 فكانت هزيمة

لعمارة المجتمع العربي ولبنيته المادية والعقلية معاً، هزيمة كاشفة لتأخره السياسي والاقتصادي والتقني والثقافي، فضلاً عن تأخره العسكري. وضدّاً على التفسير العسكري للصرف للهزيمة الذي يذهب إليه مؤلف «الخطاب العربي المعاصر»، يبدو أكثر مطابقة للواقع وأكثر اقتداراً على الإحاطة به التفسير المجتمعي الكلي الذي يذهب إليه مؤلف «الهزيمة والايديولوجيا المهزومة»: فالمهزوم في حزيران لم يكن جيشاً، ولا طبقة، بل مجتمعا. ولذا «فالمعنى العميق لحرب الأيام الستة يتجاوز بكثير معنى الهزيمة العسكرية، التي منيت بها هذه الأمة أو تلك في الحرب العالمية الأولى أو الثانية. كان ممكناً أن نسمي هذه الحرب هزيمة عسكرية لو كان ثمة ظل من النكافؤ السكاني بين الشعب العربي وإسرائيل. أما وأن إسرائيل أصغر بخمس عشرة مرة من قطر عربي واحد فقط، وتكسب منه المعركة العسكرية يمثل هذه السهولة والسرعة، عندئذ لا تعود المسألة مسألة هزيمة عسكرية، لا من قريب ولا من بعيد»<sup>(1)</sup>. وما دما بصدد المقارنة مع هزائم الأمم الأخرى فلنقل إن ما جعل من هزيمة 1967 رضىً كلية المفعول ومفرطة الجارحية هو بالتحديد العنصر القابل فيها للمقارنة، أي العنصر الكمي. فالإيبان، إذا شئنا العودة إلى التمثيل بها، ما هزمت إلا بعد حرب دامت أعواماً ستة، أما الهزيمة العربية فما احتاجت لتتجلى بكل عريها إلى أكثر من أيام ستة. واليابان لم تهزم إلا بضربة ذرية، أما الهزيمة العربية فكانت بـ«نقرة». وإذا شئنا أن نأخذ المثال الفيتنامي باعتباره مثالاً مزامناً للمواجهة العربية - الإسرائيلية، وجدنا أن الأمة الفيتنامية لم تنهزم رغم أنها «واجهت فيلاً، جبلاً»، بينما انهزمت الأمة العربية وهي «تواجه نملة، حصاة»<sup>(2)</sup>. إذن «كمشة من البشر تهزم بحراً من البشر»<sup>(3)</sup>: هذه هي المعادلة الكمية التي ما كان للوعي العربي أن يطبق الربط بين حديها؛ فما كان أمامه من سبيل، وقد عزّ عليه أن يعيها، غير أن ينقلب هو نفسه إلى لاوعي.

1. الحافظ، الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، ص 128.

2. المصدر نفسه، ص 313.

3. المصدر نفسه، ص 308.

ثالثاً، لأن الهزيمة اللامتوقعة واللامغطاة كانت هزيمة متجددة وغير قابلة للتصريف. فالليوم، وبعد اثنتي عشرة سنة من «حرب يونيو السوداء»، لا تزال الهزيمة الحزيرية خبرة يومية مستعصية على التآخر في شكل ذكرى. ولا يصعب على للمرء اليوم، بعد انقضاء عقدين ونصف على الهزيمة، أن يدرك أن شيئاً من «تصفية آثار العدوان»، وهو مطلب الحد الأدنى الواقعي الذي رفعه عبد الناصر، لم يتحقق، باستثناء جلاء إسرائيل عن شبه جزيرة سيناء لقاء انسحاب مصر من الصراع العربي-الإسرائيلي. ولعله لا يكفي أن نقول إن جرح حزيران 1967 يأبى أن يصير ندباً، بل ينبغي أن نضيف أيضاً أن هذا الجرح يُنكأ ويعاد نكوّه باستمرار. فإسرائيل، في مسعاها إلى تثبيت الهزيمة وتثميرها، ما زالت منذ عام 1967 وإلى اليوم تمارس سياسة ردع تفوق من شأنها أن تسد كل قناة ممكنة للتصريف. فمن ضرب المفاعل الذري العراقي، إلى معركة البقاع الجوية المذهلة، إلى اجتياح لبنان ومحاصرة بيروت وتدميرها وتشتيت المقاتلين الفلسطينيين إلى أنأى أطراف الوطن العربي، إلى قصف مقر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بتونس، إلى تطوير عمليات الاغتيال السياسي من قبل المخابرات الإسرائيلية إلى تقنية زهيدة الكلفة وعالية المردود وخاطفة للأبصار في آن معاً، إلى العردة اليومية للطيران الإسرائيلي في سماء لبنان - وغير لبنان - والمشاركة النشطة والمكشوفة في تسيير نفة الحرب الطائفية فيه، إلى الاستفراء بسكان الأراضي المحتلة والتفطن بقمع ثورة يأسهم على مسمع ومرأى ومثلة الملايين والملايين من باقي «الأشقاء» العرب، إلى الإعلان شبه الرسمي عن الانفراد بامتلاك القنبلة النووية وما تعنيه من قدرة - ولو نظرية - على الإقناء المادي للأمة العربية، من ذلك كله وإلى وقائع كثيرة لا يتسع المجال لسردها هنا وهزيمة 1967 لا تتي تحفر أخاديد أعمق فأعمق في الوجدان العربي وتمارس مفعولها من خلال المزيد من الاستبطان لها، مثلها مثل الماء الناضح الذي إذا سُنت عليه مسالك التصريف ارتد إلى مجراه يحفره ويعمقه.

وعلى هذا النحو، وباستفراء المسار الماضي والحالي والممكن توقعه لتطور الأحداث، يتأكد أكثر فأكثر أن الهزيمة التي مازال يتخبط فيها العرب



منذ عام 1967 هي هزيمة شاملة، معممة، مطردة ومتعمقة، هزيمة مصمتة بلا مصرف ولا مخرج. هزيمة لا يقتصر كل معناها، كما يفترض مؤلف «الخطاب العربي المعاصر»، على أن «العرب خسروا حرباً أخرى مع إسرائيل»، بل هزيمة يشير كل معناها على العكس إلى أن «العرب خسروا الحرب مع إسرائيل». والحال أن هذه الهزيمة، لا في الحرب، بل في الصراع في أساسه، لا أمام إسرائيل، بل أمام المشروع الصهيوني بالذات، هي بالضبط ما لا يمكن التسليم به من قبل الوعي العربي. فهي أضخم وأفجع وأذل من أن يتمثلها الأيض النفسي لأمة تتصور نفسها كبيرة وعريقة وتليدة للتراث مثل الأمة العربية. ولكن ما لا يحتمله الوعي وما لا يجد منفذاً له إلى الشعور لا يزداد، من جراء ذلك تحديداً، إلا ضغطاً وفاعلية وجارحية على مستوى اللاشعور. ومن هنا أيضاً كان مفعول الرضا لهزيمة 1967<sup>(1)</sup>.

[من الممكن هنا أن نفتح قوسين لنشير إلى أن حرب تشرين 1973 كان يمكن أن تشق قناة للتصريف. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن شق قناة للتصريف كان أصلاً أحد العوامل الدافعة إلى اتخاذ قرار حرب تشرين. ونقدم لنا كتابات أنور عبد الملك عن حرب تشرين - وهو من أبرز العاملين اليوم في الساحة الفكرية العربية من أجل تأسيس ما سنسميه بـ«الانثروبولوجيا الحضارية الباتولوجية» - نموذجاً عن المفعول التصريفي لتلك الحرب كما عندما يقول: «جاءت حرب أكتوبر لتكسر الانكسار وتهزم الهزيمة»<sup>(2)</sup>؛ أو: «كان مكتوباً علينا للضياح وما ضعننا. كان مكتوباً علينا للفشل وانتصرنا.

---

1. إن هذا المفعول الرضّي، والنكوصي بالتالي، للهزيمة للحزبانية هو ما غاب أيضاً عن نظر محلل آخر من محليها، وهو نديم البيطار الذي رفض في كتابه: من النكسة إلى الثورة، المصادر بعد الهزيمة مباشرة، أن يسمي الهزيمة هزيمة، وأصرّ على وصفها بأنها مجرد «نكسة»، ولم يتردد، «على الرغم من الألم العميق الذي أحدثته»، في أن يهمل لها مردداً للقول: «مرحى بالنكسة، ومرحى بتحدياتها للكبيرة»، اعتقاداً منه، انطلاقاً من نزعة سوسيولوجية وضعية، بأن «النكسة» لا بد أن تنمخض عن «ثورة» عملاً بقوانين «الفعالية الثورية في النكبة» - وهو بالأصل عنوان كتاب آخر له (انظر: نديم البيطار، من النكسة إلى الثورة (دار الطليعة، بيروت 1968)، ص 21.

2 عبد الملك، ربيع الشرق، ص 65.

كان مكتوباً علينا الموت في خجل وعار، وكانت عودة الروح في 6 أكتوبر سنة 1973... مننرة بالغد العظيم<sup>(1)</sup>، أو كذلك: «جاء تحرك 6 أكتوبر 1973 وكأنه مفتاح فتح فجأة مخزن الآمال ورفع فجأة كابوس الانحدار والعجز. وجاء فجأة مؤشراً ساطعاً بطاقات كامنة هائلة... وكان، فجأة، جاء اليوم الذي بدأ فيه الإنسان المصري - للعربي يستجيب لنداء الكرامة والنهضة. وكان المستقبل أصبح ممكناً. وكان الكابوس ليس أزلياً أبدياً. وكان الممكن ممكن<sup>(2)</sup>. بيد أن هذه الحاجة الملحة إلى التصريف وإلى لأم شفتي الجرح اللرجسي - ولو على قريح وصديد - هي التي عملقت أيضاً إنجازات حرب تشرين وأضفت عليها هالة من المجد مكافأة لوصمة عار هزيمة حزيران، وتجاوزت في تأويلها لبعدها العسكري إلى ما يسميه مؤلف «ريح الشرق» بـ«المغزى الحضاري»: «من هنا كانت نظرتنا إلى المغزى الحضاري لحرب أكتوبر أوسع أفقاً بكثير وأعمق مدى من مجرد النظرة الإستراتيجية، سياسية كانت أم عسكرية أم اقتصادية<sup>(3)</sup>. وعلى هذا النحو، فإن حرب تشرين ما جاءت لتفعل عار حرب حزيران فحسب، ولا لتقشع «وهم الجبروت اليهودي الصهيوني» فحسب، بل لتتهي أيضاً، بالنسبة إلى الشرق، أزمة حضارية، ولتتشن، بالنسبة إلى الغرب، أزمة حضارية. هكذا جاءت حرب تشرين لتقلب «النظام العالمي» ولتحدث تحولاً بزواية 180 درجة في «استقطاب الأزمة»، أي لتكون في آن معاً بشيراً بـ«نهضة للعالم العربي» و«نهضة شعوب الشرق في عصرنا» ونذيراً بـ«بداية مرحلة تآزم عصر الهيمنة الغربية»، بل ببداية «أزمة الحضارة الغربية كلها». وليس هذا فحسب، بل إن حرب تشرين، بما فرّجته من أزمة بالنسبة إلى الشرق وبما فُجّرته من أزمة بالنسبة إلى الغرب، قادت أيضاً «الرأي العام العالمي حتى عتبة التساؤلات الفلسفية الكبرى في عصرنا». إذ بات واضحاً، وقد بدلت حرب تشرين «في أيام قلائل ميزان القوى في العالم أجمع»، «أننا نعيش في عصر بدأ فيه الغرب يفقد مفاتيح المبادرة التاريخية التي كانت بين يديه منذ

1. المصدر نفسه، ص 64.

2. المصدر نفسه، ص 52.

3. المصدر نفسه، ص 68.

القرن الخامس عشر، وأن الشرق شعبياً ودولاً بدأ يمسك بمفاتيح تلك المبادرة التاريخية بين يديه<sup>(1)</sup>. وإذا كانت شدة السقوط تقاس بمدى التحليق، فلنا أن ندرك أن هذه المغالة المنفلتة كلياً من قيد الواقع في تقييم النتائج الأولى لحرب تشرين ستكون هي نفسها مصدراً للإحباط ولانقلاب الانتفاخ النرجسي إلى اتكماش ذليل طرداً مع تكشف المحدودية التكتيكية لحرب تشرين وانتهائها بعكس ما ابتدأت به من حيث الانجاز العسكري؛ ناهيك عن توظيفها السياسي اللاحق لا باتجاه التغيير للمستوى للنظام العالمي، بل على العكس باتجاه القبول الاستسلامي بواقع النظام الإقليمي والتصالح مع العدو الإسرائيلي والاعتراف به من حيث هو بالتحديد صانع هذا النظام الإقليمي وصاحب الكلمة العليا فيه<sup>(2)</sup>. والحقيقة أن حرب تشرين، بما رأت به من منافذ وبما شقته من قنوات ثبت لاحقاً أنها مسدودة من الأساس، قد لعبت دورها، من وجهة النظر التي تعيننا هنا، لا في اتجاه تصريف الرضفة الحزيرية، بل على العكس في اتجاه تثبيتها وتنشيط آلياتها وتجنير عواقبها.

رابعاً وأخيراً، لأن التأويل للاشعوري لهزيمة 1967 كان هو ذاته تأويلاً ذا مفعول رضي. وفي اعتقادنا أن الهزيمة الحزيرية قد حررت على صعيد

1. المصدر نفسه، ص 52 و 61 و 65 و 67.

2. تجب الإشارة هنا إلى أن النظام الإقليمي الذي تريد فرضه إسرائيل هو نظام ما بعد 1967، لا نظام ما قبل 1967. وعلى ضوء هذه الحقيقة، وعلى ضوء القبول العربي شبه الاجتماعي بالنظام الإقليمي لما قبل 1967 وما يعنيه هذا القبول من إقرار وتسلیم بالاندحار العربي أمام المشروع الصهيوني، فإن المبادرة الساداتية السيئة الصيت ينبغي أن تدان لا لما مثله من نقلة، أرادت نفسها «واقعية» و«عقلانية»، من واقع الهزيمة إلى التوقيع على صك الهزيمة مقابل استعادة شبه جزيرة سيناء، بل لكونها قطعت الطريق سلفاً على كل نقلة مماثلة لها في الواقعية والعقلانية لاحقاً بالنسبة إلى باقي أجزاء الأرض العربية التي احتلت عام 1967. فصحيح أن السادات عرض للسلام واسترد الأرض، ولكنه أخرج مصر، وهي للقطر الأكبر والأوزن، من حلبة الصراع. واليوم يعرض باقي العرب، بمن فيهم الفلسطينيون، للسلام ضمن روح المبادرة الساداتية لها، ولكن إسرائيل هي التي باتت لا تقبل مقايضة الأرض بالسلام. فاستقالة مصر من الصراع أحدثت خلا كبيراً في ميزان القوى باتت معه إسرائيل تعتقد أنه في وسعها أن تأخذ من باقي العرب أكثر مما كانت تطالبهم هي نفسها بإعطائه عادة هزيمتهم في حزيران 1967.

اللاشعور الجمعي كمية من الحصر النفسي لا تقل شأنًا عن تلك التي حررتها على الصعيد الشعوري. ولنبادر حالا إلى القول بأن هذا الجانب من تحليلنا قد يكون هو الأدعى إلى الاستغراب، ولكن قد يكون كذلك شأنه لأنه هو الجانب الذي يطرق الرضّة الحزيرانية من بابها الأفل طرّقاً. والواقع أن خبرة أو معاناة تاريخية كبرى كتلك التي عمّدها الوعي العربي باسم المأساة الفلسطينية أو نكبة 1948، والتي وجدت استمراريتها في نكسة 1967، ما كان لها أن تبقى عديمة المفعول على صعيد اللاشعور. وإذا كانت اللغة الأثيرة عند اللاشعور هي الرمزية الجنسية، كما دلت على ذلك كشوفات فرويد ويونغ ورنك، فإنه لا يعز علينا أن نتقرى آثاراً من الرمزية الجنسية في الصور المشاعة عن إسرائيل في الوجدان العربي. وحسبنا هنا الإشارة إلى أن المشروع الصهيوني كان ولا يزال يُقرأ من قبل الوعي الجمعي العربي على أنه نموذج ناجز لفعل الاغتصاب. ولا يكاد يأتي ذكر لإسرائيل في الخطاب العربي المعاصر إلا مقرونة باسم الفاعل: إسرائيل الغاصبة، مثمّا لا يكاد يأتي ذكر لفلسطين إلا مقرونة باسم المفعول: فلسطين المغتصبة. ولا ريب في أن كثيرين من العرب المعاصرين لم يطلعوا على كتاب الصحفي الهندي كارانجيا، ولكنه يكاد يكون من المستحيل أن يكون ثمة مثقف عربي لا يتخذ من عنوانه: خنجر إسرائيل وسيلة إدراكية لتعقل طبيعة المشروع الصهيوني بالذات. ومن الصور الأكثر تداولاً في المخيلة العربية عن إسرائيل صورتها كـ «إسفين» دق في جسد الأمة العربية<sup>(1)</sup>. ولكن الأمر الذي لا يخلو من مفارقة هو أن ذلك الفعل الاغتصابي الذكري وهذه الرموز الجنسية المذكورة إنما تنسب إلى كائن مؤنث لفظاً ومعنى: إسرائيل. وهنا أيضاً لا يغيب عنا أن نلاحظ أن الصورة الإدراكية الأكثر تداولاً عن إسرائيل في الوعي العربي هي

1. انظر مثلاً قول أنور الجندي - وهو من أكثر الكتاب المعاصرين استمالةً للتعبير الجاهزة والصور المقولبة -: «كان أخطر ما عد إليه الاستعمار» هو «غرس إسرائيل» لتكون «إسفينا خطيراً في قلب العالم الإسلامي»، مهمته أن «يمزق وحدة الأمة العربية»: أنور الجندي، العالم الإسلامي (دار الكتب اللبناني، بيروت 1979)، ص 404.

صورتها كـ«رَبِّية» للاستعمار<sup>(1)</sup>. وهكذا تبدو إسرائيل، بماهيتها المؤنثة وتعضيتها المذكورة، تجسيدا واقعا لتلك الصورة الاستيهامية الثاوية في قرارة اللاشعور الفردي والجمعي معاً عن المرأة الخصاء ذات القضيب. ومما يزيد من أنية هذا القضيب وسُميَّته كونه، في الحالة الإسرائيلية، مستعاراً من الغرب، أي من خصم تاريخي أثبت مقدرته، تجاه جميع الحضارات الأخرى، على ممارسة الخصاء الجماعي. وهذا القضيب المستعار هو، بطبيعة الحال، من طبيعة تكنولوجية: فوحدها التكنولوجيا، وهي أيضاً احتكار غربي، تتيح إمكانية لذرّاع الأعضاء وجعل الاصطناعي منها أشد فاعلية حتى من الطبيعي. وهذه الساحرة الشريرة، التي استبدلت عصا مكنتها بمستحدثات التكنولوجيا الأكثر تطوراً، استطاعت في حرب الأيام الستة<sup>(2)</sup> أن تهزم جيوش العرب وتتلّ رجولة رجالهم بالاستعانة بأكثر ما في الترسانة التكنولوجية اتصافاً بالصفة الفالوسية: سلاح الطيران.

---

1. انظر مثلاً تنديد منير شفيق بهـ«أولي الأمر» من العرب الذين «لم تنتفض فيهم بطولتهم ووطنيتهم» ليردوا، ولو بسلبية، على ما فعلته أميركا ورببيتها المنلّة إسرائيل بشعبي فلسطين ولبنان» (منير شفيق، الإسلام وتحديات الاحتطاط المعاصر) (دار طه للنشر، لندن 1982)، ص 17. بل انظر أيضاً قول محمد عابد الجابري، مع أنه من الكتاب العرب للقتال الذين يحاولون تحاشي العبارات الجاهزة والصور المقولبة: «نحن لا نقلل أبداً من دور الاستعمار والإمبريالية العالمية ورببيتها الصهيونية في عرقلة نهضة العرب». في: الخطاب العربي المعاصر، ص 23.

2. لعل هذه التسمية الإسرائيلية لحرب حزيران 1967 تستجيب، على نحو لاشعوري، للصورة المنطبعة في الذاكرة الجمعية لليهودية عن إله توراتي يخلق العالم في ستة أيام، وفي سابعا يستريح.



# الفصل الثاني

## من جرح الهزيمة إلى ضمادة التراث

إن الهزيمة الحزيرانية، قبل أن تكون هزيمة لجيوش العرب ورجالهم وأنظمتهم، كانت في المقام الأول هزيمة لعبد الناصر، ذلك الأب المعبود المومثل الذي أخذ على عاتقه - وقد فرش مظلة حمايته على أبنائه من المحيط إلى الخليج - أن يتحدى ويستقز تلك الجنية الشريرة التي كانت، على ما هي عليه من قزامة، ولكن بالاعتماد دوماً على المستعار من عدتها، مصدر إذلال تاريخي لهم منذ «نكبة» 1948.

وحتى ندرك مدى وقع هزيمة هذا الأب على شعور أبنائه ولاشعورهم معاً، لا بد أن نشير إلى أن العلاقة الأبوية التي كانت تجمع بينه وبينهم كانت من نمط خاص للغاية. وبمعنى ما، كانت علاقةً مجنسة. ولكن، كما في الميتولوجيات الكبرى، كانت علاقة «حيل بلا دنس»، وفي الحالة التي نحن بصدها كانت علاقة صوت بأذن. ولا ريب أن صوت عبد الناصر كان يحد ذاته معبراً ساحراً عن المشاعر الجماعية وترجماناً لأعمق صبوات الأمة. وبكلمة واحدة، كان صوت شعب بلا صوت<sup>(1)</sup>. ولكن صوت عبد الناصر لم يكن هذا فصص. ففي كل مهرجان خطابي - وكان كل

---

1. أنظر الفقرة البديعة التي كتبها جورج فرم عن صوت عبد الناصر بعنوان «البحث عن صوت مفقود» في كتابه: انفجار المشرق العربي (دار الطليعة، بيروت 1987)، ص 17.

مهرجان خطابي بمثابة عرس جماهيري - كان ألوف الألوف من المسحورين بذلك الصوت، سواء في الساحات العامة أو من خلف المذياع، يتجربون من فردياتهم وينسلخون من جلودهم لينصهروا في كتلة لادائنية واحدة تتشكل وتتموج في شبه مطاوعة أنثوية لنبرات ذلك الصوت ولإيقاع طلعائه ونزلاته. والحال أن هذا الصوت هو الذي تهدج وانكسر غداة الهزيمة. ومن ليل يأسها خرجت الجماهير في مساء التاسع من حزيران إلى شوارع القاهرة كما إلى شوارع غيرها من المدن العربية، وهي «في حالة يتم مفاجئة»<sup>(1)</sup>، لتعلن رفضها للانكسار والاستقالة ولتطالب عبد الناصر بالبقاء والصمود. ولمسوف تخرج الجماهير مرة ثانية إلى الشوارع، ودوماً في عمق الليل واليأس، لتبكي، في حالة يتم حقيقي هذه المرة، ذلك الأب المعبود الذي أتاه نعيه ليلة 28 أيلول 1970<sup>(2)</sup>.

هكذا لا تكون إسرائيل قد خصت الأب فحسب، بل قتلته أيضاً، أو لم تترك له خياراً آخر سوى أن يموت قهراً. وأن تكون إسرائيل قد اقتدرت على الأب، وهو بمثل قامة عبد الناصر، فإنه لا يبقى أمام الأبناء، في مواجهة عضوها التكنولوجي المزدرع والكلي السمية، سوى أن يلوذوا بحمي أب أكثر تجزراً في الاستمرارية التاريخية وأكثر ثباتاً في ليل العصور؛ وعلى هذا النحو أخذت بالاشتغال آلية النكوص إلى التراث بوصفه أباً رمزياً حامياً.

وكما في كل جريمة خضاء أو قتل ميتولوجية للأب، سواء بيد أجنبية من خارج العشيرة أو أهلية من داخلها، كان لا بد أن تأتي، تحت ضغط مشاعر للذنب المستبطنة أو طلباً للتحرر من دوام حالة الحداد الباهظة الكلفة نفسياً، لحظة ينقلب فيها الأبناء على الأب القاتل، ليعتبروا أن ما وقع له هو قصاص رباني عادل استحقه بملء يديه. وعلى هذا النحو بدأت، بعيد وفاة عبد الناصر، حملة التشهير به وشارك فيها بعض من أخلص الخلاء من «إخوانه» و«أبنائه»، وجرى على نحو لا يخلو من بشاعة أحياناً نبش

1. التعبير لياسين الحافظ في: الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، ص 43.

2. إن يقيم شعب القاهرة مقاماً مماثلاً لذلك الذي أقامه لعبد الناصر إلا لأم كلثوم التي كان بينه وبين صوتها أيضاً قصة عشق منقطعة النظير.



ذكره لتمثيل بها بديلاً عن جثته. وفي سياق هذه الردة، التي كانت تكمن وراءها بكل تأكيد عوامل سياسية مباشرة وأخرى تتعلق بالخلقة وبالصرع على السلطة، تمت تعرية عبد الناصر من صفته الأبوية المكتسبة، ليردّ إلى أصله باعتباره مجرد ابن متمرّد كسر السلسلة الأبوية الشرعية وأسس سلالة بنوية متمردة تبدأ منه بداية مطلقة باعتباره أباً نفسه. وبما أن «ثورة» عبد الناصر هي وريثة «النهضة» وصيغة مطورة منها، فقد ارتد طمي الردة على عصر النهضة بالذات، وجرى، باسم العودة إلى الأصالة، التشهير بأباء النهضة المؤسسين، ولا سيما الجزيريين منهم، باعتبارهم هم أيضاً أبناء متمردين خرجوا على الشرعية التراثية وسعوا إلى تهجين سلالة الأجداد والآباء بما زرقوها به من سموم الحداثة التي رضعوها من ثدي أم دخيلة، هي الحضارة الغربية.

إن هذه الازدواجية للوجدانية إزاء ذلك «القائد العملاق»<sup>(1)</sup> الذي كانه عبد الناصر لا يمكن أن تجد تفسيراً لها ما لم نأخذ في اعتبارنا أن ثمة مستويين إدراكيين إثنين جرى ويجري من خلالهما تمثل هزيمة 1967: مستوى شعوري وآخر لاشعوري. فعلى المستوى الشعوري ما كان للوعي العربي أن يطبق، كما ذكرنا من قبل، تمثل هزيمة بمثل ذلك العربي والإذلال. ومن هنا ذلك الميل الكاسح في الخطاب العربي التالي للهزيمة – التي قلنا إنها بالماهية غير قابلة للتغطية – إلى اصطناع عوامل خارجية تتمثل في تواطؤ «الرّببية للمدّلة» مع «حاضنتها الإمبريالية العالمية»، وبخاصة الأميركية. وعلى هذا النحو بات لا يأتي ذكر للعدو الصهيوني في أدبيات ما بعد الهزيمة إلا مقروناً بالإشارة إلى «عالميته»، أي إلى «من يقف وراءه من أعداء إمبرياليين» و«ما يلقاه من دعم من الدول الإمبريالية، وخصوصاً الإمبريالية الأميركية»<sup>(2)</sup>. بل إن جملة الحقبة الزمنية التالية

1. التعبير لسعد الدين إبراهيم في مقاله الذي يحمل بالتحديد عنوان: «لماذا كان عبد الناصر زعيماً عملاقاً؟». أنظر: سعد الدين إبراهيم، مصر تراجع نفسها (دار المستقبل، القاهرة 1983)، ص 271.

2. الشواهد التي نسوقها هنا هي على سبيل العينة التمثيلية. أنظر: منير شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ط 2 (دار الكلمة للنشر، بيروت 1983)، ص 151 و 154.

للهزيمة عُمِدَت بصورة شبه إجماعية باسم «الزمن الإسرائيلي-الأميركي»<sup>(1)</sup>. وفقدت الصهيونية في الوعي العربي كل قوامية ذاتية، فأضحت لا تعرف إلا بصورة حصرية باعتبارها مجرد مخفر أمامي لتلك الإمبريالية. وهكذا يقال لنا بتكرار شبه عصابي: «إن الصهيونية ليست إلا عميلة وطلعية للاستعمار الأمريكي»<sup>(2)</sup>. وهذا التجريد من القوامية الذاتية يُرَقَّع من مستوى التعبير المقولب والمتداول بصورة شبه لاواعية إلى مستوى الحقيقة النظرية المفكر بها: «إن الواقع والتاريخ يؤكدان... أن الصهيونية ليست إلا آخر وأخطر حلقة في سلسلة متصلة، مستمرة، من العدوان الغربي ضد الشرق العربي. إن محاولة فهم الصهيونية على أنها ظاهرة عنصرية استعمارية منفردة يؤدي بالفكر السياسي العربي إلى اللهوان. فالصهيونية ليست إلا الوجه المعاصر، الأكثر عنصرية والأكثر عدوانية، للاستعمار الغربي ضد العرب عبر التاريخ»<sup>(3)</sup>.

ولكن اللاشعور، سيد مملكة النفس التحتية، لا يساير الشعور في لعبته ولا يندفع بخداعه لذاته. فإن كان الشعور يطيب له، لاعتبارات تتعلق بالانجرارية النرجسية، أن يعطي لمعادلة عوامل الهزيمة صيغة برّانية، فإن اللاشعور، الذي لا يقيم وزناً كبيراً للعالم الخارجي، يصر على العكس على تأويل الهزيمة وفق صيغة جولانية. فحتى الصنفة ليست من العوامل التي

1. المصدر نفسه، ص 109.

2. عبد الملك ربح الشرق، ص 80. وينسى صاحب هذه العينة التمثيلية، وهو يستخدم هذا التعريف الحصري، أنه كان أكد قبل صفحة واحدة (المصدر نفسه، ص 79) أن الدولة الصهيونية ما أنشئت إلا لتكون مقلة للاستعمار ورسولا للغرب، وليس لأميركا والإمبريالية الأميركية حصراً.

3. عبد الملك، ربح الشرق، ص 80. قارن بالمقابل مع ما يقوله مؤلف: الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، والذي هو على حد علمنا الكاتب العربي الوحيد الذي تجرأ على التوكيد لا على إسرائيلية إسرائيل فحسب، بل كذلك على إسرائيلية الجزمة التي لا تزال تخطط بها «على جباهنا» منذ هزيمة 1967، وبالتالي على إعادة التفكير بمعادلة العامل الخارجي: «بغية تمويه أسباب الهزيمة قالوا: الإمبريالية هي التي هزمتنا. الواقع أن إسرائيل، ذات الثلاثة ملايين، هي التي هزمتنا. بل أكثر من ذلك وأبعد: العامل الدولي هو الذي لعب دور لجم، في حدود واسعة، للتوسعية الإسرائيلية» (انظر: الحافظ، الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، ص 176).

يعتد بها بالنسبة إلى اللاشعور. ومن منظوره ليس ثمة من ظرف تخفيقي يسوغ الإغفاء من المسؤولية. والحق أن لسان هذا القاضي الداخلي أقرب إلى أن ينطق بما جاء به القرآن: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم»<sup>(1)</sup>. وبعبارة أخرى، إن اللاشعور خزان هائل للتأثيم ولتوليد الشعور بالذنب. ومشاعر الإثم وتكيت الضمير التي فجرتها - ولا تزال - هزيمة حزيران 1967 يمكن أن ترصد بسهولة عبر الصحافة العربية اليومية ابتداءً بالقولة التي باتت مشهورة: «إن العرب كان لا بد أن يخسروا حرب 1967 لأن السلاح الذي حاربوا به كان سلاحاً كافراً»<sup>(2)</sup>، وانتهاءً بتصريح وزير الأوقاف المصري السابق الشيخ محمد متولي الشعراوي أنه حين وقعت الهزيمة سجد لله «ركعتي شكر لأن مصر لم تنتصراً»<sup>(3)</sup>. وإذا تجاوزنا الصحافة اليومية أو الأسبوعية وجدنا منظراً إسلامياً مثل منير شفيق لا يتردد في تأسيس لاهوت تأثيمي للهزيمة باعتبارها «عقوبة حتمية» كان لا بد أن «تدفعها الأمة» كمحصلة طبيعية لمحاربة الإسلام والسير في طريق التغريب»<sup>(4)</sup>.

ولكن لو صرفنا النظر عن الطابع للصاخب، وذي المنزع الإسلامي، لأشبه هذه التصريحات لوجدنا أن آلية الاستبطان التأثمي لهزيمة حزيران 1967 قد اشتغلت على مستوى أعمق بكثير وأخفى بكثير على نحو لا يلاحظ عادة إلا في سيرورات النكوص النفسي. فهزيمة حزيران لم تصدّع فقط عمارة المجتمع العربي الحديث، ولم تحدث فقط شرخاً في واجهة وعيه، بل طال مفعولها التاخر الأسس الإيديولوجية والتاريخية التي قامت عليها هذه العمارة، أي عصر النهضة بالذات وفلسفة عصر النهضة. فقد نشطت بعد الهزيمة، على نحو ملفت للنظر، المحاولات للقفز فوق عصر النهضة ولترقيين قيده من سجل التاريخ العربي والوعي العربي. ولم تقف هذه

1. الشورى: 30.

2. كان صادق جلال العظم أول من رصد أشباه هذه الأقوال في كتابه: نقد الفكر الديني (دار الطليعة، بيروت 1969).

3. أورده مصطفى بهجت بدوي، في رده على الشيخ الشعراوي، في: الأهرام، 1989/1/23.

4. شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط للمعاصر، ص 108-109.

المحاولات عند حدود السعي إلى إعادة الاعتبار إلى الدولة العثمانية وإعادة تقييم دورها التاريخي<sup>(1)</sup>، بل تعتتها في بعض الحالات إلى التشكيك في شرعية عصر النهضة وإلى الطعن في مبدئه الفلسفي بالذات وصولاً إلى حد الدفاع عما اصطلح النezuويون على تسميته بعصر الانحطاط. وهكذا أمكن أن نقراً، حتى على صفحات مجلة تنتظم في خط تجديد النهضة، أن «عصور الانحطاط لم تدريس جيداً وأننا لا ندري هل هي انحطاط مئة في المئة، بينما نحن نعلم يقيناً أن النهضة هي زمن الاستعمار والتشويه الذاتي والغزو الثقافي»<sup>(2)</sup>. وليس من الصعب أن ندرك أن عصر النهضة المطعون به على هذا النحو يجد تأويله في اللاشعور على أنه عصر تطاول وتعد على الأب من قبل ذلك الابن الهجين الذي هو العربي المصاب بجرثومة التغريب، أي، على حد تعبير صاحب الشاهد الأخير، العربي الذي «أمه أوروبا». وهنا تتضامن اللغة الطقسية مع التضمين القرآني والنقطيع الشكلائي لتخلع على المضمون التأثمي طابعاً من الاحتفائية الدينية التي هي - على ما يبدو - رقيقة لازمة لكل عملية استبطان للخطيئة:

«إنك أيها العربي لما شعرت - أو لما أشعرك غيرك - أنك متخلف، ثرت على أبيك فقتلته. قتلته في الحقيقة وفي المجاز، إذ طعنت جنوده وإذ طعنت تاريخه.

قتلته ولا تدري من هو.

فوجدك الغرب يتيماً فما أوى.

ووجدك ضالاً فما هدى.

سنقول: من أي؟

أبوك الذي حمى أمك من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين.

1. تحضرنا هنا بوجه خاص محاولات وجيه كوثراني لإعادة كتابة تاريخ الدولة العثمانية وبلاد الشام من منظور معاد للنهضة.

2 عامر غديرة، «هل نحن في دار هجرة؟»، في مجلة: الوحدة، السنة الرابعة، العدد 40، ص150.

وإذا الدولة العثمانية سنلت

بأي خنجر قُتلت<sup>(1)</sup>.

هكذا تحل كل الحقبة التاريخية المعقدة باسم النهضة والممتدة عملياً أكثر من قرن من الزمن مكانها تحت عنوان عريض واحد، موصول وصلاً مباشراً بمكبونات اللاشعور الجمعي، هو جريمة قتل الأب. وهذا الاستحضار لأقدم جريمة في تاريخ السلالة البشرية، تبعاً للميتولوجيا الفرويدية، يزيده فاعلية وإثارة وجدانية توافقه مع اشتداد الحاجة للاشعورية إلى أب حام في المنطقة العربية التي بانّت بحكم المستباحة منذ خروج عبد الناصر من مسرح الفعل التاريخي في حالة شبه خصاء وثبوت عجزه عن مواجهة تلك الربيبة الصغرى، المزدرعة كياناً وأعضاء، للأُم الدخيلة الكبرى: أوروبا. ولا شك أن الحنين إلى أب حام لعب دوره في ما شهدته الساحة الفكرية العربية من محاولات ناشطة غداة الهزيمة «السوداء» لإعادة تقييم نور الدولة العثمانية باعتبارها في المقام الأول دولة حامية، وللدفاع «عن صورة تركيا الإسلامية التي طالما شوهاها الغرب فجعلها مرادفة للتعصب والجهل والخرافة<sup>١٨٧٤</sup> والجنس<sup>١٨٧٤</sup> والحریم والدسائس والمؤامرات والقسوة<sup>(2)</sup>». فالدولة العثمانية المسكينة التي ألقيت كل أسباب الانحطاط وأسباب التراجع عليها، إنما كانت تمثل في الواقع «الإسلام المقاوم» وإطاراً للانتماء «ضد السيطرة الغربية وضد شتى أشكال التبعية والقهر والنهب»<sup>(3)</sup>. ولا ينكر مؤلف «الإسلام في معركة الحضارة» أن الدولة العثمانية كانت «متخلفة» و«كان على رأسها ملاطين مستبدون»، ولكنه يشيد أول ما يشيد،

١. المصدر نفسه، ص ١٤٨، ولنلاحظ بالممناسبة أن الدولة العثمانية، خلافاً لما يوحي به النص، لم تقتل بخنجر للثورة العربية لعام ١٩١٦ - وإن تكن قد جرحت به - وإنما بخنجر عثماني صرف هو خنجر كمال أتاتورك. ولكن عملية التثمين لا تؤتي أكلها إلا إذا كانت كلية. ومن هنا تجريم ثورة ١٩١٦ بأكثر مما يمكن أن تجرّم به من وجهة نظر الحقيقة التاريخية.

٢. حسن حنفي، «المسلمون في آسيا في مطلع القرن الخامس عشر الهجري»، في: الوصل الإسلامي (القاهرة)، العدد الأول (كتون الثاني-يناير ١٩٨١)، ص ٢١٠-٢١١.

٣. انظر مداخلات وجيه كوثرافي في: «ندوة ناصر الفكرية الرابعة». نصوص المداخلات منشورة في: العربية والإسلام علاقة جدلية (د. ن، دت.)، ص ٧٩، ٨٠.

في الفصل الذي يعقده تحت عنوان «في بعض أسس تقويم الدولة العثمانية»، بـ«كون الدولة العثمانية وقفت سوراً منيعاً في وجه أطماع الغرب في السيطرة على العالم طوال أربعة قرون»<sup>(1)</sup>. وبدوره يشدد ممثل السلفية المنتورة على أنه «لعدة قرون كانت دولة العثمانيين الجدار الذي أحرّ اجتياح الغرب الاستعماري للطامع للوطن العربي»<sup>(2)</sup>. أما ممثل السلفية اليسارية فينعي من المنظور نفسه، أي منظور التّيتيم من الأب الحامي، «فجيرة المسلمين» بقضاء كمال أتاتورك على الخلافة العثمانية، ويشيد بـ«حفاظ السلطان عبد الحميد على وحدة الأمة»، ويشيد أكثر بـ«بطولات الجيش التركي» وفتوحاته في أوروبا والبلقان «لنشر الحرية والعدالة والمساواة» و«للدفاع عن العالم الإسلامي ضد الأطماع الغربية» و«للقوف أمام مؤامرات الغرب لتفتيت عرى الوحدة» و«الحفاظ على التراث الإسلامي»<sup>(3)</sup>.

إن هذا الحنين إلى «الأب» الذي يقال لنا إنه «حمى الأمة منذ القرن السادس عشر إلى القرن العشرين» قد يتبدى من الناحية المنطقية وكأنه

1. شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص 135.

2. محمد عمارة، «الجامعة العربية والجامعة الإسلامية»، في: القومية العربية والإسلام: بحوث ومنقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت 1981)، ص 146. ولنذكر مع ذلك لممثل السلفية المنتورة اعترافه بأن «الجدار» الذي مثله العثمانيون «أمام أطماع الغرب» كان «مليئاً بالثغرات». فمن «ثغرات هذا الجدار» تسلت «الامتيازات الأجنبية التي منحها السلاطين العثمانيون للبرجوازية الأوروبية ودولها»، ومن ثغرات هذا الجدار «تطور التمسك وتزايد النفوذ الاستعماري حتى أجبرت الدول الاستعمارية الدولة العثمانية على التنازل عن العديد من ولاياتها، بعد أن تحول النفوذ الاستعماري فيها إلى احتلال مسافر وغاشم. ففي فترة لم تتجاوز الأربعين عاماً، ومنذ اعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطنة في سنة 1876 وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى 1914، أجبرت الدولة العثمانية على أن تتنازل، رسمياً أو واقعياً، لروسيا للقصرية عن عدد من المقاطعات الغنية في آسيا الصغرى، ولبريطانيا عن قبرص ومصر. ومن قبل ذلك عن عدن. ولفرنسا عن تونس والمغرب. ومن قبل ذلك الجزائر. ولإيطاليا عن ليبيا، وللنمسا عن البوسنة والهرسك، وذلك بالإضافة إلى المقاطعات البلقانية التي خلعت للنير العثماني في خضم المد الاستعماري الزاحف على دولة الرجل المريض» (المصدر نفسه، ص 146-147).

3. حسن حنفي، «المسلمون في آسيا»، في: اليسار الإسلامي، ص 159 و 209.

ضرب من العبث اللامعقول على ضوء الانتحاط الذي آلت إليه الأمة في عهدة ذلك الأب تحديداً. ناهيك عن أن الوجود التاريخي لهذا الأب - وليس حمايته فحسب - لم يعد ذا موضوع منذ صدور قرار الابن المتمرّد كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة العثمانية. ولكنه يكتسب بالمقابل قدراً من المعقولة من الناحية الميكولوجية على ضوء وظيفة الأب التي لم يستطع عبد الناصر القيام بعبئها، أو التي حيل بالأحرى بينه وبين القيام بعبئها حتى النهاية. فعلى الرغم من الطابع الأبوي لنظام عبد الناصر، فإن صغر سن البكباشي الذي كانه لم يسمح له في بادئ الأمر، ورغم إنجازاته للباهرة، أن يكون أكثر من أخ كبير. وحتى بعد أن اكتسب عبد الناصر، بعد تأميم القناة وتصفيته السياسية الناجحة لأثار العدوان الثلاثي، شرعية المؤسس لسلالة جديدة، فإنه لم يترق إلى أعلى من مقام «أخي الأب». وإنه لأمر له دلالاته من وجهة النظر هذه أن يكون أول كتاب أصدره عنه أقرب خالصاته إليه - قبل أن ينكره يوم سيخلفه - قد حمل هذا العنوان: «هذا عمك جمال يا ولدي»<sup>(1)</sup>. ولقد ظل عبد الناصر حتى نهاية عهده يخاطب جماهير المستمعين إليه بـ «يا أيها الأخوة»<sup>(2)</sup>. وإنما يوم وفاته فحسب أحست الجماهير - وقد تبيّنت - بأنها فقدت أباً، وأباً كبيراً. ولكن هذه الأبوة المستعادة بعد فوات الأجل ما كان ممكناً أن يكتب لها التكريس النهائي والدائم. فهذا الأب، الذي استحق بعد طول تأخير لقبه، فارق أبنائه في شروط حزينّة كان عصياً عليهم أن ينجزوا فيها بنجاح عملية الحداد عليه. ونقصد بالحداد الناجح على الأب للمضي بعملية تماهي الأبناء معه إلى نهايتها. فالأب الذي يُحدّ عليه بنجاح هو ذلك الذي لا يزول من الوجود إلا ليستمر فيه من خلال أولئك المرشحين بدورهم للأبوة الذين هم أبنائه الوارثون. ولكن الأب الذي يموت في حالة شبه خصاء لا يترك للأبناء ما يرثونه أو ما يتماهون معه ليرقوا بدورهم إلى مصاف الآباء. والحال أن

1. الإشارة هنا إلى كتاب أنور السادات الذي كان من أولى المحاولات لتكريخ قصة الثورة في مصر من داخلها.

2. بالمقابل فإن السادات ما كان يطيب له منذ خلف عبد الناصر، ورغم مدّعه الديمقراطية، إلا أن يخاطب مواطنيه بـ «يا أولادي».

عبد الناصر مات مهزوماً. مات والراية لا تزال منكسة. ولئن زحف ملايين القاهريين وملايين العرب إلى شوارع عواصمهم ليلة نعيه في مشهد يندّ وصفه، فما ذلك حزناً عليه فحسب، بل كذلك احتجاجاً شبه غريزي على تركه إياهم في منتصف الطريق وعدم «مواصلة المشوار». وفي الواقع، إننا نستطيع أن نتحدث لا عن حالة حزن فحسب، بل عن حالة رعب أيضاً. فرحيل عبد الناصر المباغت والمبكر قبل تصفية آثار الهزيمة وقبل استعادة الكرامة المهينة ومعادلة الرمزي: الرجولة المبتورة، قد ترك جماهير الأمة، أي ملايين الأبناء الذين ثملوا في يوم من الأيام بنشوة التماهي مع الصوت الفالوسي الأبوي، لا في حالة يتم فحسب، بل كذلك في حالة إحباط وذعر وتجرد أثوي من السلاح في مواجهة تلك الأتني الشرسة، الذكرية في عدوانيتها، والذكرية في سلاحها، التي إسمها إسرائيل. وكما يقول جبرار مانديل فإنه «عندما يستحيل التماهي مع الأب، فإن الفالوس الأبوي يُحوّل، بدافع الكره، إلى موضوع سيء شديد السمية»<sup>(1)</sup>. والحال أن عبد الناصر، بموته المبكر وهو في وضع الهزيمة، قد قطع على ملايين الأبناء طريق الاستمرار في التماهي معه. فالراية المنكسة لا تورث. ومن هنا كانت تلك السرعة المذهلة التي تم بها الانقلاب على عبد الناصر وعلى تراثه. ومن هنا نستطيع أن نفهم أيضاً تلك الواقعة التي بدت محيرة للمراقبين السياسيين وللدارسين للسوسيولوجيين، وهي أن تكون الملايين التي خرجت لوداع عبد الناصر في حالة لا توصف من التجمع هي عينها التي خرجت في شبه عرس لاستقبال خليفته المنقلب عليه وعلى سياسته بعد أن لوح لها، وهو في طريق العودة من زيارة القدس المحتلة - حيث تمت عملية مقايضة مربية للغاية - بأمل أو بوهم استعادة الفالوس المغتصب، دونما مساءلة من جانبها عن الشروط التي تمت بها عملية المقايضة<sup>(2)</sup>.

1. جبرار مانديل، التمرد على الأب، العنوان بالفرنسية: *La révolte contre le père*، ط5

(مكتبة بلوى الصغرى، باريس 1968)، ص231.

2. مادنا أبحنا لأنفسنا إدخال الفالوسية في تأويل الأحداث السياسية، فلنقل إن هذه الرمزية، في كل ما يتصل بشخص السادات وعهده، تبدو موسومة بميمس الزيف: فمن الغليون إلى عصا الماريشالية إلى اللزي للتكري (الظهور تارة ببزة أميرال أو مشير وطورا بجلاية فلاح) إلى الكيفية المسرحية التي سوّرت بها حرب تشرين (والتي كانت تنقلب إلى مأساة



ولعلنا لن نستطيع أن نفهم من وجهة النظر النفسية الردة التي أعقبت العهد الناصري إلا بإجراء مقارنة تاريخية - ولو شديدة الاقتضاب - بين قائد الثورة المصرية وقائد الثورة التركية التي كانت قدمت من خلال الكمالية نموذجاً أولياً لما يمكن أن تكونه للناصرية. فبعد الناصر، الذي تلقى ضربة إسرائيلية قاصمة وما استطاع المضي إلى نهاية المطاف كابن متمرّد في تأسيس شرعية أبوية جديدة، ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه بعد وفاته السابقة لأوانها لتأثيم عهده باعتباره عهداً بنوياً مارقاً، ولاستيطان مشاعر الإثم والذنب التي تنفجر بالضرورة مع كل تجربة فشل - وكم بالأحرى إذا كانت في مستوى الهزيمة الحزيرية! - ولمحاولة تصريفها في طريق نكوصي يضرب صفحاً عن كل تقدم وعن كل نمو تاريخي ليحيي أسطورة أب عتيق حام أول. بالمقابل، فإن مصطفى كمال، الذي أحدث في السلطنة العثمانية تحولات أجراً وأكثر جذرية، من وجهة النظر الثقافية على الأقل، من تلك التي أحدثها عبد الناصر في المملكة المصرية، أنهى عهده بالترقي من مقام الابن المتمرّد إلى مقام الأب المؤسس الذي لا ردة عن شرعيته ولا نكوص عن ميراثه إلى ما قبله، وهو ما تجلّى بوضوح من خلال تلقّيه قبل أربع سنوات من وفاته باسم «أتاتورك»، أي «أبي الأتراك قاطبة». والفارق بين جمال عبد الناصر وكمال أتاتورك جلي: فالأول غادر مسرح الفعل التاريخي كليماً هزيمياً، فاستحال إنجاز عملية الحداد عليه بنجاح من خلال التماهي مع تراثه، فكان مصير التغيير الذي استحدثه الرفض والنقض؛ أما الثاني فقد حارب وانتصر ومات عن مجد موطن وعن أبوة مكرسة، فكتب للتغيير الذي استحدثه للبقاء من بعده، علماً بأن الكمالية بحكم جذريتها وتبكيها التاريخي وتحديها السافر للموروث كانت أولى بالرفض من الناصرية التي حصرت فاعليتها التغييرية بالمجالين السياسي

---

\* مع حصار الجيش الثاني) إلى المقلضة المربية التي تم على أساسها استرداد سيناء، يبدو كل شيء مصطنعاً، ويبدو الرمز الفالوسي الكامن وراء كل ذلك مزيفاً هو الآخر. ولعل الإحساس شبه الغريزي بهذا الزيف من جانب الملايين من أبناء الشعب المصري هو ما حال دون حدوث عمليات تماهٍ جماهيري واسعة النطاق في العهد الساداتي.

والاقتصادي وأثرت أن تبقى مهادنة على الصعيدين الاجتماعي والثقافي<sup>(1)</sup>.

إن هذا العجز من قبل عبد الناصر عن أن يكون فعلاً هو الألب المؤسس الذي كان مرشحاً لأن يكونه هو ما أوجد حاجة نفسية قهرية ليس فقط إلى إحياء ذكرى الألب التاريخي الحامي الذي كانه السلطان العثماني على امتداد قرون أربعة، بل كذلك إلى التثبيت بحبل أب رمزي أعرق تجزراً في التاريخ وأكثر قابلية للأمتة، نعني به التراث. فما حدث قط في تاريخ العرب أن طُلبت شفاعة التراث وحمايته وأن عزيت إليه كلية قدرة سحرية، ومن نمط فالوسي، كما حدث في ظل موجة الردة التي اجتاحت الساحة الفكرية العربية كعقبي للهزيمة الحزيرانية ولانقشاع الوهم الفالوسي الذي كان رآرأ به العهد الناصري ولانكشاف طبيعته المزورة في العهد الساداتي. وحسبنا أن نطالع أعمال أي ندوة من الندوات العديدة التي تواتر عقدها حول التراث في السبعينات أو الثمانينات... ولتكن على سبيل المثال ندوة «التراث وتحديات العصر» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في القاهرة في أيلول 1984 - لنقع على عدد لا حصر له من الشواهد التي يمكن تصنيفها كلها، على تعدد أصحابها، تحت عنوان واحد، هو التوظيف الفالوسي للتراث:

■ «في ظل التشتت وذبوع فكر الهزيمة... بعد التراث مرجعاً ومنهلاً وسلاحاً لا غنى عنه، لأن أمة بلا تراث هي أمة بلا هوية ومستقبلها مشكوك فيه»<sup>(2)</sup>.

■ «التراث علاقة متغيرة متجددة مع المحيط الذي انبعث فيه أو تجدد بالتعامل معه أو ساهم بصورة ما في تجديده. فالتراث لا شيء إن نحن أهملناه، وهو كل شيء إن نحن أخذناه مأخذ الجد والاهتمام»<sup>(3)</sup>.

1. نستطيع هنا أن نفتح هامشاً جديداً لنجد عزراً تخفيفياً للملهاة الساداتية التي أعقبت المأساة الناصرية: فبعد الناصر، الذي بنى زعامته، مثله مثل أتاتورك ومثل معظم القادة للكلزبيين، على الرأرة بوهم كلية للقدرة الفالوسية، ما أورث خلفه من كلية للقدرة هذه سوى سرليها. ومن هنا وجد هذا الأخير نفسه مجبراً إجباراً على أن يصطنع لنفسه، ويرسم زعامته الخاصة، فالوساً مزوراً.

2. غيف البوني، في: التراث وتحديات العصر في الوطن العربي، ص 195.

3. عبد الوهاب بوحدييه، في: المصدر نفسه، ص 204.

▪ «الإبداع لا يمكن أن ينطلق إلا من التراث... والتراث هو المصدر الوحيد للإبداع... التراث هو المنبع الوحيد الذي يمكن أن يمدنا ببدايات [الإبداع]»<sup>(1)</sup>.

▪ «الارتباط بالتراث... يعني أن ننشئ مدارسنا الجديدة وفق المعتقدات الأولية نفسها التي قيدت نظرة القماء... وحين نصل إلى ذلك... سيكون فكرنا المعاصر تصاعداً مبدعاً للفكر العربي الإسلامي المستند إلى أصول معتقدية واحدة، وسيكون فكرنا العربي المعاصر مواجهة مبدعة لمشاكل الحاضر والمستقبل... من هنا... ضرورة تقديس التراث طريقاً للنهضة»<sup>(2)</sup>.

▪ «إن الغرب هو التحدي... الغرب بالنسبة إليّ هو التحدي الأعظم... والتراث - في معركة للتحدي مع الغرب هذه - مخزون ثقافي وروحي عظيم الأهمية»<sup>(3)</sup>.

ومن وجهة نظر التوظيف الفالوسي للتراث فإنه ليس من قبيل المصادفة أن تكون الندوة المشار إليها قد عقدت تحت عنوان «التراث وتحديات العصر». فلفظة «تحد» هي من أكثر الألفاظ تردداً في الخطاب العربي المعاصر مثلما هي من أكثر المفاهيم تحديداً لبنيته السيكلوجية وكشفاً لها<sup>(4)</sup>. وسيكلوجية التحدي ورد التحدي - التي هي بامتياز سيكلوجية

---

1. جلال أحمد أمين، في: المصدر نفسه، ص 766 و 769.

2. عادل حسين، في: المصدر نفسه، ص 793 و 818.

3. عبد الله فهد النفيسي، في: المصدر نفسه، ص 820-821.

4. ربما كان مفهوم التحدي، بكل إسقاطاته النفسية، واحداً من القواميس المشتركة للقليلة التي تجمع بين الحداثيين والسلفيين من صانعي الخطاب العربي المعاصر. هكذا يكرر محمد عابد الجابري الكلام عن «التحدي الحضاري الغربي» (نحن والتراث، ص 17) وعن «تحدي الحضارة الغربية» (الخطاب العربي المعاصر، ص 18). ويدوره يتحدث حسن حنفي، عن «التحدي الغربي» و«تحدي الحضارة الغربية» (اليسار الإسلامي، ص 20). ويميل أنور عبد الملك أكثر إلى الكلام عن «التحديات لتاريخية والحضارية» (ريح الشرق، ص 121). بينما يميل ياسين الحافظ إلى التفريق بين «التحدي الاستعماري» و«التحدي الصهيوني» (الهزيمة والايديولوجيا المهزومة، ص 53). ويركز هشام جعيط اهتمامه على «التحدي الحضاري» (القومية العربية والإسلام، ص 123). بينما يؤثر سعد

طفلية أو صادرة عن عقدة طفلية - تُرَقَّع في الشاهد التالي إلى درجة المطلق: «إننا بدأنا على الصعيد النفسي الذاتي نتخلص من عقدة الشعور بالنقص، أي نقصنا، ومن عقدة الشعور بالتفوق، أي تفوق غيرنا، ولاسيما الغرب الإمبريالي، علينا. وبرغم كل الظواهر المعاكسة، يبدو أن كثيرين منا أصبحوا مثلاً مقتنعين، بعد تخلصهم من نينك العقدين، بأن من حقنا أن نتحدى تحديات العصر بدلاً من أن نتحدانا»<sup>(1)</sup>.

يقول مؤسس مدرسة التحليل النفسي الاجتماعي: «إن الطفل يميل ميلاً طبيعياً إلى أمثلة الراشد، إلى إعارته كلية قدرة سحرية»<sup>(2)</sup>. ونحن نستطيع أن نقلب المعادلة فنقول: «حيثما أعير الراشد كلية قدرة سحرية، أثبت من يعيره إياها أنه طفل». فعندما يقال لنا إن التراث «حركة دائمة تعطي الإنسان دوره وتحدد له موقفه من القيم والمثل والسلوك والحياة والموت والمصير»<sup>(3)</sup>؛ أو عندما يقال لنا إننا «نملك تراثاً حضارياً يمكننا من أن نبدأ بداية جديدة. نحن نشأنا نشأة مستقلة، ولنا نمط حضاري بريء من كثير من الأثام التي تعاني منها الحضارة الغربية. فلماذا لا نبدأ من هنا... بداية مختلفة؟»<sup>(4)</sup>؛ أو عندما يقال لنا أيضاً إن التراث «قوة كبرى تحمل فكراً حياً نابضاً يضع الحلول للآزمات وقضايا الإنسان في معركة التطور... وهو يعني جذور الحي وقلولم الواقع وقواعد المنارات السابقة، والتراث هو

---

« الدين إبراهيم أن يتكلم عن «التحدي الغربي» (مصر تراجع نفسها، ص272). ويستطيع برهان غليون للكلام عن شتى أنواع التحديات: من «التحدي الغربي» (الوعي الذاتي: منشورات عيون، الدار البيضاء 1987)، ص100، إلى «التحدي الحضاري» (مجتمع النخبة: معهد الإنماء العربي، بيروت 1986)، ص189، إلى «التحدي للتاريخي» (اغتيال العقل، ص176)، إلى «التحديات الإسرائيلية والحضارية» (الوعي الذاتي، ص100). ويتخذ محمد صمارة من «التحدي» بالمطلق عنواناً لكتابه «العرب والتحدي»، بينما يُختون منير شفيق كتابه كما رأينا بـ«الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر».

1. صبحي الصالح، في: التراث وتحديات العصر، ص815.

2. جيرار ماندل، التحليل النفسي الاجتماعي: Sociopsychanalyse (مكتبة بايو الصغرى، باريس 1972)، ج1، ص54.

3. نوري حمودي القيسي، في: التراث وتحديات العصر، ص221.

4. عادل حسين، في: العروبة والإسلام علاقة جلية، ص142.

الأساس الذي حمل المقومات الحية التي ما تزال تتفاعل في مجتمعنا وفكرنا ألوف السنين»<sup>(1)</sup>؛ أو عندما يقال لنا أيضاً وأيضاً إن «الشعوب التاريخية [تتمكن] مصادر قوتها الرئيسية في تراثها... الذي ما زالت تعيشه، وبمدها بتصوراتها للعالم، ويحدد قيمها، ويوجه سلوك أبنائها، وقادر على تحريك الجماهير وحشدها»<sup>(2)</sup>، وإنا «إذا أردنا أن نغير الأمة وأن نجد أدوات تساعدنا على النهضة والإصلاح، ففي التراث الإسلامي بكل علومه أدوات ووسائل تساعد على ذلك وتهيئ للدخول إلى ساحة تحديات العصر... بلا تطعيم خارجي مصطنع»<sup>(3)</sup>؛ أو عندما يقال لنا أخيراً إن «التراث هو الضمان الوحيد والأقوى... وإذا هُشمتنا هذا التراث العظيم، سعيًا إلى الحداثة، فإننا نكون كمن يستعد للمعركة الفاصلة بإلقاء سلاحه الأمضي»<sup>(4)</sup>؛ عندما يقال لنا كل هذا، وعندما يُجعل من التراث على هذا النحو هو فاعل الفعل التاريخي، فإننا نشعر بأن المثقف العربي يعزو إلى التراث بصفته أياً رمزياً غير مشخص كلية قدرة سحرية مطابقة لتلك التي يعزوها الطفل إلى الراشد، أي إلى الأب المشخص، سواء أكان واقعياً أم متخيلاً. وهنا أيضاً نرانا نعود إلى مؤسس مدرسة التحليل النفسي الاجتماعي لنطبق - مع التعديل الواجب - على الموضوع الذي نحن بصدد ما يقوله عن الكحول بصفته «حليب الراشد»: «فالكحول يحلّي الواقع الخارجي فيبدو لنا أقل غرابة، ويلغي الحدود بين الأنا والعالم الخارجي فيزيد من الشعور بالثقة بالذات»<sup>(5)</sup>. أفلا نستطيع أن نقول بدورنا، بدلالة عينة الشواهد التي سقناها، إن التراث هو كحول المثقف العربي، أو حليبه إذا شئنا استخدام تعبير أشفّ

1. أنور الجندى، الثقافة العربية، إسلامية أصولها وإتقانها (دار الكتاب اللبناني، بيروت 1928)، ص 373 و 403.
2. حسن حنفي، في اليسار الإسلامي، ص 32، 43.
3. حسن حنفي، في مجلة الوحدة، السنة الأولى، العدد 6 (آذار-مارس 1985)، ص 131. وهذا أن يمنع على كل حال كاتب هذه الكلمات من أن ينقلب، بفعل نمطي من أفعال الأزدواجية للوجدانية، على التراث ليعتبره عامل خصاء، لا عامل تحليق نرجسي من طراز فالوسي، كما سنرى لاحقاً.
4. فكتور صاحب، «الوحدة العربية وضرورة التراث»، في: شؤون عربية، العدد 15 (أيار-مايو 1983)، ص 71.
5. مائندل، التمرد على الأنثى، ص 209.

عن الطبيعة الطفلية لألية النكوص التي أسلم منتج الخطاب العربي المعاصر  
نفسه لها؟

# الفصل الثالث

## من التقدم إلى النكوص

إذا كان واضحاً على هذا النحو أن النكوص هو المفهوم المركزي الذي نتعلل على أساسه الردة التي شهدتها الساحة الفكرية العربية في السبعينات والثمانينات - والتي تشير كل الدلائل إلى أن موجتها ستظل منداحة في التسعينات - فقد آن لنا أن ننسأل: ما الأشكال النوعية التي تتظاهر بها سيرورة النكوص على صعيد الخطاب العربي للمعاصر حول التراث؟ وما الانعكاسات الخاصة على صعيد الإيديولوجيا التراثية لاشتغال هذه الآلية الفاعلة أساساً في الحياة النفسية؟

## النكوص كإضراب عن النمو

في الحياة الفكرية، كما في الحياة النفسية، يبدو أن النكوص يأخذ شكل مقاطعة للنضج وإضراب عن النمو وانسحاب من سيرورة التطور والتقدم. ولكن ما يتم على صعيد الحياة النفسية على نحو صامت بحيث لا يمكن تقري الظاهرة إلا من أعراضها، يأخذ على صعيد الحياة الفكرية، بحكم الطبيعة الظهورية للفكر، شكل إعلان صاخب أو مجهور به في أنى الأحوال. وعلى هذا النحو، وبالتضاد مع كل البيانات والتصريحات المعبرة عن الرغبة في التطور والتقدم، سواء بطريق الإصلاح أو بطريق الثورة،

والتي يحفل بها تاريخ الفكر العربي منذ أن نبهته مدافع نابليون بعنف صادم إلى ضرورة التغيير، تطالعنا في عهد الردة الإيديولوجية تصريحات ينذر العنور على مثيلها في تاريخ الحياة الفكرية، ويمكن تلخيص فحواها بالقول بأنها تضع نفسها وضعاً مباشراً على طرفي نقيض من قولة الشاعر العربي:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد      لنفسي حياة مثل أن أتقدما

هكذا وقف طارق للبشري في ندوة «القومية العربية والإسلام»، التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت في كانون الأول 1980 ليعلن بالحرف الواحد: «إذا كان التطور يرفضني كجماعة فلمست من أنصار التطور، وإذا كان للتقدم ينفيني ويسحقني كجماعة فأني إذاً لمن الراجعين»<sup>(1)</sup>.

وفي ندوة «التراث وتحديات العصر»، التي نظمها المركز نفسه، وقف محمد عزيز الحبابي - وهو من يعد نفسه مع ذلك مؤسس فلسفة «الغنية» - لينقد خطاب التقدم إلى الأمام الذي قامت عليه إيديولوجيا النهضة العربية، وليقترح، ياساً من التقدم، القطيعة مع حضارة العصر والانكفاء نحو الماضي بحجة الاستعداد للوثوب نحو المستقبل تماماً كما يفعل البطل الرياضي عندما يتراجع القهقري ليففز: «الخطاب العربي اليوم من نوع فاته الركب... إنه خطاب كان ضرورياً عند الاحتكاكات الأولى بالغرب... واليوم، وقد وعينا عمق التخلف، ومقدار سيطرة الغرب، وشمولية الاستلاب الذي نعانیه في كل الميادين، أما أن لنا أن نغير الخطاب؟... التفاوت كان يعد بعشرات السنوات، وبين الحربين أصبح يقاس بقرون، واليوم بدأ يدخل الغرب حضارة جديدة، حضارة ما بعد التصنيع. أما نحن، فنحاول عبثاً أن نلج عصر التصنيع، فإذا بكل المحاولات تخفق... هل تحرر أي بلد ثالثي من قبضة التخلف»<sup>(2)</sup>؟ إن الغربيين يسموننا بـ«الشعوب التي في طريق النمو»

1- في القومية العربية والإسلام، ص 393.

2- بلى، ليس للتخلف قدراً يونانياً، وثمة بلدان في طريقها إلى التحرر من قبضة التخلف، ومنها بوجه خاص بعض دول جنوب شرقي آسيا وكوريا الجنوبية التي تنهياً على ما يبدو لتكرار «المعجزة اليابانية»، والصين المرشحة لأن تكون «علاق الغد».



في حين أننا، موضوعياً، في طريق نمو للتخلف! فإلى متى سنبقى نتخبط من تخلف إلى تخلف؟ طبقاً للخطط نفسها وبالأسباب نفسها؟ فالإشكالية هي: كيف تكون وثبتنا؟ ونحو أي مكان؟... ماذا يمكن أن نقترح؟ نقترح القطيعة مع قيم حضارة التصنيع ونماذجها، علنا نستعد لناخذ قطار حضارة الغد وهو يسير»<sup>(1)</sup>.

وفي الندوة إياها وقف عبد الله فهد النفيسي ليعلم ضرورة الانسحاب من السباق الحضاري، والامتناع أصلاً عن الجري تحاشياً «للصدمة الحضارية» ولللهات حتى الموت: «إن الغرب يريد أن يجعلني دائماً متعلماً لديه، وأن يوهمني أنني مهما حاولت اللحاق به، فمعدل إنتاجه أسرع بكثير من معدل لحاقي به، وبالتالي تتسع الفجوة بيني وبين الغرب، فأصاب بالصدمة الحضارية وأجري يائساً وراءه، حتى أموت»<sup>(2)</sup>.

والعجيب أن هذه الكلمات، المتفجرة باليأس الحضاري، تكرر بصورة شبه حرفية ما كان كتبه ممثل السلفية الليبرالية حسن حنفي قبل أربع سنوات في معرض تنديده بحركة الترجمة «الذيلية» التي دشنها عصر النهضة: «نحن مازلنا نترجم... مازلنا نستوعب ونتعلم ونتتلمذ. ولما أصبح معدل الإنتاج الغربي أسرع بكثير من معدل الاستيعاب فنسطل دائماً لاهتين وراء الغرب، محاولين اللحاق به حتى نصاب بالصدمة الحضارية، فنتعب ونياس ونموت»<sup>(3)</sup>.

وضمن هذا السياق نجد مؤلفاً مثل برهان غليون لا ينتظم أصلاً في سلك دعاة الإضراب الحضاري - بل يجعل على العكس مما يسميه بالإبداع الحضاري قانون إيمان له - يسوق الماء مع ذلك إلى طاحونهم ويمدهم بحجج إضافية عندما يمارس بدوره الخطاب التراثي ويتغنى بالتراث، ليس حتى بوصفه عامل مقولمة ثقافية، بل باعتباره قوة عطالة ثقافية، وذلك من

1. محمد عزيز الحبابي، في: التراث وتحديات العصر، ص 827-828.

2. عبد الله فهد النفيسي، في: المصدر نفسه، ص 820.

3. حسن حنفي، «تراثنا الفلسفي»، في: مجلة فصول (القاهرة)، العدد الأول (1980)، (معاد

نشره في: دراسات فلسفية، بيروت، دار التنوير 1982، ص 91).

حيث أن التراث «يشكل نقلاً نوعياً يمنع الجماعة من التحول إلى ورقة في مهب الريح والجريان وراء كل بدعة وصرعة... ويسلحها بقوة عطالة ضرورية... ويشكل بالضرورة قيلاً على النخبة العليا التي يمكن أن تنجح مع غياب أي مقاومة ثقافية محلية إلى الانتماج في الحضارة الصاعدة واستخدام آلياتها وأدواتها لتقوية سلطتها... وتزداد أهمية التراث للوجود العربي، كلما تعرض البنيان السياسي والاقتصادي إلى الهزات والانقلابات العنيفة، فيلعب فيه دور للمرساة»<sup>(1)</sup>.

## النكوص كإلغاء للذاتية واستقالة من الفعل التاريخي

إذا كان الطفل يميل ميلاً طبيعياً كما رأينا إلى أن يخلع على الراشد كلية قدرة محرية، فما ذلك إلا لأن العلاقة التي يقيمها الطفل مع الراشد هي بالضرورة من طبيعة وكَلِيَّة ANACLITIQUE، بحكم العجز الجوهري الذي جُبِلَ عليه الكائن البشري الصغير وطول المدة الزمنية التي يستغرقها تربيته على الاستقلال الذاتي وانفكاكه من قيد التبعية لوالديه، أو لمن يقوم مقامهما، بخلاف ما هو عليه واقع الحال في العالم الحيواني مثلاً. فكلية القدرة التي يعزوها الطفل إلى الراشد تكون له - أي للطفل - مصدر طمأنينة وراحة وتعفيه من مواجهة سابقة لأوانها للواقع بحكم عدم نضج وسائله العضلية والإدراكية، وتترك للراشد أمر التكفل بحاجاته وتوفير الحماية والرعاية له وتخلي عن غرابية العالم الخارجي وعدائيته. ولكن ما هو طبيعي لا يعود كذلك إذا ما صدر عن الراشد نفسه. فالراشد الذي يملك سلوكاً وكَلِيَّةً في الحياة يكون لسان حاله كمن يقول: إني مازلت طفلاً. ولو طبقنا هذا القول على فلسفة التاريخ، لكانت ترجمته: لست أنا، أو ليس الإنسان عموماً، هو فاعل

1. برهان غليون، اغتيال العقل، مجلة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية (دار التنوير، بيروت 1985)، ص 298 و303. والواقع أن التشبيه الأخير هذا كان يمكن أن يكون سيدياً فيما لو أن سفينة المجتمع العربي كانت منفعة في خضم «الحضارة الصاعدة»، أي الحديثة، اندفاعاً منفعتها من كل عقاب. أما وأن سفينة المجتمع العربي تعاني، أكثر ما تعاني، من صعوبة الإقلاع أصلاً، فإن «المرساة» تبدو وكأنها تشكل هي نفسها عاملاً أساسياً في تلك الصعوبة. وهذه نقطة لنا إليها عودة.

الفعل. والحال أن فلسفة التاريخ التي يمارسها المتكف العربي المنخرط في سيرورة نكوص عميقة تقبل تماماً التوصيف بأنها من نمط وكلي. فليس صانع هذا التاريخ هو الإنسان، بل هو على الدول قوة مجردة، محبوبة بكلية قدرة سحرية، تتوب منابه وتكون للتاريخ بمثابة المحرك الغفل، اللامشخص. وهكذا يتحول الخطاب التاريخي، لا من «خطاب فردي إلى خطاب اجتماعي» كما يرى محمد أركون فحسب<sup>(1)</sup>، بل كذلك من خطاب عيني إلى خطاب مجرد، من خطاب مبني للمعلوم إلى خطاب مبني للمجهول، من خطاب يحمل توقيع الفاعل إلى خطاب مُغفل من الإمضاء. وسواء أكان فاعل الفعل في هذا الخطاب هو «الثراث»، أم بدائله ومعادلاته مثل «الوحي» و«التوحيد» في خطاب السلفيين، أو «العنصر العربي» و«اللغة العربية» في خطاب القوميين، فإن الواقعة الأساسية التي يحلنا إليها هي استقالة الذاتية الإنسانية وغياب الفعلة التاريخيين الذين هم بالضرورة البشر (وإلا استحال أن يكون التاريخ هو التاريخ). وتقدم لنا كتابات منير شفيق من هذا المنظور مثلاً ناجزاً على خطاب تاريخي مغيب فاعله العيني خلف قوة مجردة، لامحدودة للفاعلية، مهمتها أن تكون للفعلة الحقيقيين الذين هم البشر ما يكونه الراشد الكلي القدرة للطفل الذي لا حول له ولا قوة. وهكذا يغيب في النص التالي المسلمون، يغيب الرسول والصحابة والتابعون، يغيب الأمويون والعباسيون والفاطميون والأيوبيون، يغيب المهاجرون والأنصار والخوارج والمئة والشيعه، يغيب العرب والفرس والترك وباقي العجم، ولا يحضر سوى الإسلام في تجريد مطلق، متعال، محتكر لكل مبدأ للفاعلية: «أثبت الإسلام أنه قادر على النهوض بالأمه المرة ثل المرة بعد كل كيوه أو نكسه أو هزيمة أو انهيار... فمهما كان الخطب شديداً والهزيمة كبيرة والعنو بطاشاً وماكراً، كان الإسلام قادراً على أن يخرج في الأمه من يقودها ويصلح أمرها ويعيئها... وبهذا شكل الإسلام تلك القوة الجباره التي تزود جسد الأمه بعوامل الدفاع والمقاومه والهجوم...

1. محمد أركون، *تحول نقد العقل الإسلامي* Pour une critique de la raison islamique (ميزون نوف-لاروز، باريس 1984)، ص 110، وذلك في معرض قراءته التحليلية لنص لأنور الجندي، من كتابه: الإسلام والدعوات الهدامة.

فالإسلام هو الذي يقوم أعوجاجها حين تعوج، ويشفيها من أمراضها حين تبتلى بالعلل، ويدفعها للجهاد حين يغزوها الأعداء، وينهضها حين تكبو<sup>(1)</sup>.

وإذا كان هذا الخطاب يمارس إلغاء الذاتية التاريخية على نحو لاشعوري، فإن ممثل السلفية اليسارية بالمقابل يرفع هذه الممارسة إلى مستوى النظرية الواعية والإرادية من خلال أطروحته عن «الوحي» باعتباره فاعل الفعل في كل الحضارة العربية الإسلامية، لا في نشأتها فحسب، بل كذلك في تطورها ومسارها على امتداد القرون، إلى حد أمكن له معه أن يقول إنه لا يهم أن يكون ابن سينا هو ابن سينا، وابن رشد هو ابن رشد، و«لو لم يظهر ابن سينا وابن رشد لظهر غيرهما». فالظواهر الفكرية في الحضارة العربية الإسلامية «مستقلة عن القائلين بها»، ولا معنى للحديث عن «السبئية» أو «الرشدية»، و«ما الأشخاص إلا حوامل للأفكار وليسوا مصدرها<sup>(2)</sup>». فالمؤلفون كلهم يعملون «وكانهم فريق واحد»، و«من ثم لا أثر للعبقرية الفردية، فالفضل كله يرجع إلى الوحي<sup>(3)</sup>».

وليس من العسير، من وجهة النظر التحليلية للنفسية، أن نحزر ما الغاية وما الفائدة التي يمكن أن يتوخاها طالب «الوحدة الانتمائية» من هذا النزاع للفردية ومن هذا التجرد من الذاتية. فكما نقول جانين شاسغيه-سميرجل، فإن

---

1. شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، ص 46 و 47 و 66. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما تؤكد معطيات التحليل النفسي من أن القاعلية تقرأ دوماً من قبل اللاشعور على أنها مبدأ مذكر بينما تقرأ الانفعالية على أنها مبدأ مؤنث، فإننا لا نستطيع أن نفرض الطرف عن الرمزية الجنسية التي يطلق بها، ولا سيما إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوقع الشديد التأنيث للفظ «الأم» - التي تحتل في النص قطب الانفعالية - من حيث أنها اسم مؤنث لفظاً وله قدرة استحضار كبيرة من الناحية الاستنقائية لكلمة «الأم». وبالفعل، إن هذه الرمزية الجنسية - التي لنا عودة إلى دلالتها - لا تعود تخفي نفسها عندما يضيف مؤلف الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر قوله: «أثبت الإسلام مراراً وتكراراً عبر تاريخ الأمة قدرته على إنهاضها وتحريكها. فالأرض - للناس - بالنسبة إليه مجهزة عطشى لملئه، وخصبية لبنوره» (المصدر نفسه، ص 140).

2. حسن حنفي، التراث والتجديد (دار للتوير، بيروت 1981)، ص 64-65.

3. حسن حنفي، دراسات إسلامية، ص 229. ولنا، على كل حال، إلى هذه النظرية الحنفية الانصهارية FUSIONNELLE عودة مطولة في الجزء الثاني من «المرض بالغرب» الذي سيصدر تحت عنوان «أرولوجية العقل».

«تضييع حدود الأنا يجعل الفرد قابلاً للتوحد والتماهي لا مع كل عضو في الجماعة فحسب، بل مع التكوين الجماعي بأسره. وفي هذا إرضاء لنداء العظمة عنده، لأن أنا كل واحد يصير بمثابة امتداد للجماعة في جملتها. وعندئذ يفقد أعضاء الجماعة نفوذهم، ويتشابهون تشابه النمل أو الدود»<sup>(1)</sup>.

ولكن ليس من العسير أيضاً أن ندرك ما الوشيجة التي تجمع بين هذا الإلغاء للذاتية ولل فردية وهذا الطلب للتماهي الاتصهاري مع الجماعة وبين ذلك العرض النكوصي المتمثل بالإضراب عن النمو بالمعنى الحضاري للكلمة. فكما يقول جورج موكو، فإن ما يميز للمجتمعات الأبوية، المتقدمة حضارياً على المجتمعات البدائية أو الطبيعية أو «الأموية» التي تحتضن الفرد وتذيبه في الجماعات والتي تتعم فيها الحدود بين الواقع والخيال والسحر لاندماها بين القوى الطبيعية والقوى الخارقة للطبيعة، هو أنها - أي المجتمعات الأبوية - تقسح المجال، لأول مرة في التاريخ، لتطور الفردية بدلاً عن الاتصهار في الجماعة طرداً مع تولي الأفراد لمسؤولياتهم وتقلص تبعيتهم للقوى الخارقة للطبيعة<sup>(2)</sup>. وعلى هذا النحو، فإن النكوص إذا ما أخذ شكل إلغاء لنفرد الهوية وتذويب لحدود الأنا وإعادة صهر له في الكلية الجماعية، يمكن تأويله على أنه نكوص من التطور الأبوي إلى التطور الأموي من الحضارة، ولرنداد عن تصور للعالم يتصف بقدر أو بآخر من الموضوعية والعقلانية ومن الاعتقاد بالقدرة على السيطرة على الطبيعة وعلى تحقيق التقدم التقني والعلمي إلى تصور أكثر ارتهاً للإسقاطات اللاشعورية وأكثر نفاذية على القوى الخارقة للطبيعة وأكثر امتثالاً للتعامل السحري مع الواقع.

---

1. جانين شاسغيه-سميرجل، مثال الأنا، دراسة تحليلية نفسية حول مرض المثالية L'idéal du moi, essai psychanalytique sur la maladie d'idéalité. (منشورات تشو، باريس 1975)، ص 98.

2. جورج موكو، قتل طفل وحصر الفصلي والجنسي المثلي Le meurtre d'un enfant et l'angoisse du schizophrène et de l'homosexuel (المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس 1979)، ص 171.

## النكوص كإحياء للمخطط العائلي

يقول جبرار مائل إن «الإنسان المعاصر غالباً ما يعيش مشكلات المجتمع وكأنه لا يزال طفلاً في أسرته»<sup>(1)</sup>. وانطلاقاً من أن أحد المظاهر الأساسية التي يتجلى بها هذا النكوص الطفلي هو «النكوص من السياسي إلى النفسي» ومن أن «التعبير للسيكولوجي عن المنازعات في الحياة الاجتماعية هو بحد ذاته عرض مرضي يدل على عدم نضج المستوى السياسي»، فإنه يكون مباحاً لنا، حيثما عاود «المخطط العائلي» ظهوره في الواقع الاجتماعي عوضاً عن المخطط السياسي أو الطبقي، الكلام عن نقص في النضج وعن تشبث أو إحياء للتصور الطفلي للعالم، أي التصور الذي لا يتعلّق بموضوعات الواقع الخارجي إلا بمفردات «الأب» أو «الأم» أو «الأخ» بكل ما يمكن أن تستقطبه هذه المقولات العائلية من مشاعر الحب أو الكره أو الازدواجية الوجدانية عموماً<sup>(2)</sup>.

والحال أن ما من قضية يعيشها المثقف العربي وكأنه لا يزال طفلاً في أسرته» مثل قضية التراث التي باتت، في هذه المرحلة التاريخية الموسومة بردة فكرية من طبيعة نكوصية، تحتل مكانها في الخطاب العربي المعاصر بصفتها «قضية القضايا»<sup>(3)</sup>.

والواقع أننا لا نغالي إذا قلنا إن التراث في الخطاب العربي المعاصر قد تحول إلى خشبة مسرح لتمثيل مختلف الضروب الممكن تخيلها من تلك المسرحية الطفلية بألف ولام التعريف التي كان فرويد أسماها بـ«الرواية العائلية» للأوديب الصغير.

1. مائل، للتحليل النفسي الاجتماعي، ج1، ص51.

2. المصدر نفسه، ص17 و34.

3. هكذا ورد وصف قضية التراث بقلم السيد يمين، مدير مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية في مؤسسة الأهرام، الذي يضرب هنا صفحاً عن الشواغل السياسية والإستراتيجية الكبرى، على صعيد الواقع الموضوعي، مثل إسرائيل والتخلف والممالة الديمقراطية والوحدة العربية، إلخ، ليجعل التراث وحده «يقف في الصدارة من قائمة الهموم الكبرى التي تشغل بالنا في الوطن العربي، متقنين بشكل خاص، ومواطنين بشكل عام» (انظر: تقديمه لبحوث ومناقشات ندوة، التراث وتحديات العصر، ص11).

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الدور الرئيسي الموكل إلى التراث بصفته أباً رمزياً، فلا غرو أن تكون الرواية العائلية الأكثر تداولاً في الخطاب العربي المعاصر هي رواية التراث باعتباره بالتعريف «سنة الآباء وأخلاقهم ونقل إليهم»<sup>(1)</sup>. ومن الممكن تأول كل موجة السلفية التي انزاحت في أعقاب الهزيمة الحزيرية على أنها فعل لوأذ بحمى ذلك الأب المعنوي الكبير الذي إسمه التراث، ولاسيما في الوجه المحاط منه بهالة الدين، والذي يقال لنا اليوم بألف صورة وصورة - على نحو ما يقال للطفل للفاقد لسبب من الأسباب شعوره بالطمأنينة - إنه «هو الدرع الواقية للشعب، وهو الحامي لمكاسبه، والمحافظ على هويته»<sup>(2)</sup>.

ولكن إلى جانب هذه الرواية المركزية، التي تنتثر شواهدا على نحو غير قابل للحصر في كل الخطاب التراثي المعاصر، فإن ما أسميناه بالمخطط الطفلي في قراءة التراث يتسع لروايات فرعية يصعب بدورها حصرها.

فعلى هامش الرواية الأبوية التي تماهى إجمالاً بين التراث وتعبيره الديني، هناك الرواية الأموية التي تختزل التراث إلى بعده اللغوي، فتجعل من اللغة القومية رابطة رحمية. وتلك هي، على سبيل المثال، زبدة فلسفة زكي الأرسوزي في «الرحمانية». فعنده أن «كلمة أمة هي والأم مشتقتان من نفس المصدر، والأم هي الصورة الحسية للأمة، مثل هذه من أعضاء المجتمع كمثل الأم من أبنائها». والحال أن «حدود الأمة هي حدود لغتها»، وعن لغة الأمة يصدر أبنائها صدور الجنين عن رحم أمه؛ فهي «مصدر كينونتهم»، ومنها يستمدون «النمغ والقول»، وبها يتصلون بالأم الكبرى التي هي أمتهم «اتصالاً رحمانياً»، أي اتصالاً «رمزه الرحم» بحيث لا ينقطع حتى بعد «أن يستقل الجنين بالولادة»؛ وذلك هو أصلاً معنى الرابطة القومية التي هي بالماهية «تجربة رحمانية مثلى»<sup>(3)</sup>.

1- صبحي الصالح، في: التراث وتحديات العصر، ص 187.

2- حسن حنفي، الحركات الإسلامية في مصر (المؤسسة الإسلامية للنشر، بيروت 1986)، ص 151.

3- زكي الأرسوزي، المؤلفات الكاملة (مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة، دمشق 1972-1974)، م 6، مواضع شتى.

وفي ركاب الفلسفة الرحمانية الأرسوزية يسوق لنا فائز إسماعيل، في مدخلته المطولة في ندوة «التراث والعمل السياسي» التي عقدها المجلس القومي للثقافة العربية ومنتدى الفكر والحوار في الرباط في تشرين الثاني 1982، يسوق لنا رواية عائلية بنوية نموذجية. فمن يتصدى لحمل راية التراث هذه المرأة ليس أباً ولا أمّاً، بل هو ابن، وابن ممارس على نحو تام للشفافية لفعل «التمرّد على الأب». فالابن هنا ليس ابن أبيه، بل ... بإعلان من لسانه - ابن أمه: «حتماً إنني لست انتسب إلى الأكاديميين والأشوريين والبابليين، ولا إلى الفراعنة والهكسوس، ولا إلى الفينيقيين والكنعانيين، ولا إلى معين وسبأ وحمير، ولا إلى تدمر والبتراء، ولا إلى عبس وذبيان وغسان وعدنان والأمويين والعباسيين، وإنما أنا ابن هذه البقعة من الأرض»<sup>(1)</sup>. وهو أيضاً ابن تلك الأم الأخرى التي هي اللغة: «اللغة العربية هي الأساس، وهي البداية للانتساب إلى العروبة، ذلك أن اللغة العربية ما وفدت إلى العرب من الخارج، وإنما خرجت من أعماق الإنسان العربي... وهي بالنسبة إلى العرب أكثر من لغة وأكثر من ثقافة؛ فقد حملت خصائص الأمة، وكانت من أهم مقومات تكوينها وصمودها آلاف السنين»<sup>(2)</sup>. والحال أن ابن الأرض وابن اللغة هذا يأبى أن يكون ابناً للتراث. فالتراث، من حيث هو تراث الأجداد والآباء، «عاجز عن أن يسد حاجات الجيل». وليس إرث الماضي الميت هو ما يحيي الجيل، بل العكس هو الصحيح. فجيل المستقبل هو الذي «يمنح للتراث صفة الحياة والاستمرار». أية ذلك أن «التراث ثابت والحياة حركة، التراث توقف عند حدود الحياة والحياة لا تنتهي، التراث أعطى والحياة لا تزال تعطي». و«ما هو مبرر وجودنا نحن الجيل العربي حين نباهي بالتراث كما يباهي الشيخ بأيام شبابه الخالية؟». وإذا كان الماضي مسؤولاً عن الأجداد، فالحاضر والمستقبل مسؤولان جيلنا نحن. وإذا وقفنا عند مسؤولية الأجداد بالتزامنا بالماضي وحسب، فكأننا ألغينا دورنا في الحاضر والمستقبل، بل ألغينا وجودنا كله». ذلك أنه إن تكن

1- فائز إسماعيل، «من نحن؟ بين التراث والتجديد والثورة»، في: التراث والعمل السياسي

(منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ومنتدى الفكر والحوار، باريس 1984)، ص 12.

2- المصدر نفسه، ص 16.



الحياة صراعاً، وإن يكن التاريخ صراعاً، فإن «الصراع الحقيقي هو بين الماضي والمستقبل، الصراع بين القناعة والطموح، العجز والقدرة، الاستسلام والحرية». والحال أن «جميع شعوب العالم حددت موقعها بالنسبة إلى المستقبل، إلا العرب فإنهم لا يزالون يحاكمون الماضي، ويحكمون أنفسهم أمامه». والحال أيضاً أن «كلمة التاريخ لم تعد تعني الماضي وحده، وإنما أصبحت تعني الماضي والمستقبل معاً». وإن كلمة نحن في الماضي تعني الأجداد، أما في الحاضر والمستقبل فهي تعنيّا نحن أبناء الحاضر والمستقبل». فهل مطلوب منا أن نناقش اليوم: ماذا أراد الأجداد... أم نناقش: ماذا نريد نحن، وكيف نريد، ومن هم نحن». وإذا كان «المطلوب منا أن نمتلك الماضي، لا أن يملكنا الماضي»، وإذا كانت «قوالب الأجداد ليست مؤهلة دائماً لطاقت الأبناء»، وإذا كانت «أمتنا التزمت بالتراث قروناً طويلة وبقيت المسافة بينها وبين العصر طويلة»، فهل لها من طريق غير الثورة؟ والثورة، التي هي على الدول فعل بنوي، لا تعني شيئاً آخر سوى «رفض سلطان الماضي على الحاضر» والبدء «من جديد بلا مسلمات مسبقة»، والالتزام بالمستقبل دون الماضي لأن «قوة الأمم تبدو في مدى التزامها بالمستقبل... وضعف الأمم يبدو من نسبة التزامها بالماضي». وبطبيعة الحال فإن الكلمة الأخيرة في هذا الفصل الأخير لا يمكن أن تكون إلا «للتقدمي» لا «للرجعي»، لأن «التقدمي هو الابن الشرعي لهذا الوطن، والرجعي دائماً وأبداً لقيط في هذا الوطن، إن لم يكن دخيلاً عليه»<sup>(1)</sup>.

وتتفرع من الأرومة الأرسوزية رواية عائلية أخرى تتمحور حول كراهية ذلك الأخ الدخيل، أي غير الشقيق بالمعنى الحرفي للكلمة<sup>(2)</sup>، الذي

1. المصدر نفسه، ص 19، 40، 41، 43، 45، 57، 71، 75، 76، 78، و86. ويدهي أننا لا نقيم هنا علاقة مساواة بين النزعة الأبوية للماضوية وبين النزعة البنوية المستقبلية كما تمثل في التفرعات «الثورية» للرحمانية الأرسوزية. ولكن ما دامت رؤية التاريخ تقدم على هذا النحو خشبة مسرح لإخراج الرواية العائلية وإحياء المخطط الطفلي، فلذا أن نعتبرها تكوصية في بنيتها النفسية التحتية، حتى ولو كانت تدعي أنها «تقدمية» في بنيتها الإيديولوجية الفوقية. فالابن «التقدمي» المتمرد على الأب قد لا يقل عصاوية عن الابن «الرجعي» الطالب لحماية الأب.

2. الشقيق في العربية هي من كان لأخيه من شق ولحد، أي من أم واحدة، أما الأخ غير الشقيق فهو من كان لأخ من الأب، لا من الأم.

يتمثل، في نطاق الحضارة العربية الإسلامية، بـ«الشعوبيين» أو «الأعاجم» على اختلاف أجناسهم. فالتراث العربي الأصيل في نظر الأرسوزي هو تراث الجاهلية وصدر الإسلام، أما ما عداه فهو تراث هجين من صنع «المستعربين» و«الهجاء» من «أمثال ابن المقفع والفارابي وابن سينا والغزالي»<sup>(1)</sup> ممن تطفلوا على دين العربي وعلى لسانه معاً، فأنفقوا العربية من خارج حدسها، بدون أن يكون في مكتنتهم أن يتصلوا بها اتصالاً رحمانياً، وبدون أن تكون لهم «بمثابة الألسجة من الكائن الحي» و«الأم من مهجة كبدها». فبدلاً من أن يكون كيانهم ولسانهم شيئاً واحداً، وبدلاً من أن توحى كلماتهم بحقيقتهم، بقيت للكلمة عندهم – وهم بالتعريف أعاجم – «دلالة واصطلاحية يلتصق بها المعنى عَرَضاً مثلما تلجأ الروح المتشردة إلى الجثة فتستوحش منها»<sup>(2)</sup>. ومع طغيان هذا «العرق الملعون» وتلويثه لنقاء الدم العربي ولحضارة الأم ولغتها بدأت مسيرة العرب الأقحاح نحو الانحدار والانحطاط، وطويت صفحة عهدهم البطولي وبات حظهم الوحيد من التاريخ هو «سفر الخروج»: «لما طغى الأغيار على بينتنا انحرف قوام إنسانيتنا وتجوّفت مؤسساتنا من جراء الانحراف حتى جف فيها نسغ الحياة، وتحول تراثنا إذ ذاك إلى ظلف يعوق الآمال عن الانطلاقة، وتردى مجتمعنا إلى مستنقع تعيث فيه الأثنية... لكن هل وقف الأعاجم عند إزاحة مجتمعنا عن حقيقته؟ لا، ولا عند إخراج العربي عن محور شخصيته. لقد نفذوا إلى صميم أصلتنا. فبالهجانة أفسدوها، وبالانتخاب المتدني استنزلوها إلى أن غارت في بينتنا قواعد خصالنا الكريمة»<sup>(3)</sup>. ومن ثم لا غرو أن تتحط «الرحمانية» لدى تلامذة الأرسوزي إلى تصور هذائي للتاريخ يحمل الأغيار والدخلاء والهجاء من الإخوة بالتبني وزر «سفر الخروج» منه ويدعو إلى شن حرب إبادة شاملة ضد كل ذرية «الشعوبيين» لتتقية الدم العربي من كل السموم والجراثيم التي بثوها فيه والتي كانت للانحطاط العربي بمثابة العلة الأولى والأخيرة. هكذا يكتب مؤلف «في الشعبية» يقول: «الشعبوية حركة

1- الأرسوزي، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، ص 289.

2- المصدر نفسه، ص 92.

3- المصدر نفسه، ص 278.

عدائية عدوانية مضادة، ذات طبيعة تعصبية عمياء ومقاصد تخريبية هدامة. وتقوم في جوهرها على مناهضة للعرب قومية وأمة وشعباً ووطناً ودولة وحضارة، ومحاربتهم محاربة شعواء لا هوادة فيها، وتأليب الخصوم والأعداء عليهم في كل مكان، والتواطؤ ضدهم توطؤاً كلياً في كل زمان ومع أية أمة ودونما شرط. وهي في ذلك مسيرة تسييراً تاماً بحقدتها الأسود عليهم وكراهيتها الشديدة لهم وهوسها الجنولي بالنار منهم وجنوحها الإجرامي إلى تمزيقهم وتقويضهم والقضاء عليهم، بأي شكل من الأشكال... ومن هنا نتكرر نتكراً مطلقاً لكل من هو أو ما هو عربي، وتحط من قيمته وشأنه... كما تعمل بكل ما في وسعها لتجريد العرب، كعرب، من جميع ما يتمتعون به من مزايا... وعلى الاقتراء والتجني عليهم بتحميلهم ما يمكن وما لا يمكن تحميلهم إياه من نقائص ومثالب وعيوب... وتشتمل الشعوبية عامة على خليط غريب متنافر من البشر، يتعدون في أجناسهم ولغاتهم وأديانهم وطوائفهم... ولكنهم يلتقون ويتحدون حول مبدأ جماعي أكبر هو من مبدأ العداء للعروبة وفي سبيل هدف شمولي لوحد هو هدف القضاء على العرب... لا للقضاء على الوجود العربي الكائن فحسب، بل القضاء على كل وجود عربي مقبل، أي القضاء على الأمة العربية ذاتها كأمة، بكل ما لها من مقومات وخصائص عظمى<sup>(1)</sup>. وفي حرب الوجود ضد الوجود هذه، للمشنونة ضد «الجنس العربي»<sup>(2)</sup> بكل ما «يتمتع به من عظمة كونية فريدة لا تكاد تدانيتها عظمة جنس من الأجناس على الإطلاق»<sup>(3)</sup>، تنور أقصى المعارك... لأنها أنومها أثراً... على الجبهة الثقافية، إذ «كما تشتمل الشعوبية على هذا الخليط الغريب المتنافر من البشر، فإنها تشتمل بدورها على خليط غريب متنافر من الثقافة، يمكن أن نطلق عليها بحق اسم «الثقافة الشعوبية». وتتكون هذه الثقافة، العربية قالباً والأجنبية قلباً، من عناصر شتى مستوردة، من الآداب والفنون والعلوم، استمدت قديماً وبصورة سلبية من ثقافات الفرس والهند والصين واليونان والرومان، واستمدت حديثاً

1. إسماعيل العرفي، في الشعوبية (دم.: دن..، 1979)، ص 15-17.

2. لا ننس أن «الجنس» أو «الدم» هو، بالنسبة إلى اللاشعور، مقولة أموية.

3. العرفي، المصدر نفسه، ص 43.

وبصورة مشوهة من ثقافة الغرب. وعلى هذا، فهي ثقافة هجينة ممسوخة، قد أوجدت إيجاباً قسرياً شاداً لتكون مناقضة ومضادة ومناهضة، في روحها وشكلها وطابعها، لروح وشكل وطابع الثقافة العربية الأصيلة<sup>(1)</sup>. ولا تقل خطورة عن الشعبية الثقافية الشعبية الدينية، إذ أن الإسلام، من حيث هو رسالة العرب إلى العالم، كان هو المنفذ الذي مكن «للهجناء» من التسلل إلى حضارة «الأصلاء» لينفثوا سمومهم في نقطة المنبع بالذات بعد كل التلويث الذي أحدثوه في نقاط المصب: «لما كان الدين الإسلامي هو دين العرب القومي الفذ، الذي هو نتاج عبقريتهم الإلهية الخلاقة ومنظار رؤيتهم الكونية الشاملة وحامل رسالتهم الحضارية العامة... كان تخريبه إذن تخريباً لأول وأضخم دعائم كيانه القومي الأكبر... وقد كان حقد الشعبية مفرطاً جداً على الدين الإسلامي... ومضت إلى أبعد ما يكون في العمل على تخريبه... وقد كان النجاح حليفها في هذا المضممار، إذ تسنى لها في النهاية أن تحيل هذا الدين الأحادي الجامع إلى خليط غريب متنافر من الملل والنحل والشيع والفرق والطوائف الهجينة الممسوخة... وقد كان تمذهب الشعبية الظاهري الكاذب بالدين الإسلامي عاملاً أولاً من عوامل نجاحها التخريبي ذلك. فبواسطة ما كان يوفره لها من الحرية استطاعت بكثير من اليسر والسهولة أن تبث في ثنايا هذا الدين التوحيدي الحنيف كل ما كانت تبغي بثه من سموم الشك والكفر والإلحاد والزندقة، ثم أن تقصد من بعد ذلك كل علم من علومه الأساسية الكبرى. وقد أفرزت الشعبية من خلال نشاطها الديني للزائف عدداً ضخماً من رجال الفقه والحديث والسيرة والتصوف والفلسفة، ممن لعبوا أدواراً إفسادية خطيرة ما تزال آثارها السلبية الهدامة باقية أو ماثلة حتى اليوم، ومن كان من بينهم العديد من الذين تسنموا مراكز دينية رفيعة، ونالوا صيتاً علمياً مدوياً، وعرفوا بمذهب فقهي أو تصوفي أو فلسفي مشهور. وقد نال هؤلاء الفقهاء والمحدثون والمفسرون وكتاب السيرة والمتصوفة والفلاسفة الشعبيون امتيازات علمية واسعة... ولم يكن ذلك ناجماً، بطبيعة الحال، عن كفاءة وجدارة واستحقاق، بل عن اختلاق وتزويد

1. المصدر نفسه، ص 17.

وتفريق. فلقد أحاطتهم الشعوبية على مر الزمن بالعناية الفائقة والاهتمام البالغ والتقدير المفرط، بحيث جسمت كثيراً من مكانتهم العلمية وشهرتهم الدينية، حتى أظهرتهم وكأنما هم وحدهم حملة علوم الدين الإسلامي، بل حملة العلوم الإسلامية كافة<sup>(1)</sup>. وبديهي أن كراهية الأعجمي بصفته أخاً غير شقيق ليست وفقاً على الأرسوزيين، بل هي موقف شائع في الخطاب العربي المعاصر حول التراث. وهكذا نجد المغفور الشيخ صبحي الصالح يؤكد، في مداخلته في ندوة ناصر للفكرية حول العلاقة بين العروبة والإسلام، لا على خصوصية هذه العلاقة فحسب، بل على حصريتها أساساً. فعلى الرغم من توكيده بأن الإسلام دين كوني، وبأن الحضارة التي تبلورت من حوله كانت «حضارة إسلامية ولم تكن حضارة عربية»، وبأنها لم تسمَّ «حضارة العرب» إلا «على ألسنة المستشرقين للتفريق بين الأمة الإسلامية وعناصرها»<sup>(2)</sup>، فإن توكيده النظري هذا لم يمنعه من أن يضيف القول من منطلق التبخيس والنفي لدور الأخ الدخيل: «إن عمل العرب هو تفهم الإسلام لأن غيرهم، مهما أراد، قلن يفهم الإسلام. لا تصدقوا أن أعجمياً يستطيع أن يفهم الإسلام. أنا اليوم أشتغل، كما يعلم أصدقائي، بمعجم عربي-عربي، وعربي-فرنسي، في منتي ألف كلمة في كل من المعجمين. ومع ذلك، عندما أرجع إلى لسان العرب لابن منظور، أضيق ذرعاً بهذا الأعجمي الذي صنع معجماً وهو ما يزال يخلط بين الذكر والأنثى»<sup>(3)</sup>. وفي صيغة قريبة من صيغة «شعب الله المختار» - وهي صيغة يمكن وصفها بأنها هي الأخرى «رحمانية» ولكن خاصة ببني إسرائيل الذين يقيمون عصبيتهم أصلاً على صلة للرحم لا على عصب الأب - يؤكد محمد عمارة، نقلاً عن حسن البنا، أن «العرب هم شعب الإسلام المميز»، وأن قيادته يجب أن تكون لهم، فإن تولوها ارتفع، وإن توليت عنهم لنخسف، وإن عزوا عز، وإن ذلوا ذل. ولكن هذا التوكيد الإيجابي على «العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام» لا يلبث أن ينقلب إلى ممارسة مجهور بها للاهوت نفى

1. المصدر نفسه، ص 22-24.

2. صبحي الصالح، في: العروبة والإسلام علاقة جنسية، ص 208.

3. المصدر نفسه، ص 211.

الآخر، ولا سيما إذا كان هذا الآخر - وهو هنا المسلم غير العربي - لا يرتبط بالأمة/الأم ارتباطاً عضوياً، أي في التحليل الأخير «رحمانياً». وهكذا لم يجد الناطق السابق لسان السلفية المتتورة حرجاً في الجمع بين النقيضين ليؤكد، من جهة أولى، إن «الإسلام كدين، ومن حيث أصوله الاعتقادية، ليس خصوصية عربية، وإنما هو، من هذا الجانب، ذو قسمة عالمية وإنسانية، وذو طابع عام يتعدى الأمم والشعوب والقوميات والحضارات»<sup>(1)</sup>، ولينفي، من الجهة الثانية، «عالمية الإسلام» بتبنيته للعرب «خصوصية تميزهم وتمتاز بهم على الأمم الأخرى حتى في إطار الدين»<sup>(2)</sup>، وبإقامته علاقة معلول بعلة بين انحطاط الحضارة العربية الإسلامية وبين سيطرة الأعاجم، كما لو أن الأقوال المسلمة غير العربية كانت بحد ذاتها جرثومة وباء الانحطاط ولم يكن لها أي دور في هذه الحضارة سوى إفسادها. وهكذا وقع العرب ضحية مقلب تاريخي فريد في نوعه: فقد ربحوا العالم لو بالأحرى ربح العالم نفسه من خلال الرسالة الكونية التي حملوها إليه، ولكنهم خسروا أنفسهم وتلوثت أصالتهم بهجنة الهجاء وعجمة العجماء، فكان مثلهم كمثل ماء النبع النقي الذي يفيض ليغسل العالم من أدرانته، فيصفو العالم ويطهر، بينما يرنق الماء ويكدر. وأولئك الذين أتوا من العالم السفلي ولم يصدروا عن النبع السامي، بل أولئك الذين ارتكوا على النبع يعكرونه ويلوثونه، كانوا يحملون في أسمائهم بالذات علامة هجنتهم وعجمتهم، ودليل انتمائهم للكاذب وأخوتهم المنخولة، ونذير كارثة الانحطاط الذي لا يمكن أن يكون - هنا كما في كل الإيديولوجيات الشوفينية - إلا رجساً من فعل الغرباء الذين يؤلفون في النص التالي سلالة، بل أممية من عرق قاييني ملعون: «من كان يتصور أن حكماً من أمثال وصيف، وبغا، وكيغناغ، وياجور، وبايكباك، وبياكالب، وياراجوخ، واحفجون، وطاشتمر، وكنجور، وتكين، وأعز تسن، وابن كنزلاجيق، وأساتكين، وخمارويه، وكافور، وكتبغا، وكجك، وجقمك، وحوشقدم، وتمريغا، وخايربك، وخسرو، وخورشيد، وجركس، والكريبق، وكوالكيران، وأرناؤوط... الخ... الخ... من

1. محمد عمارة، في: المصدر نفسه، ص 26.

2. المصدر نفسه، ص 27.

كان يتصور أن حكماً من أمثال هؤلاء الغرباء عن روح الأمة وقوميتها وحضارتها تزدهر في عهودهم، وتحت سلطانهم، قسماً العربوية القومية، فتفعل فعلها، وفي مقدمة هذا الفعل مصارعة هؤلاء الحكام، والثورة ضد استبدادهم بحكم أمة هم عن قوميتها وروحها وطابعها الحضاري غريباء... غرباء...؟<sup>(1)</sup>.

ويبني عبد الله القصيمي روايته العائلية البنوية هو الآخر على الكراهية، ولكن رأس حربة هذه الكراهية ليس موجهاً هذه المرة إلى الأخ الدخيل المزاحم للأصيل على ثدي الأم، بل ضد الأب نفسه، ومن موقع ما يسميه التحليل النفسي بالعنوانية أو السادية الشرجية. وما يميز هذه الكراهية في حالة القصيمي - وهي حالة فريدة - أنها كراهية نفية شاملة لكل التراث، تتكرر له بتمامه وتتوتر بالرغبة السلبية في تدميره برمته بدون أن تستبقي منه شيئاً، وليست جزئية تتكرر منه فقط ما يدعيه الإخوة بالتبني أو بالرضاعة من نصيب لأنفسهم منه وفيه، ولا مدفوعة بدافع الغيرة الأخوية والرغبة الإيجابية في الاستئثار به كله دون المتطفلين عليه من غير نوي الأرحام. والفرضية الأساسية التي ينطلق منها مؤلف «العرب ظاهرة صوتية» لتعقيل كراهيته التي لا يروى لها غليل لجماع التراث الأبوي هي أن الإنسان العربي قد حكم عليه بأن يكون مجرد إنسان مصوّت لأن قدر الولادة شاء له أن يكون ابناً لأولئك الآباء الذين يقال لهم «العرب»، والذين كانوا «في كل تاريخهم مصوّتين فقط ولم يحدث أن كانوا متكلمين... لقد كانوا يجهلون الفرق بين الكلام وللتصويت، لهذا كانوا يحسبون أنفسهم متكلمين... والعربي إذا قرأ تراثه، أو مهما قرأ تراثه، فليس إلا قارئاً وسامعاً ومتعلماً أصواتاً. إنه مصوّت يقرأ عن مصوّت آخر، عن مصوّت يعيش في قبور آبائه وفي نفسه»<sup>(2)</sup>. والحال أن «للتصويت» إرث عربي متجدد باستمرار يرثه الأبناء عن الآباء ويورثونه من بعدهم للأحفاد. وبما أن التراث هو صوت آباء الإنسان العربي «المخزونة جنتهم في مقابر

1. المصدر نفسه ص 36.

2. عبد الله القصيمي، العرب ظاهرة صوتية (بدن، باريس 1977)، ص 158-161.

التاريخ المملوءة بالعنف والدمامات والفحش»، فلا غرو أن يكون زمن هذا التراث زمناً ميتاً: «عد إلى الماضي وانثر جميع توابيت أربابك وأنبيائك<sup>(1)</sup> وأبائك ووعاظك وشعرائك لنقرأ فيها كل معلقاتهم وجاهلياتهم وإسلامياتهم وكل حماسياتهم ومصاهلاتهم، ولنقرأ أيضاً... كل عدنانياتهم وقحطانياتهم، ثم عد من ذلك الماضي إن استطعت لتستمع ونقرأ اليوم كل ما نقوله ونكتبه ونذيعه جميع صحفك وإذاعاتك وكتبك وجميع أجهزة إعلامك ودعائاتك وجميع منابرک ومحاربيك، ثم لا تحاول أن تجد أن الزمن أو التاريخ قد تحرك أو فعل شيئاً، أو أنه قد وجد ليصنع أي فرق بين ما كان وما هو كائن، لا تحاول أن تجد أن التاريخ أو الزمن قد وجدا في تاريخك... فالزمن والتاريخ لم يوجدوا في كل المسافة الممتدة بينك وبين أبائك<sup>(2)</sup>». ولكن شيئاً واحداً وحيداً من أشياء هؤلاء الآباء الميتين نوي الزمن الميت يابى أن يموت، ألا هو «تصويتهم». فالآباء العرب الأموات لا يلدون الأبناء العرب الأموات سلفاً إلا كما يلد المصوّت مصوّتاً آخر ليلد بدوره مصوّتاً ثالثاً في عملية توالد ذاتي عقيم لمادة ميتة تلد بدون أن يتولد عنها جديد وبدون أن تتخلق ذات جديدة: «إن الأجداد ليحبّلون بذواتهم ويظلّون يلدونها دون أن يحبّلوا بأية ذوات أخرى أو يلدوها، أي دون أن يحبّلوا بأبناء هم غيرهم، أصغر أو أكبر، هم صيغة أو كينونة أخرى، أو أن يلدوهم، كما حبّلت أجيال الخلفاء والسلطين والأئمة وشعراء المعلقات وأجيال البخاري وأبي هريرة<sup>(3)</sup> بذواتها ثم ظلت تلدها دون أن تحبل بأي شيء آخر أو تلد هذا الشيء الآخر. نعم العربي يلد أباه، وأبوه يلد جده، وجده يلد نفسه، يلد

1. نتقن الكراهية الأبوية عند القصيمي بنزعة إلحادية حادة وسافرة واستغرافية لا تقع على مثل لها في كل الخطاب العربي المعاصر، ولا حتى في كل الفكر العربي، قديمه وحديثه، ولا نجد ما يضارعا إلا في الأدب الأجنبية، وعلى سبيل المثال لدى المركز دي ساد. ولكن هذه النزعة الإلحادية، للمتعمدة تنقيس التقسيمات، لا تصدر عن نظر عقلي بقدر ما يحكمها موقف نفسي ويقدر ما تعكس تثبيتاً وجدانياً سلبياً، ومن نمط جنسي مثلي وشرجي كما كان يقول فرويد، على الأب.

2. القصيمي، المصدر نفسه، ص 159-160 و 606.

3. من الصعب أن نقبّس شاهداً واحداً للقصيمي بدون أن يكون متضمناً لحفرة عدوانية مجهر بها ضد التقسيمات.



ولادته. إنها المعجزة العربية<sup>(1)</sup>. والتصويت إنما هو شكل تولد المادة الميئة. وإذا ما علمنا أن المادة الميئة بامتياز هي بالنسبة إلى اللاشعور البشري الفضلات الغائطية بالنظر إلى أن هذه الفضلات، كما يدل اسمها، هي ما يتبقى أو يترسب من المادة المتعضية، بعد كل عمليات الهضم والتمثل والأبيض التي تمر بها، فلن يأخذنا الدهش إذا ما وجدنا مؤلف «العرب ظاهرة صوتية» يفتح عن كراهيته للذودة للمادة الأبوية الميئة من خلال أطروحة مركزية تتأول التصويت على أنه عملية إفراز لفضلات، أو «استفراغ» بتعبير أنق ما دام إفراز للفضلات في الحالة التصويتية إنما يتم عن طريق الفم. فما للتصويت إلا «أسلوب آخر من أساليب... قذف الذات لفضلاتها». والمصوت - وهو دوماً أب أو أبوي الوظيفة - عندما يصوت فإنما «يقذف بفضلاته النفسية، مثلما يقذف بدنه بفضلاته الأخرى... فضلات يستقرغها زاعماً لأنها قداسات وعقريات... أجل، إن المصوتين من أنبياء وزعماء وشعراء ومعلمين ووعاظ ليسوا إلا كائنات تقذف بفضلاتها البدنية من أفواهها على العقول والأخلاق والأذن<sup>(2)</sup>». وعلى هذا النحو، وإذا ما ثبت أن جميع ضروب الآباء إن هم إلا «مستقرغون» ولا شأن لهم إلا أن يستقرغوا على «الكائن اللغوي» الذي هو الإنسان العربي «كل بدواتهم وبذاءاتهم وبلاداتهم وأحقادهم وبغضائهم وجميع ردائلهم النفسية والعقلية والتاريخية والأخلاقية والتسلطية»، وإذا ما ثبت بالتالي أن «اللغة هي أعظم وأشهر وأشمل أجهزة الاستفراغ»<sup>(3)</sup>، فإن اضطهاد الآباء للأبناء، وفق النمط الاستفراغي، يتخذ بالضرورة شكل مجاعة شرجية ولكن منقولة إلى الأعلى، يتم فيها قذف فضلات الآباء في أجهزة تلقي الأبناء من خلال فعل الفم في الأذن: فللم فم هو عضو التكبير، مثلما الأذن هي عضو التانيث. ولهذا يصب مؤلف «العرب ظاهرة صوتية» هجاء المر على هذين العضوين معاً، ولكن دوماً من موقع التقزز من تلاحقهما المؤول على أنه فعل اتصال أو عدوان جنسي من نمط شرجي: «هل يمكن أن يكون للأذن

1. للقصيمي، المصدر نفسه، ص 604.

2. المصدر نفسه، ص 470 و 472 و 481.

3. المصدر نفسه، ص 76 و 78.

أية قيمة... لولا الفم الذي يستفرغ فيها، أي لولا... جميع أصناف المعلمين والمصوتين الذين يستفرغون فيها بأفواههم ومن أفواههم كل قبحهم وقبحهم وطغيانهم وأكاذيبهم؟... إن الأذن ليس لها قيمة ذاتية. إن كل قيمتها أنها تستقبل المستفرغين فيها... إنه لا شيء يهتم بالأذن ويعرف قيمتها مثل الفم. ولا يراد بالفم هنا كل فم أو أي فم، بل الفم المراد هنا هو فم... جميع ألوان المعلمين والغزاة لعقل الإنسان ولذكائه وكرامته وشرفه من نوافذ أذنيه... إن الأذن طريق طغيان واستعباد مفتوح مباح. إنها طريق جميع اللصوص والغزاة إلى عقولنا وضمائرنا... إن الأذن السامعة للطبيعة هي أوقع هدية أهدتها الطبيعة إلى ... الطغاة واللصوص... أما الفم الذي يأمر ليقال له سمعاً وطاعة... فإنه ليس فماً كلامياً، ولكنه فم صوتي، بل إنه ليس فماً ولكنه غزو وعدوان وقح. وهل وجد في التاريخ أو هل يمكن أن يوجد غزاة للإنسان مثل الأفواه في كثرتها ونذالتها وعدوانها... وفي أعداد قتلها وجرحها وأسراها ومشوئها<sup>(1)</sup>. وبديهي بعد كل هذا أن تأخذ إستراتيجية الثورة البدوية لدى مؤلف «العرب ظاهرة صوتية» شكل دعوة إلى قتل رمزي للأب عن طريق القضاء على البلاغة العربية وفك الارتباط بين أفواه الآباء المعتدين وأذان الأبناء المعتدى عليهم: «إننا لنهاب الخروج على بلاغة آبائنا البدو بقدر ما نهاب الخروج على تعاليم نبواتنا البدوية... إن تخلفنا البلاغي ليس أقل من تخلفنا الفكري أو العملي أو الصناعي أو الفني بكل معانيه. وإن التزامنا ببلاغة آبائنا ليس أقل حظاً من التزامنا بحضارة آبائنا العلمية أو الصناعية أو الفكرية أو المذهبية أو التطبيقية أو حتى العسكرية والحربية. وإن إعجابنا بهذه ليس أبعد عن الذكاء من إعجابنا بتلك. وإنه كما ماتت أو كما يجب أن تموت أساليب المواصلات التي ورثناها عن آبائنا، كذلك يجب أن تموت الأساليب البلاغية التي تعلمناها من أولئك الآباء»<sup>(2)</sup>.

1. المصدر نفسه، ص 344-347.

2. المصدر نفسه، ص 232-233.

## النكوص كإعادة تنشيط لآلية الترميز الجنسي

إذا كان الموقف من التراث يقدم حقلاً نفسياً ملائماً لتطبيق المخطط العائلي بحيث يتبدى هذا التراث تارة وكأنه أب كبير حام وطوراً وكأنه أب خصاء، تارة وكأنه أم رحمية وطوراً وكأنه أخ دخيل، فإن الموقف من الحضارة الغربية بالمقابل يتيح المناخ النفسي الملائم لإعادة تشغيل آلية الترميز الجنسي. والحال أن الترميز الجنسي، كالترميز العائلي، آلية لاشعورية يحكمها موقف نفسي لا موقف معرفي، وتشف عن الطفل في الراشد عندما يكون هذا الراشد أسير الخبرات النفسية الراضنة التي قولبت شخصيته الطفلية الطرية وتقولبت هي نفسها في صورة مخططات نموذجية للإدراك والسلوك تعاود اشتغالها في كل موقف مشابه يستجد لاحقاً، مما يشل الراشد عن اتخاذ موقف معرفي أو إجرائي إزاء العالم الخارجي وموضوعاته، مكتفياً بأن يعيش من جديد نفس مشاعر الحب أو الكره أو الخوف التي ارتبطت في لاشعوره بالموقف الراض المبكر. ومن هنا يقول فرانكو فورناري، وهو رائد كبير لمدرسة التحليل النفسي الثقافي، إن توقف آلية الترميز الجنسي اللاشعوري عن الاشتغال «ضروري لتطور العمليات المنطقية والأنشطة المعرفية المجردة» وإلا لمتنع إدراك سن الرشد، وإن الراشد يحتاج إلى «فك الترميز الوجداني لجسده ولجسد الآخرين، وكذلك لكل موضوع يدخل ضمن نطاق تجربته، كيما يكون في مقدوره أن يتحكم بهذه التجربة عملياً وإجرائياً» وإلا بقي أسير «العلاقة الجسدية» التي يقيمها الأنا الطفلي مع العالم الخارجي «بصفته عالماً من موضوعات الحب أو الكره، لها منلولات جنسية كلية، من قبيل الثدي، البراز، القضيب، الأب، الأم، الطفل، المجامعة الجنسية، الخ»<sup>(1)</sup>. ونستطيع القول، بمعنى من المعاني، إن الرمزية الجنسية هي بمثابة «النظام المعرفي» - الإيبستمي - للرؤية العصابية للعالم. فالراشد العصابي يرى في كل شيء قضيباً أو مهبلًا، هذا إن لم يرَ فيه أيضاً ثدياً وشرجاً، مثله في ذلك تماماً مثل الطفل الذي لا يتعلق العالم إلا من فتحات جسمه الرئيسية للثلاث: الفم والصارة

1. فرانكو فورناري، الجنس والثقافة Sexualité et Culture، للترجمة الفرنسية (المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس 1980)، ص 92-93.

الشرجية والفوهة البولية<sup>(1)</sup>. ولكن بما أن التجربة الأساسية في الرؤية العصابية للعالم هي التجربة الخصائية، فلنا أن نتوقع أن يكون المحور الذي تدور عليه الرمزية الجنسية ليس الايروسية التناسلية الناضجة التي تقوم على علاقة مشاركة فعالة ومتبادلة بين عضوين جنسيين متكاملين ومتساويين، مذكر ومؤنث، بل الايروسية الطفلية ما قبل التناسلية التي تقوم على واحدة جنسية يحكمها قانون الملك وعمه. ففي نظر الطفل، كما في نظر العصابي، لا وجود إلا لعضو تناسلي واحد وحيد هو عضو الذكورة. أما الأنوثة فلا وجود لها بما هي كذلك، وإنما هي بالأحرى نقص وجود وعدم ملك. فالأنثى عندهما هي نكر جُرد من آلة ذكورته وعلامتها معاً. وبعبارة أخرى، إن الأنثى هي التجسيد العيني لواقعة الخصاء المستوهم. ومن هنا كان اعتبار الأنثى كائناً ناقصاً، واعتبار التأنيث مسبباً وفعل خفض وإذلال<sup>(2)</sup>. ومن هنا أيضاً كان تأويل الراشد العصابي لكل تجربة إحباط على أنها فعل خصاء. ومما يساعد على مثل هذا للتأويل أن التجربة الخصائية أوسع دلالة بكثير بالنسبة إلى اللاشعور من مجرد الحرمان أو خطر الحرمان (وهو دوماً - في ظل حضارة الأزمنة الحديثة على الأقل - خطر متوهم) من عضو الذكورة. فكل تجارب الإحباط أو الانفعال الكبرى في حياة الطفل، ولاسيما منها المرتبطة بالمراحل الثلاث لتطور الليبيدو الطفلي، تُعطى من قبل اللاشعور منلواً خصائياً. وفي رأس هذه التجارب الفطام بالمعنى الحقيقي للكلمة (الانفصال عن ثدي الأم)، والفطام الشرجي (بالمعنى المجازي أي التكريب على النظافة)، والخصاء المتوهم (النهى عن الاستمنااء الطفلي الذي غالباً ما يترافق، بالفعل، بتهديد لفظي من قبل الولدين بقطع العضو المجرم)<sup>(3)</sup>.

1. من هنا تصنيف فرويد الثلاثي للايروسية الطفلية: الايروسية الشفوية، والايروسية الشرجية، والايروسية القضيبية أو للفالسوية.

2. نقول «التأنيث» لا «الأنوثة» لأن للعصابي، كالطفل، لا يستطيع أن يتعلل الأنوثة كواقعة طبيعية وأولية، وإنما فقط كواقعة مصطنعة وثانوية. ومن هنا صيغة التحدية (التأنيث) بدل صيغة الملازمة (الأنوثة).

3. يضيف أوتو رانك إلى هذه الخبرات للخصائية رضمة الميلاد، أي تجربة الانفصال عن رحم الأم.

والحال أنه منذ هزيمة حزيران 1967 أخذت تتجلى في الخطاب العربي المعاصر حول العلاقة بالغرب أعراض نكوص - لا تخفي نفسها - من السياسي والاجتماعي إلى النفسي والبدني، ومن المعرفي إلى الجنسي. وبالإجمال يمكن القول إن جدلية التقدم والتأخر، التي حاول عصر النهضة أن يتغلبها بمفردات سياسية ودينية وتربوية، تتصل بنظام الحكم وبالإصلاح الديني والخلفي ونشر العلم والتعليم وتحرير المرأة، والتي حاول عصر الثورة أن يتغلبها أيضاً بمفردات اقتصادية وبيولوجية، تتصل بالتنمية والتصنيع والإصلاح الزراعي والعدالة التوزيعية، هذه الجدلية مالت في أعقاب الرضعة الحزيرية إلى أن تتجرد من طابعها النظري لتكتسب مكانة طابعاً رمزياً في عملية انزياح نكوصية من مستوى العلاقة الحضارية بين طرف متقدم وآخر متأخر إلى مستوى العلاقة الجنسية بين عامل مذكر وجامد مؤنث. وبعبارة أخرى، لقد كتبت جدلية التقدم والتأخر عن أن تكون واقعة أنثروبولوجية على صعيد الوعي لتتحول أكثر فأكثر على صعيد اللاشعور، وبالتوهم، إلى واقعة نفسية ذات صلة بعقدة الخصاء. والواقع أننا نستطيع أن نتحدث هنا حتى عن رهاب خصاء.

وبديهى أن التعبير عن هذا الرهاب يمكن أن يتدرج، كما يعلمنا مبحث الأعراض، من التلميح والتورية إلى التصريح والتسمية.

ففي الشاهد التالي لعبد الكبير الخطيبي نرتد العلاقة بين الأنا الجمعي و«القوة الغربية»، كما في العلاقة التي يقيمها الأنا الطفلي مع العالم، إلى محض علاقة جسدية: «إن وجودنا في صميمه قد نالت منه إرادة القوة الغربية وعنبتة... وأصنفته للحقارة والهيمنة الوحشية القاسية... ونحن لا حول لنا أمام قوة هذا العالم. هذا هو تاريخنا الذي ميس في جسده»<sup>(1)</sup>.

وفي شاهد آخر يُدعى الجانب الاغتصابي من هذه الدراما الحضارية ليرى الجانب التأنثي مؤزى عنه بالهامشية والمفعولية: «على الساحة الكونية نحن هامش وأقلية ومقهورون. متخلفون كما يقولون»<sup>(2)</sup>.

1- عبد الكريم الخطيبي، في: التراث وتحديات العصر، ص 334 و 346.

2- المصدر نفسه، ص 338.

والمفعولية أيضاً - أي للتأنيث بالنسبة إلى اللاشعور - هي الصيغة التي يجري بها تعقل وجود الذات في مواجهة الآخر الغربي: «نحن مضطهدون مغزؤون مقتحمون في ديارنا»<sup>(1)</sup>.

وبمفردات «السلبية» و«الإيجابية» - التي هي مرادفة أيضاً بالنسبة إلى اللاشعور للأنوثة والذكورة - يتم في الشاهد التالي تعقل العلاقة بين الذات والغير أو العرب والغرب: «عاش العرب التاريخ الحديث كانهطاط وسقوط وعجز للذات، وكنتقدم هائل ومتسارع وإنجاز حضاري فذ للغير. كنتدهور وهامشية وفقدان للقيمة والفاعلية الذاتية، وكنتظيم ومديح لا حدود لهما للنهضة والقوة والمصادقية الغربية... وكبناء لإمبراطوريات جديدة فاتحة وتنجير لطاقتات تكنولوجية وثرية واجتماعية هائلة... عاشوه باختصار كسلبية مطلقة فيما يتعلق بالذات، وكإيجابية كاملة فيما يتعلق بالغير. فهو لدينا مذلة وارتهان وهوان، وهو لديهم نهضة وتقدم وتوير وإنجاز»<sup>(2)</sup>.

وفي الشاهد التالي تبرز الرمزية الخصائية بمزيد من الوضوح، ولكن موراة خلف «تقليم الأظافر» و«نزع المخالب»: «جاء الغرب ابتداءً من القرن الخامس عشر... وأخذ يبني هيمنته وسيطرته... وأخذ الشرق العظيم ينحدر... فوضعه الغرب في قصص وقلم أظافره ونزع مخالبه... حتى أفقده ثقته بنفسه»<sup>(3)</sup>.

وفي سياق هذه الرمزية الخصائية اللاشعورية يكنّي جلال أحمد أمين عن الغرب الخصاء بـ«الجراح الغربي» الذي لا شغل له سوى «العبث بأمة لا تكري ما تصنع»<sup>(4)</sup>.

على أن الثورية تخلي مكانها في النص التالي لهشام شرابي للتسمية، وتحل محل الرمزية واقعية لا تنهيب من ذكر الأشياء بأسمائها: «يعرفنا

1. طارق البشري، في: القومية العربية والإسلام، ص 392.

2. غليون، الوعي الذاتي، ص 105.

3. فتحي رضوان، في تقديمه لكتاب أنور عبد الملك، ربح الشرق، ص 8.

4. جلال أحمد أمين، في: التراث وتحديات العصر، ص 772-773. ولنلاحظ ضمن السياق نفسه أن «الجراح الغربي» يحتل موقعه في قطب التنكير، بينما تحتل «الأمة» المعبوث بها موقعها في قطب التأنيث.

الغرب معرفة عميقة، وهو يعرفنا كما يشاء. وهو، بقدرته الفائقة على تسمية الأشياء، إذ يسمينا، يحدد ماهيتنا (من نحن وما نحن)<sup>(1)</sup>، وبالتالي يقرر موقفه منا وأسلوب معاملته لنا: نحن «إرهابيون» مثلاً إذا لم نتنازل عن مطالبنا وتجاوزنا على القتال من أجلها، ونحن «معتقلون» إذا رضينا بالمساومة وقبلنا بالأمر الواقع. وفي كل الأحوال، هدفة بالنسبة إلى الآخر هو أن يخصيه، بالمعنى الفرويدي للكلمة، كشرط للهيمنة عليه كلياً. وتتم عملية الخصي هذه بطرق وأساليب غير مباشرة: من خلال العلاقات الاقتصادية والسياسية، وبواسطة الثقافة والإعلام<sup>(2)</sup>. ودوماً ضمن إشكالية الخفاء، ولكن من موقع مضاد تماماً للسلفية، لا ينفي مؤلف «الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة» واقعة خصاء الفرد العربي، ولكنه يؤكد أن من يخصي هذا الفرد - المخصي سلفاً - ليس الغرب كما يتصور العصابيون من المتقنين العرب المرضى بالغرب، بل هو المجتمع الشرقي نفسه: «في الغرب كنت أذهل عندما أرى قوة الفرد وجرأته وثقته بنفسه أو تحرره الكلي من مختلف أشكال الخوف: هناك [في الغرب] الفرد ديك، وهنا [في الشرق] الفرد دودة. هناك حبل مرة الإنسان موصول بالألوهة، وهنا حبله مقطوع بتأتاً، بما هو عبد. هناك العنفوان، وهنا الوداعة. هناك بروميثيوس طاعية، وهنا القناعة وراحة البال. هناك الشك والتساؤل والنقد، وهذا اليقين

1. لنلاحظ بالمناسبة أن إستراتيجية التسمية مؤولة بحد ذاتها في هذا النص على أنها علاقة جماع غير متكافئة بين مسمً منكر ومسمً مؤنث.

2. هشام شرابي، «كيف نفهم الغرب»، في: الثقافة العربية في المهجر، (دار تويقال للنشر، الدار البيضاء 1988)، ص 26. ولنلاحظ بالمناسبة أن هشام شرابي يمارس هو نفسه ضرباً من التحليل النفسي الاجتماعي عندما يتأول الردة السلفية في طبعها «الجنزية» على أنها محاولة - عاجزة في نهاية المطاف - لاستعادة للفلاس المغتصب، ولكن بدون أن يستخدم هذا المفهوم الفرويدي الأساسي. هكذا يضيف قوله: «من هذا المنظور تبدو الردة البيطريكية الجنزية (الخمينية) على أنها الردة الوحيدة للفعالة والقادرة على مجابهة هذه الهجمة ووضع حد لعملية الخصي التي يمارسها الغرب ثقفاً وقوة وإعلاماً. من هنا سطوة النموذج الأصولي وقدرته على تعبئة الجماهير وكسب فئات واسعة من المتقنين... غير أن البيطريكية الثورية في النهاية عاجزة عن حل الإشكالية الغربية حلاً نهائياً. فهي لا تستطيع الاستمرار في الابتعاد والنقش، وتضطر عاجلاً أم آجلاً، للتخفيف من حدتها والدخول في تسويات على مراتب مختلفة، إلى أن تعود إلى الوضع البيطريكي الحديث، وضع المساومة واللبلة، وضع التبعية والخصي، (المصدر نفسه، ص 26-27).

والثلقين والامتثال. وعندما كنت أتساءل من أين هذه القوة التي للفرد الغربي، كان الجواب يقفز من خلال ملاحظة بسيطة للعيان، دونما حاجة لبحث وراء الأسباب التاريخية والإيديولوجية والمجتمعية والسياسية: لأن بلاده كفت عن أن تكون بلاد الخوف. في ديارنا العربية، منذ سنواته الأولى، وربما منذ شهوره الأولى، تتعاور الفرد أشكال لا تحصى من الخوف: خوف من العائلة، من المعتقد الإيماني، من التقليد، من المجتمع، من المدرسة، من الغد، وأخيراً من السلطة الاستبدادية الشرقية. في بلاد الخوف، سرير بروكوست ينتظر كل فرد يتمدد فوقه، ولكن لنقطع خصيته، فيغزو ضحية ودیعة مذعنة، حياتها فرار وموتها خلاص»<sup>(1)</sup>.

وبما أن المجال التعبيري الأثير للرمزية هو الألب أكثر منه الفكر النظري، فقد يتعين علينا أن نيمم شطر الشعر والقصة والرواية، ولا سيما ما يندرج منها في باب الأنثروبولوجيا الحضارية، لنقع على أغني شواهد الرمزية الخصائية التي نحن بصدها. ولكن بما أن موضوع دراستنا هو بالأساس الخطاب العربي المعاصر فسكتفي بمثال واحد تقدمه لنا قصة «زمن الهجرة وللتمرد» المنشورة في عدد مجلة «الوحدة» المخصص محوره لمسألة «الهجرة العربية إلى أوروبا» تحديداً. فحامد القادوري، الذي تجتمع فيه المعالم النمطية للمهاجر العربي إلى ديار الغربية والغرب، لا تعتمل فيه ولا تسوطه بسوطها سوى عقدة واحدة: عقدة الخصاء. فهو أينما وجد، ومهما يكن شكل الاستغلال الذي يتعرض له، سواء أكان طبقياً أم عنصرياً، فإنه لا يتغلبه إلا بمفردات قاموس الخصاء. وإذا كان لا يتحدث عن الغرب إلا لينعتبه بـ«المتعلق»، فإن العملة التي يقصدها ليست العملة الحضارية أو التكنولوجية، بل فقط العملة الفالوسية. فغيا يبدو الغرب وكأنه احتكر لحسابه وحده مبدأ التذكير، يجد حامد القادوري نفسه، سواء بصفته الفردية أم بصفته التمثيلية الجامعة كمهاجر، محاصراً في خانة التأنيث. وحامد يختصر دلالة هذا الحصار بعجالة واحدة: «كنا لكم أكثر من نساء... يا مسيو مارتان». وإذا كان حامد القادوري يتكلم هنا باسم الأنا الجماعي، فإن

1. الحافظ، الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة، ص37.



رهاب الخصاص هو ما يطارده كفرد أيضاً. فحتى عندما يقصد بيتاً رخيصاً للذة ليثبت رجولته أو ليطفيئ غلتها، يجد نفسه على العكس أسير الشلل والخوف من فقدانها اجتنائاً: «سوف يجثثون ممكن اللذة في من جذوره وأغدو كثور ساقية مخصي». وتبلغ الرمزية الخصائية درجة عالية من الشفافية عندما يوظف حامد القادوري رموزاً جمعية في التكنية عن عنته الفردية في مواجهة عاهرة الماخور كما في مواجهة رجال مصلحة الجوازات الفرنسيين: «في تلك اللحظة بدأ حامد القادوري يحس أنه يتحول إلى جندي ضعيف مهزوز تحركه قوى شبه غيبية غاشمة صدأت سيفه وفلت رمحه وأحرقت سفنه ورمت أشلاء جنث جنده في بلاع سمك مثلف لا يشبع... الدقائق مثلوله حبلى بالألم والضياح، وسيف طارق بن زياد النوى منكشاً على نفسه وأضحى خرقه مدعوك لا تصلح إلا لمسح الأحذية والأشياء القنرة... تعب حصانه... تكلست قوائمه، ولم يعد يصهل حين يرى أفراس الأعداء»<sup>(1)</sup>.

والواقع أن شخصية حامد القادوري التي تتوء حتى قاع اليأس والقنوط بالعقدة الحضارية تستحضر إلى أذهاننا شخصية مريض آخر - ولكن من وزن أنقل بما لا يضاهي - بالعصاب الحضاري، هو مصطفى سعيد، بطل رواية الطبيب صالح «موسم الهجرة إلى الشمال». ولا غرو أصلاً أن تكون هذه الرواية، التي صدرت في أوج الاعتمال الداخلي للهزيمة الحزيرية، قد حظيت بكل القبول الذي حظيت به لدى قرائها من المثقفين العرب، وأن تكون شخصية بطلها قد أغرت المثات - وربما الآلاف - منهم بتقمصها والتماهي معها باعتبارها شخصية حاملة لهوية قومية جمعية. والواقع أن مصطفى سعيد، بما نالته شخصيته من تكريس إجماعي يعز مثله على أيدي النقاد<sup>(2)</sup>، يثبت أنه استطاع أن يمد جسوراً تحتية إلى لاشعور قرائه من المثقفين العرب وأن يفتح له أفنية لتصرف ضغط العقدة الخصائية التي فعّلتها الهزيمة الحزيرية تفعيلاً منقطع النظير. أية ذلك أن مصطفى سعيد

1. ناصر رجب، «زمن الهجرة والتمرد»، في: الوحدة، لسنة الأولى، للعدد 8، ص 135-141.

2. علاوة على مئات ومئات المقالات التي كتبت في مختلف مجلات العالم العربي وصحفه، فإن كتباً بكاملها قد صدرت ويتوالى صدورها عن رواية موسم الهجرة إلى الشمال.

اختار أن يخوض حربه هو الآخر على جبهة الرمزية الجنسية. وكانت تجليته الكبرى أنه استطاع - وهو في حضيض الخصاء بالمعنى التاريخي والحضاري للكلمة - أن يقلب المعادلة: فغزا البلاد التي غزت بلاده، وجاء غزاته في عقر دارهم غازياً، وخاض إلى منبهم المفتوحة وأفخاذ نسائهم المفتوحة أيضاً حرباً لا يتقن فيها إلا من كان مثله إلهاً بدوياً يقاتل «بالقوس والسيف والرمح والشباب» ويقلب «المدينة إلى امرأة عجيبة»، لها «رموز ونداءات غامضة»، فيضرب إليها «أكباد الإبل» وقد كاد يقتله «في طلابها للشوق». وكلما امتطى امرأة فكانما امتطى «صهوة نشيد عسكري بروسي». وكلما فتح مدينة ضرب فيها «خيمته» وغرس «وتده» وركز «رايته»، وبعد مبيت «ليلة أو ليلتين» يطلع الأوتاد ويسرج بعيره ليواصل «الرحلة إلى غاية أخرى» بدون أن ينطفئ لقواظله ظمأً، وبدون أن يهدأ لسرابه «في متاهة الشوق» لمعان. ويوماً بعد يوم «يزداد وتر القوس توتراً»، ولسان حاله يردد: «نعم يا سادتي، إني جئكم غازياً في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ»<sup>(1)</sup>.

## النكوص كإحياء للمركزية الأنوية

من المسلمات الأولى في علم النفس، وليس في التحليل النفسي وحده، أن الطفل، في الطور الذي يعقب ولادته مباشرة، لا يستطيع أن يميز العالم الخارجي بما هو كذلك، بالنظر إلى انعدام أي حدود يمكن أن تفصل بالنسبة إليه بين الأنا والآخر، وبالنظر إلى أن كل ما حوله هو بالنسبة إليه مجرد استئالة لجسده. وعندما يتأتى له في طور لاحق، وبفعل الخبرات الإحباطية المتكررة، أن يستشعر وجود واقع موضوعي مفارق لأناه وغير مطاوع على الدوام لنزواته الرغبية، فإنه لا يتقدم باتجاه الاعتراف بوجود العالم الخارجي إلا بقدر ما ينصب نفسه مركزاً لهذا العالم. وكما يلاحظ جان بياجيه، وهو من أعظم اختصاصيي العصر في علم نفس الطفل، فإن التقدم

1. انظر تحليلنا للرواية في: شرق وغرب، رجولة وثقافة، طه (دار الطليعة، بيروت 1997)، ص 142-185.

نحو الموضوعية لدى الطفل يمثل مساراً وثيقاً ومحققاً بالمشاق. ففكر الطفل في بداياته ليس فكراً ذاتياً فحسب، بل هو أيضاً فكر متمركز على الذات. ولا يتردد بيلاجيه في نحت تعبير «المركزية الأنوية العقلية EGOCENTRISME INTELLECTUEL» ليشير إلى تلك السمة من سمات التفكير الطفلي التي تنصوي تحت رايئها كل تلك الفترة من تطور الطفل ما بين الثالثة والثامنة، أي الفترة التي ينحو فيها إلى الانعتاق من نزعة الذاتية المفرطة لينفتح على العالم الخارجي وتأثيراته ولكن من خلال تصور دائري مركزي مغلق لا يتعلل وجود المحيط إلا بدالة نقطة المركز التي يشغلها الطفل نفسه<sup>(1)</sup>. فلا وجود لموجود إلا برسم هذا الأخير وضمن دائرة ما يحب وما يكره. فكل شيء يدور، ولا بد أن يدور، في فلكه. فكل طفل هو بالضرورة مؤسس لنظام شمسي، وهو في آن معاً ملك هذا النظام وشمسه<sup>(2)</sup>. وبما أن الأقوام البدائية هي على طريقتها، وبالنسبة إلى تاريخ السلالة البشرية، أقوم طفلية، فلا غرو أن تكون المركزية الأنوية سمة عقلية متواترة لديها. ومن المعايير الثابتة اليوم في علم النفس وفي التحليل النفسي لقياس رشد الطفل إدراكه، مع نضجه وتحوله المعرفي عن مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع، أن العالم ليس دائرة له، وأنه ليس مركزاً إلا لنفسه لا للعالم، وأنه في حال الأخذ بالتصور للدائري فلا محيد عن الإقرار بأن العالم متعدد الدوائر تعدد ما فيه من أفراد هم له نظراء وأنداد. وبما أن النكوص كعرض عصابي هو بالتعريف عودة قهرية ومحكومة بآلية لاشعورية نحو طور تم قطعه من النمو، فإن إحياء المركزية الأنوية في الخطاب العربي للمعاصر يمكن أن ينهض دليلاً إضافياً على عصابية هذا الخطاب. والواقع أن للتشبث بحبال المركزية الأنوية من قبيل الدفاع والتعويض النفسي كان بمثابة إغراء دائم للخطاب العربي الحديث منذ

1. انظر بوجه خاص مقال جان بيلاجيه المعنون «الفكر المركزي الأنوي والفكر المركزي الاجتماعي» والمنشور عام 1951. وتظر عرضاً لأراء بيلاجيه بهذا الصدد في كتاب: ج. دي أجورباغيرا، الوجيز في علم نفس الطفل المرضى Manuel de psychiatrie de l'enfant (منشورات ملسون، باريس 1971)، ص 31، 71، 74، 75، 84، 88 و 823.
2. لا ننس أن لويس الرابع عشر - وقد كانت له على عظمتها تصرفات طفلية - قد لقب نفسه بنفسه بالملك-الشمس.

عصر النهضة الذي كان في الوقت نفسه عصر الجرح النرجسي. ولكن لم يسبق قط لمنتجي هذا الخطاب، أي المتقنين العرب، أن مارسوا المركزية الأتوية على النحو المكثف الذي اندفعوا يمارسونها به منذ الرضعة الحزيرانية. ويكاد يكون من المتعذر على محلل الخطاب العربي المعاصر أن يرصد الأعراض/ الأشكال التي تتجلى بها هذه الممارسة. فهناك المركزية الخالصة، المطلقة، التي تكرر بلا هوادة أن المنطقة العربية هي «قلب العالم وملئى عدد من قاراته ومعبر طرقه ومواصلاته»<sup>(1)</sup>، وأنها «نقطة المركز في العالم»<sup>(2)</sup>، وأنها «في خضم مركز النشاط العالمي وتوازن القوى العالمية... وعقدة تحقيق السيادة العالمية لكل قوة تحمل مشروعاً لسيطرة عالمية»<sup>(3)</sup>. وبما أن الأمة العربية هي، على هذا الأساس المركزي المطلق، «أمة الأمم»<sup>(4)</sup>، فمن الحتم أن يكون «مقامها في العالم مقام الأمر والنهي لا التبعية والذيلية»<sup>(5)</sup>، وأن تكون «الحرب الفذة» التي تخوضها هي «حرب القدر والمصير» لا بالنسبة إليها وحدها بل بالنسبة إلى العالم قاطبة «لتكون أقنوماً أكبر لثورة عالمية عظمى تشمل الشرق والغرب على السواء، وتشرع للبشرية من جديد أبواب عصر إنساني أسمى يحل محل هذا العصر الشقي البائس»<sup>(6)</sup>.

وغالباً ما تتجدد هذه المركزية الأتوية العربية مع تصور مركزي يحتويها أو تحتويه في شكل هرم من الدوائر المتداخلة المتحدة المركز. وهكذا تقتزن المركزية العربية تارة بمركزية شرقية، وطوراً بمركزية إسلامية، وطوراً ثالثاً بكلتا الدائرتين الشرقية والإسلامية لتكون لهما بمثابة مركز داخل المركز. وربما كان أبرز دعاة المركزية الشرقية اليوم - كما يمكن أن يستدل من عنوان كتابه بالذات - هو مؤلف «رياح الشرق». فهذا المصمم «للاستراتيجية الحضارية الجديدة يبوئ الشرق «مركز القوة

1. عمارة، العرب والتحديث، ص 10.

2. شفيق، في: القومية العربية والإسلام، ص 674.

3. شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، ص 35-36.

4. العرفي، في: الشعوبية، ص 114.

5. الغنوشي، مقالات، ص 183.

6. العرفي، في: الشعوبية، ص 7.

العالمي الجديد» ويعمده، بالاستيهام الرغبي، «مركزاً جديداً للقوة والنفوذ والتأثير العالمي» يختلف عن «المركزين الآخرين»، الرأسمالي والاشتراكي، «اختلافاً جنياً تكوينياً»، وذلك من حيث أنه حامل لنمط حضاري جديد مابين، بأبعاده الفلسفية والفكرية والدينية، مبادئاً نوعية «للتراث الغربي التحليلي، الكمّي، العلماني، المادي». ويذهب أن الأمة العربية، التي «تقع في قلب المنطقة الحضارية الإسلامية الإفريقية الآسيوية»، مدعوة إلى احتلال «مكان الصدارة المركزية في تحرك شعوب الشرق» لترسم الطريق «لجميع القوى الأخرى» في «معركة المصير الحضاري» و«مستقبل الحضارة في العالم». وبحكم هذا الموقع للذي تحتله «أمتنا العربية» في نقطة مركز المركز، فإنها لا تستطيع أن تخوض معركة المصير الحضاري على قدم المساواة مع غيرها من أمم الشرق أو الغرب. فالقيادة أو الريادة لا بد أن تكون لها، إذ أن «غيرنا من الدولات يستطيع أن يكتفي بعلم هنا وهناك على سارية المنظمات الدولية، لكن أعلام القطاعات المتقدمة في العالم العربي، إن لم تترفرف في الصف الأول من التحرك الحضاري في عالمنا اليوم فهي كأنها لم تكن»<sup>(1)</sup>. أما ممارسو المركزية الإسلامية (وقد يكون من الضروري أن نفتح هنا قوسين لنشير إلى أن كفتهم باتت اليوم ترجح عددياً بكثير كفة دعاة المركزية الشرقية) فلا يتغنون هم أيضاً بدائرتهم الحضارية المبنية فرضياً على الأممية الدينية إلا ليؤكدوا من منطلق قومي، أو حتى شوقيني، على الدور القيادي للعرب باعتبارهم قلب المركز. هكذا لا يكاد منير شفيق يعلن عن تأسيس الإسلام في «محور مركزي» له نموذج الحضاري العالمي، حتى يؤكد إمكانية «الوصول إلى استنتاج آخر فوراً، وهو ضرورة تحديد موقع الأمة العربية في هذه العملية»، على اعتبار أن «العرب موقعاً مركزياً خاصاً في الإسلام وفيما بين الشعوب الإسلامية، وذلك بسبب الدور التاريخي للعرب في حمل رسالة الإسلام وبناء دولته»<sup>(2)</sup>. وفي الفقرة نفسها التي تتدد بمحاولات الغرب لاصطناع «التجزئة والانقسامات بين الشعوب الإسلامية» وتؤكد على

1. عبد الملك، روج الشرق، ص 259، و 105 و 156 و 159 على التوالي.

2. شفيق، في: القومية العربية والإسلام، ص 629.

«الأخوة الإسلامية» وعلى وحدة «الأمة الإسلامية الواحدة»، يدعو إلى تمييز العرب وتكريس دورهم للقيادي داخل الدائرة الإسلامية على اعتبار أن الأمة العربية «تشكل للحققة المركزية التي يمكن أن تمسك ببقية الحلقات وتجمعها إلى بعضها»<sup>(1)</sup>. وانطلاقاً من مقولة حسن البنا القائلة إن «العرب هم شعب الإسلام المميز» يصانر محمد عمارة بدوره على أن «الأمة العربية، المتميزة قومياً في المحيط الإسلامي، مدعوة ومرشحة لقيادة هذا المحيط»<sup>(2)</sup>. وهذه «الخصوصية العربية»، التي خص بها الإسلام العرب و«اصطفاهم لها شارع هذا الدين» ليكونوا «طلبة لهذا الدين على نطاقه العالمي» وليكون لهم في «عالمية الإسلام» مكان «للطليعة والقيادة»، هذه الخصوصية لا تعود إلى «عروبة القرآن» و«عروبة النبي»، ولا إلى «نهوض العرب بدور الكتيبة الأولى المتقدمة في جيش دعوته»<sup>(3)</sup> فحسب، بل كذلك إلى عجز ماهوي في الشعوب الشرقية والإسلامية الأخرى التي ما تصدت يوماً لقيادة الشرق «في صراعه التاريخي ضد الغرب» إلا وأخفقت فيه، سواء أقبل الإسلام أم بعده، وسواء أتولى هذه للقيادة الفرس الساسانيون أم الأتراك العثمانيون. والحال أنه «كما دعت الضرورات العرب، بالأمس البعيد، إلى قيادة المنطقة، بعد أن عجز للفرس الساسانيون عن قيادتها، كذلك تدعو الضرورات العرب اليوم إلى قيادة عالم الإسلام، في المواجهة مع الغرب الاستعماري، بعد أن عجز عن ذلك الأتراك العثمانيون»<sup>(4)</sup>. وفي محاولة هشام جعيط تبرير «امتياز الرقعة العربية» على سائر الرقع الإسلامية الأخرى، وبالتالي حق الرقعة العربية في استرجاع «محطها المركزي القديم في العالم الإسلامي» لتعود «من جديد مركز العالم الإسلامي بعد قرون من الانحسار والتبعية»، لا يتردد في التشكيك في إسلام الشعوب الإسلامية غير العربية، ومنها الشعب التركي، هذا الشعب الذي «يظهر بمظهر الطارئ على الإسلام المار به في مسيرته التاريخية دون ارتباط

1. المصدر نفسه، ص 638.

2. عمارة، في: القومية العربية والإسلام، ص 175.

3. عمارة، في: العروبة والإسلام، علاقة جلية، ص 27.

4. عمارة، في: القومية العربية والإسلام، ص 155.

جذري بمقوماته الأساسية. وأقول هذا بالرغم من اعتباري الكبير للدور التاريخي الذي لعبته السلطنة العثمانية عسكرياً وحضارياً في بونقة الإسلام المتأخر. لكن فقدان الحس اللغوي والحس الثقافي وضعف الارتباط بتراث الفكر الإسلامي وضعف الاستناد إلى عالم وجداني عقلائي يغذي الشعور الديني ويقوي الانتماء بممارسة يومية مع القرآن والحديث وكتب الفقه والكلام والفلسفة والتاريخ وكل مكونات الثقافة العميقة، التي هي أساساً حافظة جماعية، هذا النقص الأساسي قد سهّل، على رأيي، إلى حد بعيد عملية نفخ الأيدي من مصير الإسلام وتركيز الأناثية القومية الطورانية والانفصال عن بقية العالم الإسلامي. بل إن مشروع أتاتورك لا يزيد عن كونه مسخاً تاماً للشخصية وإعادة لتركيبها. فنفس السهولة البالغة التي جعلت الشعب التركي يتأسلم دون معارضة من طرف تقليد ديني ثقافي سابق جعلته يتقبل بنفس السهولة تقريباً العملية المعاكسة<sup>(1)</sup>.

وتقدم لنا كتابات أنور الجندي، ذات الصيغة السلفية التقليدية، مثلاً على مركزية مركبة أو مترابطة هرمياً إن جاز التعبير. فإن يكن مركز الدائرة الإسلامية هو العالم العربي، فإن العالم العربي هو بدوره دائرة للمركز الذي تتمثله مصر فيه. فالجندي يعقد البيعة، من جهة أولى، للعالم العربي كي يتولى إمرة العالم الإسلامي: «ما يزال العالم العربي هو قلب العالم الإسلامي، مقر العقيدة ومركز الأماكن المقدسة والأزهر، وما زال العرب

1. جعيط، في: القومية العربية والإسلام، ص124-125. وسوف نرى في الجزء الثاني - ازدواجية العقل - أن حسن حنفي سيتهم هو الآخر «الإيرانيين المعاصرين» بأنهم «معروفون بشعوبيتهم وباعتزازهم بالقومية الإيرانية أكثر من اعتزازهم بالإسلام كدين وحضارة» (دراسات إسلامية، ص229). وقد لاحظ عزمي رجب، في رد مقتضب له على هشام جعيط وعلى منطق للمشككين في إسلام الشعوب الإسلامية غير العربية، بقوله: «لي تطبق موجز بالنسبة إلى كلمة وردت في تعقيب الدكتور هشام جعيط حول بعض الشعوب الإسلامية غير العربية ومدى شعورها الديني. فهمت أن غياب اللغة العربية عن هذه الدول الإسلامية غير العربية قد أضعف من إسلامها، وأنا اعتقد بأن غالبية هذه الشعوب الإسلامية غير العربية تتمسك بالدين الإسلامي وتحافظ على مشاعرها وشعائرها الدينية أكثر من عدد من الشعوب العربية التي تدنن بالإسلام» (التراث وتحديات العصر، ص136-137).

يمثلون للقيادة الفكرية والروحية على مذهب الجماعة والسنة<sup>(1)</sup>. ولكنه يعتقد الببعة أيضاً، من جهة ثانية، لمصر كي تتولى إمرة العالم العربي: «كانت مصر يوماً قلب الأمة العربية... ومركز القيادة من الأمة العربية... ومنار العالم الإسلامي كله»<sup>(2)</sup>.

وهكذا تبرز لدينا، بالإضافة إلى المركزية الأممية الإسلامية، والمركزية الإقليمية الشرقية، والمركزية القومية العربية، مركزية قطرية مصرية وظبفتها، كما في كل نظام مركزي متعدد الدوائر، أن تكون النقطة المركزية التي تتحد عندها الدوائر كلها<sup>(3)</sup>.

على أن العينات التي نتعاطى معها من الخطاب العربي المعاصر تقدم لنا، بالإضافة إلى ذلك كله، ضرباً من للمركزية له وجهه من الغرابة ولكنه أكثر انصافاً مع ذلك بالزعة الواقعية، ولا نجد ما يمكن أن نسميه به سوى المركزية السلبية. فجميع الضروب التي تحدثنا عنها حتى الآن من المركزية لا تعدو أن تكون استبهامات رغبية تعويضية لا تعكس واقع الأشياء بقدر ما تعكس واقع النفس التي تعيد، من موقع انجراحها، ترتيب جغرافية العالم على نحو ما تتمنى وتهوى أن يكون. ولكن بما أن واقع التهميش هو، في الواقع، المولد الحقيقي للحلم المركزي، فإنه يحول بدوره، ومن حيث هو واقع مهمش، إلى ركيزة سلبية للإسقاطات المركزية وفق الآلية التالية: صحيح أننا لم نعد إلا هامشاً، وصحيح أن المركزية في واقع العالم المعاصر حكر لمن قضى علينا بالتهميش، ولكننا في تهميشنا بالذات نشبت مركزيتنا لأن هذا التهميش قد اقتضى، حتى يصير حقيقة واقعة، أن تتآمر وتتحالف ضدنا، على نحو لم يسبق له مثيل في التاريخ، جميع القوى التي بانئت تحتكر اليوم، بفضل تكاليفها علينا، مبدأ الفاعلية المركزية. وبعبارة أخرى، إن التركيز في العنوان علينا هو خير دليل على أننا في

1. للجندي، العلم الإسلامي، ص14.

2. للمصدر نفسه، ص213 و400.

3. سوف نرى في الجزء الثاني أن كتابات حسن حنفي تقدم لنا هي الأخرى مثلاً على مركزية متعددة الدوائر، إسلامية وشرقية وعربية ومصرية، ولكن نقطة اتحادها المركزي تتمثل هذه المرة بشخص الككتب نفسه.



## نقطة المركز من العالم:

«لو قدر على أمة من الأمم الحية العظمى، عريقة كانت لم محدثة، أن تبثلي بمثل ما ابتليت به أمتنا العربية، فتكون هدفاً جماعياً مشتركاً لثلاث قوى كونية كبرى غاشمة، الشعوبية الأممية واليهودية الدولية والاستعمار العالمي، تعمل فيها من الداخل والخارج تمزيقاً وتفتيتاً، وإفساداً وتخريباً، وهدماً وتدميراً، فماذا ترى سيكون مآلها الحتمي المنتظر؟ أما وأن الأمة العربية استطاعت، بالقوة والفعل، أن تجابه ذاتياً كل هذه القوى مجتمعة ومتحدة، فإن ذلك يعني حقاً أنها أمة حية عظمى مخدة»<sup>(1)</sup>.

ويذهب داعية المركزية الإسلامية نفس مذهب داعية المركزية العربية:

«من عجب أن الاستعمار حين زحف بنفوذه السياسي والثقافي والعسكري إلى العالم الإسلامي لم يضغط بشدة ولم يركز تركيزاً عنيفاً على أمة بقدر ما ركز على الأمة العربية بحسبان أنها حاملة المشعل وقائدة الحركة التجديدية الإسلامية»<sup>(2)</sup>.

ومما يزيد في تركيز هذا التركيز المعادي للأمة العربية معاداة كلية، أزيدة، مطلقة، أنه يوجد في مواجهتها المعسكرين العالميين اللذين لا يجمع بينهما في جميع الحالات الأخرى سوى التناقض والعداء:

«لكن على يقين أن غرض الغرب الإمبريالي المغلف بالديمقراطية لا يختلف إلا بالصيغة والأسلوب عن غاية الشرق الإيديولوجية المغلفة بالاشتراكية العلمية»<sup>(3)</sup>.

وهذا هو الوتر عينه الذي يعزف عليه رائد المملوغة اليمارية:

«مازال العالم الإسلامي ولقاً بين المطرقة والسندان، بين الاستعمار الغربي والهيمنة الشرقية، وكأنه طائر مقصوص الجناحين... وإن كنا قد نشغلنا كثيراً بجناحنا الغربي في مواجهتها الحديثة ضد الاستعمار، فإننا قد نسينا

1. العرفي، في الشعوبية، ص113.

2. الجندي، العالم الإسلامي، ص25.

3. الصالح، في: التراث وتحديات العصر، ص815.

جناحنا الشرقي مع أن به أكثر من ستمائة مليون مسلم... فكل القوى الكبرى تجاه المسلمين سواء<sup>(1)</sup>.

بيد أن هذاء العظمة الكامن في أساس منطق المركزية السلبية<sup>(2)</sup> يبلغ واحدة من أعلى ذراه لدى داعية المركزية الحضارية الشرقية:

«إن الاستعمار والإمبريالية لم يركزا هجومهما على شعب من الشعوب كما ركزاه، لقرون متتالية، على العرب... ولم تشهد أية منطقة في العالم كله مثل هذا التركيز في العنوان عبر التاريخ... والواقع والتاريخ يؤكدان أن المنطقة المعروفة الآن في الغرب بالشرق الأوسط - شرق الأمة العربية وكذا جنوب شرق آسيا - كانت منذ أكثر من خمسين قرناً منطقة الصراع المصيري الرئيسي بين دول الشرق وحضاراته من ناحية، والغزاة الآتين من الشمال من ناحية أخرى... وكانت وجهة الغرب الحضارية وحروبها وغزواته وأهدافه السياسية والدينية والإيديولوجية والفكرية والاقتصادية كلها تهدف إلى شيء واحد، ألا هو تحطيم كافة المحاولات الهادفة إلى إنشاء دولة عربية في قلب الحضارة الشرقية الإسلامية... إن الواقع والتاريخ يؤكدان... إصرار الغرب كله - من الصليبيات إلى الإمبريالية والصهيونية، من مملكة القدس إلى دولة العنصرية الصهيونية - على تقويض أركان القوة الشرقية بقيادة العرب في منطقة البحر الأبيض وشمال أفريقيا وغرب آسيا. وهذه للسياسة معناها بشكل واضح ودقيق أن رسالة الغرب الحضارية تكمن في منع قيام دولة شرقية عصرية في هذه المنطقة: دولة الأمة العربية المتحدة. وهي الرسالة التي تقتضي في المقام الأول، وبشكل متصل دون هوادة، أن يعمل الغرب على حصار وعزل مصر، بوصفها المركز الطبيعي للأمة العربية، وحصارها واستنزاف قواها<sup>(3)</sup>، في نفس الوقت الذي يثير فيه الخلافات الإقليمية والانقلابات والأزمات في كل أرجاء الأمة

1. حنفي، في: اليسار الإسلامي، ص 158 و 184.

2. لا ننس أن كل هذاء عظمة هو في الأصل هذاء لضهاد انقلب إلى عكسه.

3. هنا نلاحظ أن داعية الإستراتيجية الحضارية للشرقية يصدر هو الآخر عن تصور هرمي متعدد الدوائر ومتردد المركز في مصر، أي دوماً - وبما للمصادفة - في القطر الذي ينتمي إليه الكاتب.

العربية... ولكن المدركين لمعالم التاريخ المقارن عبر مسيرته الطويلة يعلمون تماماً أن الضرب المكثف الموجه اليوم إلى أمتنا العربية، وكماشات الحصار المضروبة حولها، وأعمال التمزيق والتفرقة المتصاعدة باستمرار، لا تمثل حقيقة موقف القوي من الضعيف، ولكنها على العكس تماماً تمثل موقف قوي الأمس بالنسبة لقوي الغد. فلا يُضرب ولا يُحاصر إلا ذلك الذي يتحرك، ولا يُمزق إلا ذلك الذي ينحو إلى الوحدة والجبروت»<sup>(1)</sup>.

والطريف أنه ضدّاً على هذه القراءة الهذائية للتاريخ، التي تضع الذات في نقطة المركز منه من الأزل إلى الأبد (أو على الأقل منذ أكثر من خمسين قرناً!) وتجعل منها المحور الذي يدور عليه الوجود التأمري للآخرين الذين يُحرمون على هذا النحو من أية قومية ذاتية (فحتى رسالتهم الحضارية هي منع الذات من أداء رسالتها الحضارية!)، لا يندر أن نقع في الخطاب العربي المعاصر على عينات تنطلق من المركزية السلبية لإياها ولكن لتؤكد العكس تماماً، أي لتشتكي من قلة حضور تلك الذات - لا من فرط حضورها - في وعي الآخرين، ولتباغت الغرب «في وضعية اللامبالاة» بنا، ولتعي هامشية «تموقعنا في المنظور الغربي للعالم» وضالة «الوظيفة التي نقوم بها في وعيهم»، وبكلمة واحدة، لتحتج على أننا لسنا أعداء بما فيه الكفاية حتى في نظر ذلك الآخر الذي ندعي أنه لا وجود له ولا قوام إلا بقدر ما يناسبنا العداء، أي الغرب. هكذا يكتب عبد الله ساعف، في مقال له بعنوان «رؤية الغرب لناصر والناصرية»، يقول: «أما بالنسبة لنا نحن العرب، فإن مثال الناصرية المحال هنا [الذي لم يحظ بالنسبة إلى الإنتلجانشيا الغربية بالجانزية التي حظيت بها صين الثورة الثقافية مثلاً] يشهد على أنه ليس لنا حتى امتياز الاعتراف بنا كخصوم أو كأعداء بالنسبة إلى أوروبا... فنحن لم نصل بعد إلى هذه المرحلة، نحن نجسد ذلك الضعف التاريخي، ولا نعد بشيء ولا يَتَّبَعُ لنا بمستقبل. نحن ذلك اللانموذج، وليس لنا الحق في أن نعترف بنا، ولا نستحق في الظروف الراهنة أن نكون موضوع معرفة حقة... هكذا يرانا الغرب»<sup>(2)</sup>.

1. عبد الملك، ربح الشرق، ص 17، 24، 79، 80 و 206.

2. عبد الله ساعف، «رؤية الغرب لناصر والناصرية»، في: مجلة الوحدة، السنة الثانية، العدد 16 (كانون الثاني-يناير 1986)، ص 89.

لكن هل نستطيع أن نطوي صفحة هذه المركزية السلبية التي تقوم، مهما تعددت تعابيرها وصياغاتها، على مبدأ إثبات وجود الذات بغيابها، بدون أن نشير إلى ضرب متميز - ومتواتر - منها قد تجوز لنا تسميته بالمركزية السلبية المعرفية، ونجد نموذج له الرائد المفترض للعقلانية المعتلة في تصديه لقراءة «التاريخ الثقافي العالمي» قراءة تعدمه قواميته الذاتية وتجعل غائيته الوحيدة - تماماً كما يفعل مؤلف «رياح الشرق» - تغييب الذات العربية و«غبين العربي»:

«وأخيراً، وليس آخراً، لا بد من ملاحظة ما يسود العلاقة بين تاريخنا الثقافي والتاريخ الثقافي العالمي من اضطراب ولقطاع، وذلك على حساب تاريخنا، على حساب دوره ومكانته في التاريخ العالمي. لقد بُني التاريخ الثقافي الأوروبي على الاستقلال الذاتي، فهو يبدأ من أينما لينتقل إلى روما ثم إلى فلورنسا ومنها إلى أوروبا الحديثة. والعملية قائمة كلها على غبن العرب، على الاستغناء عن تاريخهم الثقافي، على إقصاء تعسفي لدور الثقافة العربية الأساسي في التاريخ الثقافي العالمي»<sup>(1)</sup>.

## النكوص كعودة للمكبوتات الطفلية

إن للمركزية الأنوية، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، لا تختصر وحدها كل السلوك الطفلي، ولا كل المخزون في اللاشعور من مخلفات أطوار الطفولة التي تم قطعها. بل إن المركزية الأنوية، على ما تمثله في سن الرشد من علامة على نكوص طفلي من طبيعة عصابية أو ذهانية، تمثل بحد ذاتها طوراً متقدماً من أطوار النمو الطفلي إذا ما قيست إلى النزعة الأنوية الكلية LE MOI - TOUT التي تكون سائدة في الطور الأول من الطفولة في السننتين الأوليين من الحياة. فاعتبار الذات مركز العالم يعني، بعد كل شيء، الاعتراف بوجود العالم. والحال أن الطفل في الطور الأول من الطفولة لا يعرف وجوداً لغير الأنا ولا يرى في موضوعات العالم المحيط سوى

1. الجابري، تكوين العقل العربي، ص 47-48. وقد كرر الجابري هذا الكلام حرفياً أمام ندوة «التراث وتحديث العصر». انظر: التراث وتحديث العصر، ص 51.

امتدادات لهذا الأنا: امتدادات جسدية إن جاز التعبير. بقول جبرار ماندل: «إن مفهوم الآخر، الغير من حيث هو مستقل وله غاياته الخاصة، لا يكون له من وجود بعد بالنسبة إلى الأنا الطفلي»<sup>(1)</sup>. والحال أن الخطاب العربي المعاصر، من حيث هو خطاب نكوص، يقدم لنا عينات من موقف طفلي يعتبر أن الآخرين هم فعلاً الجحيم، وأن محض وجودهم - وكم بالأولي الاعتراف بهذا الوجود وبضرورته - هو بحد ذاته جرح نرجسي أشد إيلاماً من أن يحتل. فصاحب مشروع «نقد العقل العربي» ما يفناً يعلن ويكرر الإعلان أن «غياب الآخر شرط لنهضتنا»، وأن «غياب الآخر هو فعلاً شرط في نهضة العرب»، وأن «غياب الآخر» شرط ضروري - وإن ليس كافياً - «لحضور الأنا العربي»<sup>(2)</sup>. وهو يحور مفهوم غرامشي عن «الاستقلال التاريخي» ويزيحه عن موقعه في الجدلية الاجتماعية ليوظفه باتجاه القطيعة الحضارية مع «الآخر» الذي هو بطبيعة الحال «الغرب» من خلال الإعلان عن أن «المهمة الأولى والأساسية المطروحة على الساحة العربية الراهنة هي تحقيق الاستقلال التاريخي التام للذات العربية»<sup>(3)</sup>. وهكذا، وبدل أن يكون الآخر عامل إغناء وتكامل وتفاعل متبادل، يضحى عامل إفقار للأنا وتجريد له من ملكه، بل من كينونته، كما تضحى المهمة المطروحة على هذا الأنا هي التأسيس السلبي لهويته عن طريق نفي

1. جبرار ماندل، نزاعاً لاستعمار الطفل Pour décoloniser l'enfant (منشورات مكتبة بايو الصغير، باريس 1971)، ص 165.

2. الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص 32، 55، 190.

3. على العكس من تأويل الجابري هذا، سنلاحظ أنه إن يكن غرامشي تحدث فعلاً عن ضرورة إحلال «الحضارة الاشتراكية» محل «الحضارة الرأسمالية»، فإنه لم يتأول هذا الإحلال آلياً على أنه قطيعة، بل جنباً على أنه استمرار وتجاوز. ومن ثم فإن «حضور الآخر»، لا غيبه، هو عنده شرط حضور الأنا وتمييزه وصيرورته - على حد تعبير نوافيس - «أنا أنه». هكذا يقول غرامشي: «إن يكون المرء سيد ذاته، أن يتمايز، أن يخرج من السديم... فهذا معناه أن يعرف أيضاً الآخرين، تاريخهم، تواتر الجهود التي بذلها ليكونوا ما هم عليه، ليخلقوا الحضارة التي خلقوها، والتي تريد أن تحل محلها حضارتنا... بدون أن يغيب عن نظرنا أن الهدف الأخير هو الوصول إلى معرفة أفضل بالذات من خلال الآخرين، وإلى معرفة أفضل بالآخرين من خلال الذات». انظر مقاله «الاشتراكية والثقافة»، في: أنطونيو غرامشي، كتابات سياسية، الجزء الأول 1914-1920، الترجمة الفرنسية (منشورات غليمار، باريس 1974).

الآخر/الخصم. وإذا كان ممثل للعقلانية المعتكلة يكتفي بهذا الصدد بأن يعلن: «أنا لا أنزعج لشيء أكثر من انزعاجي من... أن أشرب وأكل بمعرفتي ليست لي»<sup>(1)</sup>، فإن غيره من دعاة «الاستقلال التاريخي التام للذات العربية»، يرفع مبدأ القطيعة الحضارية مع الغرب إلى درجة الأمر المطلق. هكذا يعلن عادل حسين مثلاً: «أنا إنسان متعصب ولا أريد أن أصبح غربياً»<sup>(2)</sup>. كما يغلو جلال أحمد أمين في هذه النزعة التطهيرية الحضارية إلى حد إعلان يأسه من الجيل الحاضر لأن هذا الجيل، مهما طلب الاغتنال والتطهر، فسيبقى يحمل «تركة ثقيلة من التغريب والخضوع»، وإلى حد تعليق أمله، كل أمله، على الجيل القادم أو بعد القادم، لأن جيل الأحفاد هو وحده الذي يمكن أن يقيض له أن ينجو نجاة تامة من تلويث الحضارة الغربية وأن يجدد اتصاله بالتراث في طهارة مطلقة دونما افتتان «بأي شيء من منتجات الحضارة الغربية» ودونما خضوع «لأي مسخ أو تشويه جديد»<sup>(3)</sup>. وهذه النزعة التطهيرية-التطهيرية الحضارية لا يشفي غليلها أن تتعقب فقط كل أثر «للتغريب» في العصر الحاضر لتمحوه حالاً، بل ترتد أيضاً على أعقابها نحو الماضي البعيد لتتحرى عن «رواسب الحضارات القديمة في التراث» لتصفية منها وتعيد إليه طهره ناصعاً. هكذا وقف د. علي عيسى عثمان في «ندوة التراث وتحديات العصر» يطالب بتصفية تلك «الرواسب» في إطار «عملية ضخمة» تهدف إلى تحرير «الحضارة العربية الإسلامية» لا من «آثار الاستعمار الغربي الحديث» فحسب، بل كذلك من «آثار الحضارات القديمة التي سبقت الإسلام» والتي كان لها فعلها السلبي في «تشكيل عقول وقيم للمسلمين» وفي حرف «تراث المسلمين» وتلويث نقائه إلى حد بات يعتذر معه اعتباره «مرآة صادقة للإسلام». ويخلص من ذلك كله إلى القول: بما «أن تراث المسلمين في مجمله كان مزيجاً من الإسلام القرآني والمبني من جهة، ومما كان ترسخ في بيئة المسلمين من قيم

1. من مقابلة مع محمد عابد الجابري في مجلة الوحدة، السنة الثالثة، العدد 26-27 (تشرين

الثاني-نوفمبر - كانون الأول- ديسمبر 1986)، ص142.

2. في: للعروبة والإسلام علاقة جدلية، ص105.

3. انظر مدخلته عن «التراث والتنمية العربية»، في: التراث وتحديات العصر، ولاسيما

ص773.

ومن أنظمة سياسية وغيرها استمرت فيهم وفي بيئتهم بعد الإسلام، من جهة أخرى، فرأينا أن المسلمين سوف لا يتحررون من ذلك التراث إلا بتحرير نظام الدين الموجود في القرآن مما فعلته رواسب الحضارات القديمة في تراث المسلمين الذي لم يكن وليداً خالصاً، ولا كان مرآة صادقة للإسلام الموجود في القرآن<sup>(1)</sup>. وكما لنا أن نتوقع فإن أول المطلوب تصفيته من «رواسب الحضارات القديمة هذه» آثار «الغزو الثقافي اليوناني» المؤول في اللاشعور الجمعي العربي على أنه مقدمة وتجربة أولى لعملية الخضاء الجماعي التي مارسها - وما زال - «الجزّاح الغربي» في العصر الحديث. هكذا نجد من يعلن اليوم أن «ترجمة الفلسفة اليونانية، التي وصلت إلى قمة الجهاز السياسي في عهد المأمون، كانت أحد عوامل الهزيمة الثقافية، بل الهزيمة العسكرية... عبر الغزو التاريخي والغزو الصليبي»<sup>(2)</sup>. وعلى هذا النحو أيضاً يتبرأ ممثل السلفية التقليدية ممن «يطلق عليهم فلاسفة الإسلام» (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) لأن هؤلاء الفلاسفة ليسوا «إلا امتداداً فكرياً للمدرسة اليونانية للفلسفة، وكانوا دوائر منفصلة عن تيار الفكر الإسلامي الأصيل، لفظهم المجتمع الإسلامي وأعلن أنهم لا يمثلونه في شيء، وأن الفلسفة الإسلامية الحقيقية إنما تتمثل في كتابات علماء أصول الدين (المتكلمين) وعلماء أصول الفقه (الأصوليين)، وأن الفكر الإسلامي عامة لم يقبل للمنطق اليوناني على الإطلاق، وكان له منهجه الخاص في العلوم العقلية واللغوية... وقد تأكد في ظل التحقيق العلمي لدور المسلمين في الحضارة والفكر الإنساني أنهم لم يكونوا عالة على اليونان، ولم يكن فكرهم الفلسفي موصول الوشائج بالفكر اليوناني، ولم يكن المسلمون أبداً

1. انظر مداخلته في ندوة: التراث وتحديات العصر، ص 177-182.

2. د. راجح الكردي في: ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر (لبحرين 22-25/2/1985)، منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض 1987، ص 156-157. وإلى مثل هذا الرأي يذهب د. عبد الحميد أبو سليمان حينما قال في الندوة نفسها: «الواقع أن دخول الفكر اليوناني إلى الفكر الإسلامي أدى إلى مرض خطير، بدأ بلزّمة المعتزلة وأدى إلى انفصام القيادتين السياسية والفكرية للأمة الإسلامية، وإلى تدهورها... ولا يمكن أن يقال إن تلك الترجمة أفادت الأمة... فمنذ عهد المأمون بدأ الانهيار وانتهى الأمر بالهزيمة» (المصدر نفسه، ص 159).

صورة من صور اليونان حقيقة أو مشوهة. بل كان لهم الكيان المستقل والينبوع الذي تجر منه النور المشرق الذي سطع في أوروبا عبر أسبانيا وصقلية، هذا النور العظيم الذي انبعث أساساً من الأصل الإلهي العظيم (القرآن) على يد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله<sup>(1)</sup>.

وكما تقتضي دواعي كلية القدرة النرجسية، التي هي على الدوام تخيل طفلي، وكما يمكن أن نتبين من الشاهد الأخير، فإن النزعة الأنثوية الكلية لا يكفيها أن تتكرر أي دين عليها للآخرين، بل يدفع بها النهم إلى تعقل وجود الغير على أنه محض مديونية. فالأنا للطفلي بقدر ما لا يطيب له أن يدين بشيء لأحد، يطيب له أن يدين له الآخرون بكل شيء. فهو يؤسس ذاته في امتلاك مطلق، ويؤسس الغير في افتقار مطلق. وليس عسيراً علينا أن ندرك ما يمكن أن تتمخض عنه هذه النزعة الأنثوية الكلية في حال ترجمتها إلى فلسفة في الحضارة وحوار الثقافات. فالخطاب العربي المعاصر يقدم لنا عينات لا يمكن أن تقع تحت حصر عن نهم الأنا العربي، في تحرقه إلى تضييد جرحه النرجسي، إلى تنصيب نفسه في وضع الدائنية الحضارية المطلقة، وإلى تنصيب الآخر - وهو دوماً الغرب، مصدر الجرح - في وضع المديونية. وبما أنه ستكون لنا عودة مطولة إلى هذا الوضع من خلال تحليلنا «للحالة» التي يقدمها لنا فكر ممثل السلفية اليسارية حسن حنفي، فسندكتفي هنا بشواهد ثلاثة نعتقد أنها تمثيلية بما فيه الكفاية. يتساءل د. رشدي فكار: «لو أن للحضارة العربية الإسلامية لم يكن لها وجود، أكان وجود لهذه الحضارة الغربية التي يعيشها الغرب وتتبعه بها؟ والإجابة - لحسن الحظ - التي يتفق عليها الجميع، باستثناء الرؤوس المنفعلة والمتطرفة والمتعصبة ذات للعصبية الفكرية، أنه لولا الحضارة العربية الإسلامية لما كانت الحضارة الغربية المعاصرة... فلم ينقذ عقل الإنسان الأوروبي المصادرات إلا الحضارة العربية الإسلامية حين أشرقت شمسها عليه. ولولا التأثير بتعاليم العلامة العربي ابن رشد من بين التأثيرات الأخرى لما كانت العقلنة الغربية... فالحضارة العربية الإسلامية كانت أساساً بَيِّناً من بين

1. الجندي، الثقافة العربية، إسلامية أصولها واقتسامها، ص 326-327.



أسس الحضارة الغربية المعاصرة التي من الصعب أن تُعزل جذورها عن الإسلام. فهناك علاقة عضوية بينهما، اللهم إلا إذا تكرر الابن لأبيه، وعندئذ تغدو حضارة لقيطة<sup>(1)</sup>. وبدوره لا يؤكد أنور الجندي على واقعة التعدد الحضاري في التاريخ إلا تنبيهاً لما تكين به الحضارات الأخرى، وعلى رأسها الحضارة الغربية، للحضارة الإسلامية دونما أي اعتراف بالمقابل لما تكين به الحضارة العربية الإسلامية للحضارات الأخرى، ولا سيما منها اليونانية قديماً والغربية حديثاً. وهكذا، وعلى حين أن واحدة من «الحقائق الواضحة التي كشفت عنها الثقافة العربية أنها لا تنمو إلا من خلال جذورها وباستيعاء قيمها»، وعلى حين أن «الحضارة الإسلامية تنقسم بالإبداع والذاتية التي أقامت لها طابعاً مميزاً ومنهجاً خاصاً»، مما ضمن لها «الأصالة العميقة الجذور» وأتاح لها أن تكون في ذاتها «نسيجاً تام الصنع»<sup>(2)</sup>، فإن الحضارة الغربية بالمقابل لم تستمد مقومات نمائها إلا من غيرها، فهي ليست «غربية» إلا بالتسمية، أما في الحقيقة فهي «ملك للبشرية وليس للغرب وحده» لأنها في الأساس والجوهر «ثمره جميع الحضارات التي سبقتها، وأبرزها اليونانية والمسيحية والعربية الإسلامية»<sup>(3)</sup>. ومديونيتها هذه للحضارات الأخرى، ولا سيما منها الأخيرة، تكاد تكون مطلقة: «إذا قال اندريه سبغريد إن حضارة الغرب تتميز بقدرتها على الاختراع في علم الآلة، فإن مصدر هذا مستمد من الحضارة الإسلامية التي ابتدعت النهج العلمي التجريبي»<sup>(4)</sup>. وهذا البند الأخير من مديونية الحضارة الغربية للحضارة العربية الإسلامية يحظى من ممثل السلفية التقليدية بتركيز لاقت للنظر: فهو لا يفتأ يكرر بصور وأشكال شتى أن «الإسلام يتميز في موقفه من الحضارة والنهضة بأنه منشئ المنهج العلمي التجريبي الذي بنت عليه أوروبا الحضارة»<sup>(5)</sup>، وأن «الحضارة الغربية الحديثة... مدينة في

1. في: الإسلام والمستقبل، جماعة من المؤلفين (منشورات اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر

القمّة الإسلامي الخامس، الكويت 1987)، ص 271-273.

2. الجندي، الثقافة العربية، ص 228 و 255-256.

3. المصدر نفسه، ص 250.

4. المصدر نفسه، ص 253.

5. الجندي، العالم الإسلامي، ص 13.

جذورها وأصولها للمنهج العلمي التجريبي الإسلامي<sup>(1)</sup>. ذلك أنها، وإن تكن «استمدت مقوم نمائها من التراث اليوناني، فإن هذا التراث اليوناني» نفسه لم يمارس دوره إلا بعد أن «حرره الفكر الإسلامي وأضاف إليه المنهج العلمي التجريبي الذي هو ثمرة الفكر الإسلامي»<sup>(2)</sup>. ولا يعسر علينا أن ندرك أن هذا التركيز من جانب ممثل السلفية التقليدية على بند «المنهج العلمي التجريبي» في المديونية الغربية للحضارة العربية الإسلامية إنما يصيب ثلاثة عصفير بحجر واحد:

1. تأكيد الطابع المطلق، أو على الأقل الماهوي، لهذه المديونية. فما دام أهم ما تتميز به الحضارة الغربية هو «قدرتها على الاختراع في عالم الآلة»، فإن إثبات استدانتها «للمنهج العلمي التجريبي» يعني تجريدها (أنقول: خصاءها؟) من مفرتها الأولى ودمغها بالنقص والسلبية واللاهوية على اعتبار أنها تدين بأهم ما يميزها لغيرها.

2. تضميد الجرح للرجسي: فما دامت الحضارة الغربية قد استعارت «المنهج العلمي التجريبي» من الحضارة العربية الإسلامية، فهذا معناه أن هذه الأخيرة هي المالكة الأصلية والفعلية لهذه الاستطالة «الفالوسية»، ولا مبرر بالتالي لأن تعاني ما تعانيه الآن من عقدة نقص وعدم ملك تجاه الحضارة الغربية وتجاه قدرتها - المؤولة بالضرورة في اللاشعور على أنها من طبيعة فالوسية - «على الاختراع في عالم الآلة».

3. إذا كانت الحضارة الغربية لم تستعر من الحضارة العربية الإسلامية سوى «المنهج العلمي التجريبي» وحده فهذا لأنها بأصلها وطبيعتها «مادية» وما كان لها، بحكم ماهيتها بالذات، أن تستعير منها سوى هذا الجانب المادي، القابل أصلاً للتبخيص باعتباره مبدأ مؤنثاً، دون الجانب الروحي، القابل على العكس للمغالاة في التقييم باعتباره مبدأً مذكراً. وهذا ما يفصح عنه ممثل السلفية التقليدية بوضوح حين يقول: «المعروف أن الفكر الغربي لم يعرف طريق القوة إلا بعد أن تحرر من

1. نفسه، ص 243-244.

2. الموضوع نفسه.

قيود الوثنية وامتنع مفاهيم الفكر الإسلامي، وهي قيم الحرية والعدل والقوة التي أخرجته من الأديرة والرهبانية والانعزال عن الحياة. لقد كانت تعاليم الفكر الإسلامي هي العامل الحيوي الذي جعل الفكر الغربي ينفذ عن نفسه قيود الجهل. فلما نجحت الثقافة الغربية في بناء فكرها العلمي على أساس للمنهج العلمي التجريبي الإسلامي وأقامت حضارتها عادت، تحت ضغط قوى مؤثرة، هدفها للسيطرة عليه وتدميره، فأرادت العودة إلى التماس قيم اليونان والإغريقية والوثنية المادية، والتماس طبيعتها القديمة التي لم يكن الدين جزءاً من تكوينها، وعادت حينئذٍ إلى التحرر الكامل من قيم الدين والأخلاق<sup>(1)</sup>

ولكن مهما يكن من شأن هذه النزعة الأنوية الكلية التي لا تعترف بوجود الآخر أو بملكه إلا لتصادره لحسابها أو لتترجعه في خاتمة ملكها، فإنها، باعترافها بوجود الموجود، تظل تضمن لنفسها حداً أدنى من الموضوعية بقيها من الغرق النهائي في عالم الهذاء. ولكن الخطاب العربي المعاصر لا يخلو مع ذلك من عينات تتم عن إلغاء هذائي لملك الآخر ولوجوده معاً، وعن تطرف في محو كل الحدود التي يمكن أن تفصل بين الذات والموضوع، وعن تضخم في النزعة الأنوية الكلية المتحولة على هذا النحو إلى نزعة ابتلاعية لا حد لهنهما ولا ضابط من أية بقية باقية من الموضوعية. هكذا يقوم علي عيسى عثمان، في مداخلة له في «ندوة التراث وتحديات العصر»، بعملية مماهاة مطلقة بين التراث الغربي والتراث العربي الإسلامي باعتبار الأول مجرد تمظهر للثاني وواحداً من تجلياته، مما يجعل إشكالية الأصالة والمعاصرة محلولة من تلقاء ذاتها: «أنظر بعدم الراحة الفكرية إلى الأوراق التي قدمت. ومرد ذلك إلى أننا - فيما يبدو - ننظر إلى التراث الغربي نظرة وكأنه جنس آخر يختلف اختلافاً تاماً عن التراث الإسلامي، وأن الجمع بينهما جمع بين متضادين لا يجتمعان. وفي رأيي أن هذه النظرة هي في حد ذاتها للسبب في التعتثر الفكري الذي ينعكس في محاولة المصالحة بين الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي المعاصر.

1. المصدر نفسه، ص 228-229.

وتعود نظرتنا هذه إلى أننا أخذنا تفسير الغربيين لتراثهم وكأنه التفسير الصحيح. فهم يرون أن تراثهم يعود في جذوره إلى الفكر اليوناني وإلى التراث اليهودي المسيحي. فلا يعترفون بأي فضل للإسلام، أو حتى بأي قرابة بين التراث الغربي والتراث الإسلامي. وأما الحقيقة فهي غير ذلك. فالأصول التي جاء بها القرآن وأقام نظام الحياة الكلي عليها هي الأصول التي انطلقت منها الحضارة الغربية الحديثة وقامت عليها وما تزال تتوجه بها<sup>(1)</sup>.

### النكوص كتهقير من تلقائية الفعل إلى آلية رد الفعل

ما دمنا بصدد النزعة الأنوية الكلية والتأسيس الملبّي لهوية الذات عن طريق نفي الآخر، فلنقل إن هذا النفي قد يأخذ، في إحدى صوره، شكل مناقضة آلية مطردة للآخر. فمهما فعل هذا الأخير، أو مهما صدر عنه من رأي أو موقف، فإن الذات - و«الذات» هنا لا تعود تعبيراً مطابقاً - ستفعل العكس أو ترتئي العكس. ولا يصعب أن نتقّى في روح المناقضة هذه، بل في لاهوت الضدية هذا، موقفاً يكرر لاشعورياً موقف الأنا الطفلي الذي غالباً ما يحتاج، كيما يثبت شخصيته، إلى معاكسة من حوله من الراشدين وإلى مناقضتهم قولاً أو سلوكاً. ويلاحظ علماء النفس بالفعل أن الطفل، وهو في أول سبيله إلى تكوين شخصيته، يمر في العادة بعد طور التقليد - النابض الأساسى لكل عملية تربية - بطور الميل إلى المعاكسة والمناقضة. وعلى الرغم مما بين هذين الطورين من أطوار نمو الشخصية من تعارض ظاهر، فإنهما ليسا متناقضين بقدر ما هما متناظران، بل متكاملان. فالمناقضة هي، بنوع ما، ضرب من تقليد ملبّي، وإن كانت تمثل من منظور النمو طوراً أكثر تقدماً من طور التقليد الإيجابي المحض. إذ كما يقول أندريه بيرج، وهو من الاختصاصيين في علم نفس الطفل التربوي،

1. في: التراث وتحديات العصر، ص 144-145. وسوف نرصد، في ازدواجية العقل، شبيه هذه النزعة الابتلاعية لدى ممثل السلفية اليسارية في دعواه للقتلة إننا عندما شرعنا في عصر النهضة نترجم عن الغرب، فإنما كنا نترجم تراثنا نفسه، ولكن في ترجمة عن ترجمة!

فإنه «على حين أن التقليد يصدر عن نزوع أولي سابق لتكوين الشخصية المستقلة ذاتياً، فإن المناقضة تمثل أول مجهود من قبل الطفل لتكوين تلك الشخصية المستقلة ذاتياً ولتحديد نطاقها ومعالمها التي ستكون له بمثابة فاصل عن العالم الخارجي. ولئن كان التقليد ينزع في الأصل نحو الآلية، فإن المناقضة تتجلى على العكس كعامل يرمي إلى قطع الآليات؛ وإنما بقدر ما تصبح آلية بدورها يمكن القول بأنها تبتعد عن وظيفتها»<sup>(1)</sup>. والحال أن الخطاب العربي المعاصر يقدم لنا عينات من موقف تكوصي لا سبيل إلى الممارسة في أنه حيحي، من حيث يريد أو لا يريد، آلية المناقضة للطفلية؛ لا تلك التي يصح وصفها بالإضافة إلى الطفل بأنها سوية، بل على وجه التحديد تلك التي تخل بوظيفتها وتنزع إلى أن تكون آلية محضة. ويجد هذا الموقف تعبيراً مركزاً عنه في مداخلة محمد عمارة حينما قال في ندوة نظمت في المملكة العربية السعودية عام 1988 حول «التراث والفنون الشعبية»: «إذا كان الغرب يفرق شعره إلى جانب معين، فنحن نفرقه إلى الجانب المعاكس؛ وإذا خلق فنقه فنحن نطيلها، وإن أطالها فنحن نحلقها»<sup>(2)</sup>. وعلى الرغم من أن الإيديولوجيا المعلنة التي يصدر عنها مثل هذا الموقف هي إيديولوجيا الأصالة ورفض للتغريب والتبعية، فمن الواضح أننا هنا أمام موقف يقوم على التقليد الآلي، وإن العكسي؛ موقف لا قوام له ولا غائية إلا بضده؛ موقف تتبع سيانته لا من ذاته AUTONOME بل من غيره HÉTÉRONOME<sup>(3)</sup>؛ وبكلمة واحدة، موقف عديم الأصالة كلياً يقوم لا على الفعل، بل على رد الفعل.

ولا يتسع المجال هنا لتقديم نماذج من الأدبيات العربية المعاصرة التي تتحول فيها لفظة «الغرب» أو صفة «الغربي»، في كل ما له صلة بالسياسة

1. أندريه بيرج، عيوب الطفل Les défauts de l'enfant (منشورات مكتبة بابو الصغرى، باريس 1980)، ص 27.

2. نقلاً عن حليم بركات، «العقلانية والمخيلة في الثقافة العربية»، في مجلة: الوحدة، السنة الخامسة، العدد 51 (كلون الأول-ديسمبر 1988)، ص 52.

3. كان جان بياجيه قد لاحظ أن الطفل، في مسار نضجه من المركزية الأنوية إلى الموضوعية، يمر أيضاً بتحول أساسي من موقف للتبعية لغيره HÉTÉRONOMIE إلى موقف الاستقلال بذاته AUTONOMIE.

أو الاقتصاد أو الاجتماع أو حتى النقد الأدبي<sup>(1)</sup>، إلى كلمة رجيمة يكفي أن تلفظ حتى تحضر حالاً إلى مجال الوعي ضرورة العمل أو التفكير بالاتجاه المعاكس. ولكن بما أن الموضوع المحوري لدراستنا هو الخطاب التراثي، فحسبنا أن نمسك الشواهد التالية المستقاة من حقل «رد الفعل» على «الفعل» الاستشراقي.

فانطلاقاً من موقف هذائي لا يتعلّق الآخر - وهو هنا المستشرق - إلا على أنه عدو، ولا يقر له بغائية أخرى غير للتأمر والعدوان وممارسة الهيمنة على الذات<sup>(2)</sup>، يجري تحويل هذا الآخر-العدو إلى معيار مطلق للتفكير الضدي وللحكم العكسي لياً ما تكن الخسائر التي يمكن أن تترتب على هذا الموقف بالنسبة إلى «الذات» نفسها وإلى تراثها الذي يقال لنا - مع ذلك - إنه موضع أطماع ذلك المستشرق المبيت النيات.

فإن يكن كتاب «الأغاني» للأصفهاني، مثلاً، واحداً من أثنى كنوز الأديب العربي القديم، فإن للمريض بعقدة الغرب الذي هو السلفي العربي المعاصر لا يتردد في أن يعلن براعته وبراعة الأديب العربي «الأصيل» من ذلك الأثر الغز لمجرد أن المستشرقين كانوا هم الذين نبهوا إلى أهمية إحيائه. على هذا النحو، يكتب أنور الجندي بالحرف الواحد: «إن الاستعمار الفكري هو الذي فرض علينا منهج العمل في إحياء التراث عندما وجدنا نتجه إليه. فما أحببنا من التراث إنما كان بتوجيهه. وكان أبرز ما أحببنا كتاب «الأغاني» الذي أعطي أهمية ضخمة لا حد لها، وكتابات ابن عربي والسهورودي وشعر أبي نواس وبشار بن برد. وكان لهذا قصد مدبر. فالأغاني كتاب يحاول فيه

---

1. تشهد الساحة الأدبية العربية في الآونة الأخيرة محاولات ناشطة باسم الأصالة والتأصيل لتبخيس النتاج الروائي العربي بجملته خلال القرن الماضي بحجة أن الرواية فن «غربي» محض.

2. وهو موقف يجد نزوته في كتاب إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإجماع، ترجمة كمال أبو ديب (مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1981) حيث يجري تعريف الاستشراق «من حيث هو جهاز ثقافي بأنه عدوان»، وحيث يقال لنا إن «كل أوروبي ما كان له، في كل ما يمكن أن يقوله عن الشرق، إلا أن يكون عنصرياً، امبريالياً، ومركزياً عرقياً شبه ناجز» (الاستشراق، ص 234-235).

أن يعطي للمجتمع الإسلامي صورة عصر شك وفسق ومجون... ومؤلفه أبو الفرج الأصفهاني (356هـ) كان شعبياً منحرف المذهب، أراد بكتابه بث روح التمييز في فكر الأمة العربية، كما عرف بأنه كان مسرفاً لشنع الإسراف في اللذات والشهوات... ولقد أثار هذا الكتاب (21 مجلدًا) اهتمام المستشرقين، واهتم به تلاميذهم في العالم العربي، واعتمد عليه كثيرون منهم في كتابة تاريخ الإسلام وتاريخ الأديب العربي كما فعل جرجي زيدان ووطه حسين وغيرهما<sup>(1)</sup>.

وإذا كان المعتزلة وابن رشد وابن خلدون يمثلون لحظة ثمينة في تراثنا الفلسفي والفكري، تتمثل في الانتصار للعقل ضمن حدود الدين، فإن المريض بعقدة الغرب الذي هو المنقف العربي المتسلف لا يتردد في الدعوة إلى إعادة تبيين تلك اللحظة باتجاه تبخيسي سلبي لمجرد أن أدوات «الاستعمار الفكري» الذين هم المستشرقون كانوا السباقين إلى إبراز أهمية أولئك الممثلين المتميزين للنزعة العقلية في التراث العربي الإسلامي<sup>(2)</sup>. هكذا يكتب جلال أحمد أمين بالحرف للواحد: «إن المرء لتساوره شكوك كثيرة حقيقية في أن دأب المستشرقين على تمجيد ابن خلدون أو ابن رشد أو إعلاء شأن المعتزلة على سواهم، ودأبنا نحن على مسايرتهم في هذا التمجيد، قد لا يكون له من سبب إلا ما يوجد بين منهج هؤلاء المفكرين العرب ومنهج الفكر الغربي من اتفاق. وإن علينا مراعاة أشد الحذر في تصنيف مفكرينا وترتيب بعضهم فوق بعض تبعاً لما تمليه تحيزات الفكر الغربي»<sup>(3)</sup>.

---

1. الجندي، الثقافة العربية، ص 357.

2. هي على كل حال نزعة عقلية نسبية، بحكم الحدود العقلية المسيقة لتي عمل - وكان لا بد أن يعمل - ضمنها العقل العربي الإسلامي.

3. في: التراث وتحديات العصر، ص 770. والواقع أنه كما رد ممثل السلفية التقليدية تواطؤ المستشرقين مع الأصفهاني إلى «مجونه» و«احراف مذهبه»، كذلك فإن ممثل السلفية الحديثة يرد تواطؤ المستشرقين بإهام مع ابن خلدون إلى كون هذا الأخير أخضع «مساحة شاسعة من الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية للتحليل المتجرد من أحكام الدين والأخلاق، وهو نفس ما فعله ابن رشد في الفلسفة» (الموضع نفسه).

## النكوص كارتداد فعلي عن عصر النهضة

يقول فؤاد زكريا: «إنه لأمر يدعو إلى الأسى العميق أن يجد المتقف العربي نفسه في أواخر القرن العشرين مضطراً إلى أن يخوض معركة كاد المفكرون العرب في أواخر القرن التاسع عشر أن يحسموها نهائياً لصالح العقل والنقد. فهل هناك دليل على انتصار خصوم العقل، وأعداء التبادل الفكري الخصب، أبلغ من نجاحهم في العودة بمستوى الجدل الثقافي قرناً من الزمان، بالنسبة إلى العرب أنفسهم وخمسة قرون على الأقل بالنسبة إلى المجتمعات المتقدمة؟»<sup>(1)</sup>.

والحال أن الإضافة الوحيدة التي يمكن أن نضيفها إلى هذه الملاحظة الأسبانية الصادرة عن يمكن اعتباره المحامي الأخير للنزعة العقلية الطليقة في الخطاب العربي المعاصر هي أن ما نحن بصدد مواجهته اليوم على صعيد هذا الخطاب ليس حالة ارتداد إلى عصر النهضة، بل بتعبير أدق حالة ارتداد عن عصر النهضة.

وقد كنا رأينا كيف يجري على قدم وساق تأثيم عصر النهضة باعتباره، على حد تعبير عامر غديره، عصر «الاستعمار والتثوية الذاتي والغزو الثقافي». ولا يتردد فكتور محاب، في مقال يحمل هذا العنوان الدال «تفسير الهزيمة ورد الاعتبار إلى التراث»، في دمج عصر النهضة بأنه عصر «الهزيمة التاريخية التي واجهناها في صراعنا مع الغرب على مدى القرنين الماضيين»<sup>(2)</sup>. ويدين منير شفيق عصر النهضة باعتباره عصر «إحلال التغريب الفكري والحضاري محل الإسلام»، ويشكك في التسمية نفسها: «الإصلاح والنهضة هنا أصبحا يطلقان على التغريب وتبني الحضارة الأوروبية والتخلي عن الإسلام ومحاربته بكل السبل، أي أصبحا يطلقان

1- زكريا، خطاب إلى العقل العربي، ص 93.

2- في مجلة: شؤون عربية، العدد 12 (شباط/فبراير 1982)، ص 45-53. وانظر أيضاً مقاله بعنوان «الوحدة العربية وضرورة التراث» في المجلة نفسها، العدد 15 (أيار-مايو 1982)، ص 61-71.



على نقضيهما<sup>(1)</sup>. ولئن كان عصر النهضة العربي قد استمد اسمه ومرجعيته من عصر النهضة الأوروبي ومرجعيته، فإن مؤلف «الإسلام في معركة الحضارة» لا يتردد في أن يفرد من كتابه «باباً في تقويم عصر النهضة الأوروبية» ليدين هذا السمي لعصر النهضة العربي بأنه «عصر ردة وانحطاط، عصر الظلمات والاستبداد والطاغوت.. عصر الإجرام وارتكاب كل أشكال الموبقات»<sup>(2)</sup>. ويخلص من هذه الإدانة المذهلة لعصر النهضة الأوروبي إلى استنتاج مفاده أنه «ما لم يقتلع فكر النهضة من جذوره باعتباره منذ المنطلق فكراً رجعياً ومضاداً للثورة ومعادياً للشعوب والإنسانية، فلن تكون هناك إمكانية لخلاص العالم من الحالة الإمبريالية الراهنة التي هي الاستمرار لعصر النهضة». ويبيهي أن الهدف من إعادة النظر للهاثنية هذه في «فكر عصر النهضة الأوروبي باعتباره وثيقاً عنصرياً استبدادياً»، على الرغم من محاولاته الاختباء وراء كلمات كبيرة مثل «العقل والعلم والحرية والديمقراطية»، هو أن «يعاد النظر بكل ما وصلنا من فلسفات وأفكار وعلوم إنسانية أوروبية»، وأن يعاد بوجه خاص «النظر في تلك المقولات التي انبهرت بعصر النهضة الأوروبي، فوضعت معولها في خدمته وهي تضرب مجتمعاتنا الإسلامية، وحملت ظلامه وهي تحسب أنها تحمل نورا، وعملت على إطفاء نور الإسلام وهي تدعي بأنها تطرد الجهل والتخلف»<sup>(3)</sup>.

وتدعيماً لعملية تأثيم عصر النهضة باعتباره، جوهرياً، عصر عمالة للغرب، فإنه لا يندر في زمن الردة هذا أن يجري التركيز على البعد الطائفي في تلك العمالة المزعومة. وعلى هذا النحو يقول ممثل السلفية التقليدية: «هناك حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها، هي أن الاستعمار ركز على الأمة العربية أكثر مما ركز على أي جزء آخر من العالم الإسلامي، وجعل لمصر في مخطط الاستعمار والتبشير والتغريب قدحاً معلى، باعتبارها قلب

1. شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، ص 68-70.

2. شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص 56-57.

3. المصدر نفسه، ص 61.

العالم الإسلامي ومركز القيادة من الأمة العربية<sup>(1)</sup>. فصنف مصر هي التي كانت تحمل الأفكار والدعوات المختلفة، وعملاء الاستعمار الذين يكتبون باللغة العربية في المقطم والأهرام والهلال والمقنطف والجامعة وغيرها من صحف اللبنانيين المتأمرين كانت تحمل لواء مخطط التغريب كاملاً. هذه الصحف التي عاشت ولمتد بها العمر، بينما سقطت الصحف الوطنية واحدة بعد الأخرى<sup>(2)</sup>. وبدوره يطلق ممثل السلفية اليسارية تهمة العمالة الطائفية بالجملة على العلمانيين من النهضةيين العرب، ولكن مع تسميتهم بأسمائهم هذه المرة: «قام العلمانيون في بلادنا منذ شبلي شميل ويعقوب صروف وفرح أنطون ونقولا حداد وسلامة موسى وولي الدين يكن<sup>(3)</sup> ولويس عوض وغيرهم يدعون إلى العلمانية بهذا المعنى الغربي: فصل الدين عن الدولة، الدين لله والوطن للجميع. والملاحظ أنهم كلهم كانوا من النصاري، وغالبيتهم من نصارى الشام، الذين كان ولاؤهم الحضاري للغرب، لا ينتسبون إلى الإسلام ديناً أو حضارة<sup>(4)</sup>. ويوسع منير شفيق، وفق التصنيف الطائفي إياه، قائمة عملاء الغرب السياسيين والحضاريين ليضيف إليها بعضاً من أبرز أسماء الأدب العربي المعاصر، ولاسيما في شقه المهجري. هكذا يقول: «من يطلع على وثائق المؤتمر العربي الأول 1913... وعلى الوثائق التي نشرتها مجلة «المستقبل» في 2 نيسان 1983، يجد من الصعوبة بمكان عدم وضع علامات سؤال كبيرة حول ارتباطات معظم رواد التغريب الفكري والسياسي الأوائل بالدول الاستعمارية الغربية. ولهذا تساعل أنطوان عبد المسيح، وهو ينشر الوثائق المذكورة أعلاه في «المستقبل»، هل كان جبران خليل جبران عميلاً لفرنسا، لأن الوثائق تشير إلى أن جبران خليل

1. إن النزعة المركزية القطرية، ضمن هذا الهرم المخروطي الإسلامي-العربي-المصري، قد أسست ممثل السلفية التقليدية، على ما يبدو، أن «القدح للملح» في مخطط الاستعمار والتبشير والتغريب» قد كان - على حد علمنا، وعلى علم التاريخ والجغرافية معاً - من نصيب الجزائر التي انفردت دون سائر الأقطار المستعمرة بتسميدها أرضاً فرنسية.

2. الجندي، العالم الإسلامي، ص 400.

3. محشور خطأ في عداد للنصاري!

4. حسن حنفي، «الإسلام لا يحتاج إلى علمانية غربية»، في مجلة: اليوم السابع، السنة الخامسة، العدد 256 (3 نيسان-أبريل 1989)، ص 20.

جبران وميخائيل نجمة وأمين الريحاني وشكري غانم وأيوب ثابت ونعيم دياب وشكري بخاش وعبد المسيح حداد ونسيب عريضة وإيليا أبو ماضي، أيدوا السياسة الفرنسية الرامية إلى السيطرة على سورية الكبرى، بل إن هذه الوثائق تذهب إلى التأكيد على أنهم وقفوا ضد استقلال لبنان الكبير، وطالبوا بحكومات فدرالية تحت الحماية للفرنسية<sup>(1)</sup>. ويؤيد وجيه كوثراني هو الآخر هذا التصنيف الطائفي للوكلاء النهضةيين المزعومين لحضارة الغرب، وحتى لاستعمارهم، ولكنه يلاحظ أن التغريب لم يقتصر فقط على العربيين والقوميين، بل «وقع فيه أيضاً بعض الإسلاميين». إذ كما وجد تيار قومي عروبي علماني تأول القومية العربية على أنها «دعوة للالتحاق بالغرب، ولاسيما بالطرف الفرنسي»، وهو التيار الذي انتظم فيه، بالإضافة إلى شكري غانم ونجيب عازوري، «العديد من عروبيين مرحلة ما قبل الحرب الأولى: ندره مطران، جورج سمّنه، خليل زينية، أرّش، ثابت»، كذلك وجد هناك إسلام متغرب، أو إسلام يحاول أن يطرح المسألة من وجهة نظر مقطوعة الصلة بالتراث، أو أن يوظف التراث بمصالحة الغرب، أو أن يوظف الإسلام ويجتهد في الإسلام لقبول الغرب<sup>(2)</sup>. ويضيف وجيه كوثراني قوله: «قد أفاجئ البعض عندما أعطي مثلاً على هذا الإسلام الذي يحاول أن يستحضر للنموذج التراثي ليصالحه مع الغرب، والمثل هو محمد عبده. لقد نشرت نصوصاً من مجلة المنار لمحمد عبده ورشيد رضا حول علاقة محمد عبده بكرور، وحول علاقته بالحاكم المدنية. ولكرومر كتاب معروف يشيد فيه بالدور الذي قّمه محمد عبده في

1. شفيق، الإسلام وتحديات الانحطاط للعصر، ص 71.

2. في: العروبة والإسلام علاقة جنسية، ص 79 و 117. ونحن لا نكر بالمناسبة أن بعض من أورد وجيه كوثراني أسماءهم كانوا يتمتعون فعلاً بدعم وزارة الخارجية الفرنسية، وعلى رأس هؤلاء جورج سمّنه الذي كان يكتب أصلاً بالفرنسية، ولكن ما نستغربه هو أن يدرج هؤلاء في عداد «العروبيين». فجورج سمّنه، والفريق الذي كان ينطق باسمه، كانوا من دعاة القومية السورية وخصوصاً للفكرة العربية. وكانوا يرون أن «السوريين ليسوا عرباً، لا بل ليس هناك من أمة عربية، وكل ما في الأمر أن هناك قومية عربية مزعومة خلقها الأمير فيصل والعملاء الانكليز-الهنود» (ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة عبد الكريم عزقول، ط 4، دار النهار للنشر، بيروت 1986)، ص 345.

مصالحة الإسلام مع القوانين المدنية الوضعية (قوانين التجارة وقوانين الأحوال الشخصية)<sup>(1)</sup>. ومثل هذا التشكيك في وطنية الرائد الكبير للسلفية الإصلاحية نجده أيضاً عند علي زيعور الذي يقدم كتابه «الخطاب التربوي والفلسفي عند محمد عبده» - وهو الجزء الحادي عشر من مشروعه لتحليل النفسي للذات العربية - مثلاً عينياً، بل ثراً، على أن معطيات التحليل النفسي قابلة هي أيضاً للتوظيف توظيفاً تكويمياً، على الرغم من أن التحليل النفسي هو بالأساس علم الوقاية والحماية من النكوص. هكذا يتساءل هذا المحلل النفسي والإنساني للذات العربية: «هل وقع محمد عبده في شبكة خبيثة - فكرية أو سياسية - كان يحركها كرومر، ومرزا محمد باقر، والمستشرق براون الذي كان يحضر دروس الإمام، وآخرون؟ نترك ذلك، أو أن ذلك ليس سهلاً على دراستنا برغم منافع الكشف عن تلك الأمور. إن علاقه مع مرزا م. باقر، للمثال، ربما تظهر هذا الأخير بهائياً، لاسيما إن تذكرنا أن براون، جاسوس الإنكليز في إيران، كان شديد الصلة بالبهاء والبهاية إبان دراساته أو «خدماته الجليلة» للاستسراق. وفي جميع الأحوال، فإن تلك للشبكة التي ننخيل وجودها<sup>(2)</sup>... تتوازي مع خلفية ثقافية عند الإمام، ربما عملتا معاً على تعزيز... التيار الذي لم يبن للعرب أدب مقاومة، ولا فكراً مجابهاً يجتد ويتحدى<sup>(3)</sup>. ولا يضرب علي زيعور صفحاً عن تهمة العمالة هذه وعن «التصوف الخفي عند الإمام وصلاته السرية وعلاقته المغطاة مع القواهر» (أي مع المستعمرين أو الغربيين صانعي الجرح النرجسي) إلا ليجري لممثل السلفية الإصلاحية محاكمة شاملة، على مستوى الشعور واللاشعور معاً، لا بصفته الشخصية فحسب، بل باعتباره كذلك ممثلاً بارزاً «لنمط اجتماعي مهجن ومهجن» اعتمد في «منطقه

1. في: العروبة والإسلام علاقة جنلية، ص 117.

2. لا يغوت محللنا النفسي أن يفتح هامشاً ليوجه تهمة التآمر والوقوع في شبكة الجاسوسية «الخبيثة» لا لمحمد عبده وحده، بل لممثلي «فكرنا المعاصر برمته» بقوله في الهامش المشار إليه «من السوي أننا نسحب ذلك، مع الوعي بتغير الأسماء، على فكرنا المعاصر برمته».

3. علي زيعور، الخطاب التربوي والفلسفي عند محمد عبده (دار الطليعة، بيروت 1988)، ص 48.

وجهازه المعرفي وأفهوماته الكبرى» على أنوات «هي بدورها أيضاً مهجئة ومهجئة»<sup>(1)</sup>. وصفة «التهجين» للمزدوج هذه هي التي يطلقها أيضاً محلل الذات العربية بلا تردد على ممثلين كبار آخرين للسلفية الإصلاحية، ومنهم الشيخ حسين الجسر والشيخ رشيد رضا، وذلك لا لشيء إلا لأن الشيخين أرادا «الجمع بين علوم الغرب وعلوم التراث» وطلبيا «النهل من الغرب ومن التراث، من المؤسسة الأوروبية ومن النظم الإسلامية القائمة»<sup>(2)</sup>. ويختم علي زيعور محاكمته لممثل «مدرسة العروة الوثقى المنارية»، التي ما استطاعت أن تصون «معادن المعتقدات الموروثة» من «نار المؤسسات الغربية بإرسالياتها ومعاهدها، بعلومها ورساميلها وتقنياتها وترجماتها المتطفلة»، بل تطلعت على العكس إلى «رد المشروع الغربي» عن طريق «الحاق بالعلم الأوروبي»، يختم بقوله: «بذلك التهجين يظن رشيد، كما يفعل عبده ومن هو على ذلك للفرار وفي ذلك التيار، أنه وجد حلاً لكل مشكلة... مهجن الفكر والملوك، وينصر كل تهجين»<sup>(3)</sup>.

والواقع أن مؤلف «الخطاب التربوي والفلسفي عند محمد عبده» لا يدين، كما قد يفهم من عنوان كتابه، محمد عبده وحده وبشخصه، بقدر ما يدين أيضاً من خلاله عصر النهضة بجملته من حيث أنه عصر «الذات المنجرحة في حقل تقهره الواقعة الاستعمارية». فعنده أن محمد عبده ليس نسيج وحده، ومحاكمته له هي بالأساس، كما رأينا، محاكمة لنمط اجتماعي شامل، أصابته جرنومة التهجين فنقل عدواها إلى غيره، فكان مهجئاً ومهجئاً في آن معاً. ومما زاد في خطورة هذا التهجين المزدوج، المنفعل والفاعل، أن النمط الاجتماعي الذي كان له بمثابة الحامل والعامل كان هو صاحب التأثير «الأقوى في الممارسة». ويجهر مُحاكم محمد عبده، من السطر الأول من كتابه، بأن «محاكمة الإمام محمد عبده عملية تكشف [عند المؤلف المنقصد شخصية القاضي] رغبة في محاكمة كل القطاع الذي مثله»، أي قطاع السلفية الإصلاحية والاجتهادية الذي كان هو «القطاع

1. المصدر نفسه، ص 9.

2. المصدر نفسه، ص 166.

3. المصدر نفسه، ص 166 و 168.

الأوسع» وه الأبرز والأعرض في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة»، فضلاً عن أنه كان ولا يزال «عميق الجذور» و«شديد الرسوخ في الذات العربية»<sup>(1)</sup>. ومحاكمة هذا القطاع لا تجري إلا بالتضاد مع براءة الذمة المعطاة سلفاً للقطاع المقابل الذي رفض أي شكل من أشكال «التداول المزيف والمزيف» بين «الذات المنغلبة والمحتل القوي»، أي قطاع السلفية الخالصة التي قابلت الآخر الأجنبي بالرفض المطلق وبالتمسك الانكفائي بالذات وبتراث الذات البريء برءاً مطلقاً من لوثة الحداثة وهجنتها. وعلى هذا النحو تنتهي الجلسة الأخيرة من جلسات هذه المحاكمة بالعينة – والعينة هنا هو محمد عبده كما تقدم البيان – لأعرض نيارات عصر النهضة باستصدار حكم تحليلي نفسي مفاده أن الاستجابة التي مثلتها السلفية الإصلاحية، الموصومة بوصمة التهجين المزدوج، كانت استجابة «مرضية» بالمقابلة الضدية مع الاستجابة السلفية الخالصة التي مثلت على العكس «ظاهرة سوية»، وإن قامت – باعتراف المؤلف/ المحلل/ المحاكم – على «لواية سيئة للتكيف»، أقرب إلى «العصاب» منها إلى «المعافاة النفسية»، إذ دفعها «الخوف على الذات» من «القواهر الأجنبية» إلى «النكوص والاحتماء بالأم، بالتراث، بالدين، بالهوية التاريخية»<sup>(2)</sup>.

وإذا كان محلل الذات العربية، بانتصاره على هذا النحو للسلفية الخالصة على السلفية الإصلاحية، إنما ينتصر لأقل النهضويين نهضوية، فمن الواضح أيضاً أن ثمة غائباً كبيراً عن هذه المحاكمة، وهو التيار التحديثي الصرف الذي يقف إلى يسار السلفية الإصلاحية بقدر ما تقف هذه إلى يسار السلفية الخالصة، والذي يمكن وصفه بالتالي بأنه تيار النهضويين الأكثر نهضوية. والحال أن تغيب هذا التيار تغيباً تاماً عن ساحة المحكمة إنما يعني أنه تيار مدان سلفاً، لا يستأهل حتى للوقوف في قفص الاتهام: فهو بحكم الخائن الذي يعدم بدون محاكمة ويطرد خارج دائرة الوعي وكأنه ما وجد قط. ومع أن محلل الذات العربية يعلن أن منهجه «يرفض المحاكمة قبل العرض للحال»، فإن حصره للمحاكمة بتياري السلفية وتوزيعه للدوائر

1. المصدر نفسه، ص 8.

2. المصدر نفسه، ص 209.

بحيث يُمثّل الإصلاحيون في قفص الاتهام والسلفيون الخُلص في منصة الادعاء والشهود، إنما هو بمثابة إشهار لحكم مسبق يعتبر أن التيار الثالث، تيار النهضويين الأكثر نهضوية، تيار قاييني ملعون محرم عليه حتى أن يطأ عتبة المحكمة، التي تبقى بعد كل شيء مقدسة. وبالفعل، إن محلل الذات العربية لا يخصص له في كتابه كله سوى جملة تصنيفية واحدة وردت في الصفحة الأولى منه: فهو التيار للذي «تماهى في الآخر وتخلّى عن الذات»<sup>(1)</sup>.

---

1. المصدر نفسه، ص 8.





# الفصل الرابع

## من النهضة إلى الردة

ليس تأثيم عصر النهضة وإدانة رجالاته أخطر مظاهر الردة النكوصية التي نحن بصدها. فهذا المظهر التأثيمي يبقى أكثر اتصالاً بالتاريخ منه بالحاضر، وما كان له أن يكون أكثر من حكم قيمة سلبي على عصر ولّى ومضى لولا أنه يقترن بارتداد عن مقولات النهضة من حيث هي مقولات لا تزال لها فاعليتها في الواقع العربي الراهن وفي الإيديولوجيا العربية المعاصرة.

ومن الصعب طبعاً على الدارس أن يرصد جميع مظاهر هذا الارتداد عن المقولات النهضة في الخطاب العربي المعاصر. ولكن بعض العينات التمثيلية يمكن أن تقي بالغرض هنا.

ولنبداً بادئ ذي بدء فنتساءل: ما كانت المقولة الأساسية في النهضة، بل ما كانت المقولة التي اعتقدت عليها إشكالية النهضة بالذات؟ إنها فكرة التقدم. فقد اكتشف العرب على حين غرة، ومع مدافع نابليون، أنهم باتوا مسبوقين بل متأخرين في المجال الحضاري، وأن تأخرهم هذا هو الذي استتبع غزوهم، وأن عليهم إذا ما أرادوا للتصدي بنجاح للهجمة الاستعمارية أن يحدثوا في أوضاعهم تغييراً يجعلهم نداً للأوروبيين قادراً على مواجهتهم. وقد اختلف تشخيص النهضةيين العرب للداء الذي أدى بالعرب

– وبالمسلمين – إلى التأخر والانحطاط. فمنهم من رده، كما هو معلوم، إلى الاستبداد والحكم العثماني، ومنهم من رده إلى تفشي الجهل والانحراف عن صراط الدين، ومنهم من رده إلى تردي وضع المرأة والأم، ومنهم من رده إلى التفرقة القومية والطائفية، ومنهم من رده أخيراً، مع التحول من شعار النهضة إلى شعار الثورة غداة الحرب العالمية الثانية، إلى التخلف الاقتصادي وسوء توزيع الثروة القومية. ولكن بغض النظر عن طبيعة الترياق الذي اقترحه النهضويون – وذلك تبعاً لتشخيصهم طبيعة الجرثومة الحاملة لسم التأخر والانحطاط – فقد اتفقوا جميعاً، بلا استثناء تقريباً، على أنه ما دام الخصم هو أوروبا، وما دام هذا الخصم قد استفاد من ثوقه الحضاري ليفزّوهم في عقر ديارهم وليفرض استعماراً وهيمنته، فلا مفر للعرب – وللمسلمين – من أن يواجهوا الغرب بسلاحه. وبما أن سلاح الغرب هو تقدمه، فلا محيص لهم عن التقدم بدورهم ولو عن طريق محاكاة الغرب في عوامل تقدمه<sup>(1)</sup>.

وحتى تصبح فكرة التقدم ممكنة ومشروعة ومقبولة فقد بنى النهضويون إستراتيجيتهم على تمييز مزدوج:

1. التمييز إجمالاً بين الحضارة الغربية والاستعمار الغربي، فجوّزوا محاكاة الغرب في حضارته لمقاومة استعمارهم، وهذا موقف سوف يرثه – ويطوره – عن النهضويين حملة إيديولوجيا الثورة من القوميين واليساريين بدءاً من فترة الاستقلالات فصاعداً.

---

1. قد يكون من المفيد أن نلاحظ هنا – وهذا ما يمكن أن يساعدنا على فهم الانتكاسة التي منيت بها فكرة التقدم في زمن الردة الراهن – أنه إذا كانت فكرة التقدم أولية بالنسبة إلى أوروبا، فهي ثانوية بالنسبة إلى العرب. فالعرب لم يطلبوا التقدم للتقدم، بل طلبوه لغاية مفارقة له: مواجهة أوروبا. وبعبارة أدق، إنهم لم يطلبوا التقدم بقدر ما طلبوا مضاهاة أوروبا. وإلى اليوم لا يزال حفز التقدم بالنسبة إلى العديد من المثقفين العرب ليس قيمة للتقدم ولا منافعه بحد ذاتها، بل ضرورته للخروج من وضع «الهزيمة أمام الغرب» و«استرداد المكانة المتفوقة داخل حضارة الإنسان» (زيغور، المصدر نفسه، ص166). وإذا كان من السهل اليوم أن نرصد علائم قنوط ويس من إمكانية التقدم، فما ذلك لأن العرب لم يتقدموا فعلاً، بل لأنهم لم يتقدموا ولا يتقدمون بما فيه الكفاية ليلحقوا بالغرب، ولأن الغرب نفسه لا يني يتقدم بوتأخر أسرع من أن يدركه بها العرب.

2. التمييز إجمالاً بين الروح والمادة، أو الروح والتقنية في الحضارة الغربية، فجوزوا الأخذ بالتقنية الغربية مع التمسك بروح الحضارة العربية الإسلامية<sup>(1)</sup>. وهذا موقف سيحوز قبولاً جماعياً لدى مختلف أجنحة السلفيين من النهضويين، وإن بدرجات متفاوتة؛ فقد تحمس له المعتدلون والإصلاحيون منهم بدون أن يلقى معارضة تذكر من جانب المتشددين.

وربما كان خير من عبّر عن هذه الإستراتيجية النهضوية، المجوّزة للتماهي الجزئي مع الغرب بهدف امتلاك سرّ قوته ومواجهته بنفس سلاحه، خير الدين التونسي الذي ما وضع، منذ عام 1867، كتابه الوصفي عن «أحوال الأمم الإفريقية»، إلا تعريفاً «للغافلين من رجال السياسة وسائر الخواص والعوام» بـ«الوسائل التي أوصلت الممالك الأورباوية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية» عسى «أن نتخير منها ما يكون بحالنا لايقاً، ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقاً، عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا» وتحذيراً لدوي الغفلات من عوالم المسلمين عن تماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير، الموافقة لشرعنا، بمجرد ما انتقش في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراثيب ينبغي أن يهجر، وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذ ولا تذكر»، مع أن «الأمر إذا كان صادراً من غيرنا وكان صواباً موافقاً للأدلة، لاسيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا<sup>(2)</sup>، فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله. وكل متمسك بديانة، وإن كان يرى غيره ضالاً في ديانته، فذلك لا يمنعه من الاقتداء به فيما يستحسن في نفسه من أعماله المتعلقة بالمصالح الدنيوية»<sup>(3)</sup>.

---

1. كان مثل هذا التوجه قد أثبت نجحاً في تجربة تحديث اليابان من خلال الشعر الذي أطلق في مطلع عهد الميجي: «الروح اليابانية والتكنولوجيا الغربية» (انظر مداخلة ياسومازا كورودا، في: التراث وتحديات العصر، ص 223).

2. لاحظ هنا أننا أمام إستراتيجية إضافية، أو أمام ضرب من إستراتيجية دخل الإستراتيجية يقوم على تبرير التماهي الجزئي مع الغرب بتأويله على أنه إعادة للتماهي مع الذات، بالنظر إلى أن ما نأخذه من الغرب إنما أخذه الغرب في الأصل منا وعنا.

3. التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، ص 147-150.

وتبرز إستراتيجية التماهي مع قوة الغازي الغربي لقلبها عليه بمزيد من الوضوح لدى قاسم أمين، التلميذ المباشر لمحمد عبده: «إن تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء، حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المسكونة. فلا يكاد يوجد منها شبر إلا وطنه بقمه، وكلما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه، من زراعة وصناعة وتجارة، ولم يدع وسيلة من الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وإن أضرب بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين... وهو في الغالب يستعمل قوة عقله، فإذا دعت الحال إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليهما... ولا يمضي زمن طويل إلا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة، لأنهم أكثر مالا وعقلاً وعرفاناً وقوة، فيبتغمون كل يوم، وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها... فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء إلا طريق واحدة لا مندوحة عنها، وهي أن تستعد الأمة لهذا القتال، وتأخذ له أهبتها، وتستجمع من القوة ما يساوي للقوة التي تهاجمها من أي نوع كانت، خصوصاً تلك القوة المعنوية، وهي قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة سواها. فإذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها، وسلكت في التربية مسالكهم، وأخذت في الأعمال مأخذهم، وتكرعت للكفاح بمثل ما تترعوا به، أمكنها أن تعيش بجانبهم، بل تيمس لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم، لأن البلاد بلادها، وأرضها أبر بها منها بالغريب عنها... وهذه الطريق - طريق النجاة - كما قدمت، مفتوحة أمامنا، ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها إلا ما قد يكون من أنفسنا»<sup>(1)</sup>.

ويعلم عبد الرحمن الكواكبي، هذا الممثل الكبير للجناح الأكثر تقدماً واستتارة من أجنحة السلفية الإصلاحية، في نص يعود إلى العام نفسه الذي صدر فيه «تحرير المرأة»، عن تأييده للمطلق لإستراتيجية «مجاراة الغربيين ومباراتهم واسترداد ما فقده للمسلمون من الحياة والعزة والسلطان»، ويضيف مفنداً حجج المعارضين على هذه الإستراتيجية: «ولا يعترض عليّ

1. قاسم أمين، تحرير المرأة (مكتبة الترقى، بيروت 1899) في: الأعمال الكاملة، لقاسم أمين، تحقيق ودراسة د. محمد عمارة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1976)، ج2، ص70-71.

بأننا نحن المسلمين لا يحسن بنا أن نفعل فعل الأوروبيين، لأننا مأمورون بطلب العلم ولو في الصين، فكل ما يفعله غيرنا وتثبت لنا فائدته يجب أن نقفدي بهم فيه جراً للنفع ودفعاً للضرر»<sup>(1)</sup>.

وحتى جمال الدين الأفغاني، الذي عرف بمواقفه الصارمة ضد تقليد الغرب وأدان التفرنج بوصفه «جذعاً لألف الأمة يشوه وجهها ويحط شأنها» وانتقد مراراً وتكراراً في «العروة الوثقى» (1884) التيار «المستغرب» الذي يعتقد أنه لا بد للشرق، إذا ما أراد «إيجاد المنفعة» لنفسه، من أن «يسلك المسالك التي سلكها بعض الدول الغربية الأخرى»، فإنه ينتهي في أواخر حياته، وفي ما يمكن اعتباره وصيته التي أملاها على محمد باشا المخزومي في شكل «خاطرات»، إلى تأييد إستراتيجية مجارة الغرب لمقارعة حديده بمتله، وينحي باللائمة على الدولة العثمانية لأنها لم تسلك في ذلك مسلك اليابان: «لو أن الدولة للعثمانية راعت من يوم تأسست ورأقت حركات العالم الغربي، وجرت معه حيثما جرى في مضمار المدنية والحضارة، وقرنت إلى فتوحاتها المادية القوة العلمية، على نحو ما فعلت اليابان أقله، لما كان ثمة مسألة شرقية»<sup>(2)</sup>.

- 
1. من مقال نشر على حلقتي في: المقطم، (لب-أغسطس 1899). نقلاً عن: جان دايه، الإمام الكولكي، فصل الدين عن الدولة (دار سورقيا للنشر، لندن 1988)، ص 118 و124.
  2. جمال الدين الأفغاني، «المسألة الشرقية»، في: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981)، الجزء الثاني، ص 9. ولننكر، بمناسبة المحاولات للجارية اليوم على قدم وساق لإعادة الاعتبار إلى الدولة العثمانية ولتصويرها في صورة الأب الحامي الذي قتله ابنه العربي القومي للحاق، وهي المحاولات التي كثيراً ما تستشهد بمقالات الأفغاني في «العروة الوثقى» عن دور الدولة العثمانية في النود عن حياض الإسلام وشوكة المسلمين، لننكر أن الأفغاني انتهى أيضاً، في خاطره عن «المسألة الشرقية»، إلى تقييم الدور التاريخي للدولة العثمانية تقييماً بالغ السلبية، مندداً لا بمحاولتها تركك العرب فحسب، بل كذلك بما يمكن أن نسميه إضرابها عن النمو الحضاري. هكذا يقول: «من ينظر إلى تاريخ الدولة العثمانية ونشأتها، لا يملك نفسه من الإعجاب بنشاطها وكثرة ما فتحت من الممالك وأخضعت لسلطانها من الأمم، ويأخذ به الاستغراب كل ملحد من تفریطها وعدم جريها مع أحكام الزمن وحرمانها نفسها، ومن دخل في حكمها من الأمم، أن تجري وإياهم في ميدان الحضارة... هذه أربعة قرون ويلغزها تحت الحكم العثماني، وهي لا تزداد إلا انحطاطاً، وهذه هي»

والحال أن إستراتيجية التماهي الجزئي هذه مع حضارة الغرب، بدافع الضرورة أكثر منه بدافع الإعجاب<sup>(1)</sup>، وهي الإستراتيجية الأساسية التي تمحور عليها عصر النهضة ومنطق النهضة بالذات، هي التي ستضحي في الخطاب العربي المعاصر - من حيث هو خطاب ردة ونكوص - موضع تبخيس ومقاطعة ورفض، وهي التي ستداند ليدان معها عصر النهضة برمته باعتباره، بلغة مطبق الأنثروبولوجيا الحضارية الباثولوجية في تحليل الذات العربية، عسراً «مهجناً ومهجنأ». فإن يكن عصر النهضة قد بنى إستراتيجيته النهضة على التمييز بين الحضارة الغربية والاستعمار الغربي لينترك باب التماهي مع الأولى مفتوحاً لمواجهة الثاني، فإن الناطقين بلسان السلفية المحدث المردة على عصر النهضة لا يترددون في الإعلان عن معاداتهم لا لاستعمار الغرب وحده، بل أيضاً - وربما بالدرجة الأولى -

« شبه جزيرة البلقان التي افتتحها العثمانيون، وبقيت بحوزتهم وتحت سلطانهم الأجيال، فماذا أحدثت في تلك الممالك من آثار العمران؟ وماذا تركت في تلك الشعوب من الذكرى؟ وماذا أعدت من الحزم والرأي والتدبير لبقاء تلك المقاطعات والإمارات في حوزتها؟ وإذا كان الجواب «لا شيء»، حينئذ يضطربنا الإنصاف إلى أن نقول: إن الدولة العثمانية في فتوحاتها، وما شاهدناها من تفریطها، لم تكن لتحسن الاستعمار، بل بقيت سداً منيعاً للأمم المحكومة منها، يحول بينها وبين الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم الراقية في مننيتها وعلومها وصناعاتها» (المصدر نفسه، ص 10-13).

1. إن التمييز هنا بين دافع للضرورة ودافع الإعجاب ليس مجرد تمييز وصفي، بل هو أيضاً تمييز معياري. فدافع الضرورة يرسم سلفاً حدوداً معلومة لعملية التماهي، أما الإعجاب فيلغي هذه الحدود لجعل التماهي من طبيعة كلية، وهو ما يبرز واضحاً في دعوة طه حسين مثلاً، إلى أوربة مصر: «صنقني يا سيدي القارئ، إن الواجب الوطني الصحيح، بعد أن حققنا الاستقلال وأقررنا الديمقراطية في مصر، إنما هو أن نبذل ما نملك وما لا نملك من القوة والجهد ومن الوقت والمال لنشعر المصريين، أفراداً وجماعات، أن الله قد خلقهم للعزة لا للذلة، وللقوة لا للضعف، وللسيادة لا للاستكانة، وللإنباهة لا للخمول، وأن نحمر من قلوب المصريين، أفراداً وجماعات، هذا الوهم الأثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوروبي وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوروبية ومنحوا عقولاً غير العقول الأوروبية... علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء، قائلين ما في ذلك من حسنات ومثيلات... علينا أن نمسير مسيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لتكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يجب منها وما يكره، وما يحمد فيها وما يعاب» (مستقبل الثقافة في مصر، في: المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، المجلد التاسع (دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982)، ص 40-54).

لحضارته وثقافته. هكذا وقف عادل حسين في ندوة «العروبة والإسلام» يرد على اعتراض من اعترض على ميل أكثر المتدخلين في الندوة إلى عدم التمييز بين الاستعمار الغربي والثقافة الغربية، فقال: «تأتي هنا قضية أثارها أحد الأخوة وتستحق أن نقف عندها: لقد دهش من النقد الحاد والعداء الموجه للغرب. وحقيقة أنا أدهش لدهشته: من نعادي إذا لم نعاد الغرب؟ يقول صديقي<sup>(1)</sup>: إننا نعادي في الغرب الاستعمار، نعادي في الغرب التسلسط، ولكننا لا نعادي في الغرب الثقافة. وأتساءل: هل يمكن أن يكون الاستعمار وأن يكون التسلسط وأن يكون التحكم بعيداً عن الثقافة؟ إن الثقافة التي نشأت في الغرب والتي صُنِّرت إلينا بأشكال مختلفة من التحايل كانت تهدف إلى تشويه عقولنا وإقناعنا بقبول التبعية. فإذا لم نتمرد على هذه الثقافة، فلا يمكن أن نخرج من التبعية. وعلى هذا فإنه يشرفني أن أكون معادياً وناقداً حاداً للثقافة الغربية»<sup>(2)</sup>.

ويذهب هذا المذهب عنه ممثل آخر للسلفية المحدثنة - منير شفيق - في دعوته القوى الاجتماعية، للمرشحة في تصوره للقيام بدور «الأصالة»، إلى شن «مقاومة ضارية ضد الحضارة الغربية، وليس ضد السيطرة السياسية

---

1. هو أسد غندور الذي ولقته الشجاعة منفرداً في الندوة ليفكر بصوت عال بما يلت «مستحيلاً للتفكير فيه» في الخطاب العربي المعاصر: «إنني أرى هجوماً صاعقاً وحاداً على الغرب، وهذا مبرر أحياناً وفي حدود كثيرة. ولكن أيها السادة إذا كان الغرب يعني لكم الثقافة الغربية، بما هي ثقافة تقدم ونهضة وتحديث وخلق الإنسان الكوني، الإنسان الإنساني، الإنسان الهدف والمحرك في كل عمل أو تحرك أو توجه من أعمالنا وتحركاتنا وتوجهاتنا، فإنني أنا مع هذا الغرب، وإنني أسجل له كل شكر وامتنان لأنه لولا الغرب هذا لما دخلت علينا مفاهيم عديدة نحن بأمرس الحاجة إليها ونرى فيها خلاصنا من الانهيار والاحتطاط الذي نعيشه، ونرى فيها رداً عقلانياً على كل مظاهر التخلف والتأخر والاستبداد للثقافة، ونرى فيها سلاحاً حاداً في مواجهة عدونا للتاريخ القومي وكل أعدائنا الإمبرياليين. لقد أهمل الأخوة [المتدخلون] الغرب كمستعمر سياسي واقتصادي وعسكري وصبوا كل اهتمامهم على ما هو إيجابي في الغرب، على ما هو إيجابي من تأثيرات الغرب علينا، على الثقافة الغربية الحديثة، الثقافة القومية الديمقراطية العلمانية، وهذه مفارقة عجيبة» (العروبة والإسلام علاقة جنلية، ص100).

2. في: العروبة والإسلام علاقة جنلية، ص103.

والعسكرية والاقتصادية فقط<sup>(1)</sup>. وهذه «المقاومة» هي في الواقع تسمية إيجابية لعملية سلبية خالصة هي «القطيعة الحضارية»: إذ ليس المطلوب أقل من «قطع التواصل مع نمط الحداثة التابع للهيبن»، وتطهير الذات من «سوموم التغريب الفكري» والانسلاخ «انسلاخاً كاملاً» عن «أرض الحداثة الغربية»، و«توقف اللهاث وراء الحضارة الغربية»، الموسومة والموصومة معاً بـ«الحضارة الفرنجية»<sup>(2)</sup>. ومنعاً لأي تجسير محتمل للهوة بين «الأصالة» و«الهجانة» يفرد داعية القطيعة للحضارية «باباً»<sup>(3)</sup> بعنوان «في رفض الانتقائية بين التراث والحداثة الغربية» يخصصه بكامله للرد على أصحاب «الاتجاه التوفيقى» الذي يدعو إلى «الأخذ من التراث ما هو صالح، والأخذ من التحديث ما هو صالح» بحيث «لا ينفلق في عالم للتراث والسلفية فينسلخ عن الحداثة، ولا يفتح على التحديث والتغريب إلى حد الانسلاخ عن التراث»<sup>(4)</sup>. وكما وجدنا المحلل النفسي والإناسي للذات العربية يتصدى لمحاكمة هذا الاتجاه دون سواء لأنه يمثل «القطاع الأوسع» و«التيار الأقوى في الممارسة»، كذلك، فإن داعية القطيعة الحضارية

1. شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص 42.

2. لنقرأ أمثلي المطفية المحدث بأهم يمارسون إستراتيجية التسمية بكاء. فهم لا يكتفون بأن يقلبوا الموقع السلفي الخاسر في هذه الإستراتيجية إلى موقع رايح، وذلك بإطلاقهم على ما كان يعرف في عصر النهضة بـ«التقليد» اسم «الأصالة» و«التراث»، بل يقبلون أيضاً موقع التجديدين الرايح إلى موقع خاسر بتعميدهم «التمدن» و«التقدم» و«التجديد» و«التحديث» باسم «التغريب» ذي الوقع الجارح للشعور بالهوية، إذ تشاء المصادفة اللغوية أن يعني للتغريب لا صيرورة المرء غريباً فحسب Occidentalisation، بل صيرورته أيضاً غريباً ومستلباً عن ذاته Aliénation. والحال أن مؤلف الإسلام في معركة الحضارة، إذ يصر على تسمية الحضارة الغربية بالحضارة للفرنجية، فإنما ليمنغ «التحديث» بأنه «فرنجة»، وهو مفهوم سلوكي مردول في الوعي الشعبي العربي، وليربطه في الوقت نفسه بواحدة من أكثر الذكريات الصالمة اعتماداً في الشعور واللاشعور الجمعي العربي: الحملات الصليبية التي تحتل مواقعها في الذاكرة التاريخية باعتبارها حملات «فرنجية».

3. تكريماً لهذه القطيعة الحضارية يقسم مؤلف الإسلام في معركة الحضارة كتابه إلى «أبواب»، على طريقة القدامى، ويكرر في عنوان كل فصل عبارة «باب في...»، وهما منه بأنه يكون بذلك أقرب إلى روح التراث وأبعد عن لونة الهجانة.

4. شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص 121.



يتصدى لتفنيد حجج دعاة الانتقاء والمزج الحضاري دون سواهم لأن الاتجاه التوفيقي الذي يصدر عن «الاتجاه الأقوى في الدفاع عن العلمنة أو الحداثة». على اعتبار ذلك لأن هذا الاتجاه، في نفاعه الانتقائي عما يرى أنه «جيد وإيجابي» من حضارة الغرب دون ما هو «رديء وسلبى»، «لا ينطلق من مواقع تعلن العداء للتراث»، الأمر الذي يكسبه مصداقية و«قدرة ما في المواجهة» لا يحظى بمثلها الاتجاه التغريبي الجذري للمعادي للتراث والقاتل بالأخذ «الابتلاعي» عن «الحضارة الفرنجية». وإنما تداركاً لخطر هذا الاتجاه التوفيقي، وإثباتاً لبطلان إشكاليته – التي هي بالإجمال إشكالية عصر النهضة نفسه – يصوغ داعية القطيعة الحضارية نظرية تطهيرية في فلسفة العلاقة – أو اللاعلاقة بالأحرى – بين الحضارات أقرب ما تكون في منطقتها إلى منطق آلية الاغتسال القهري في العصاب الوسواسي. فكما أن المصاب بهذا العصاب يميل في بعض الحالات إلى تبني «رؤية كلية» تنزل الجزء منزلة الكل وتسبغ عليه طابعاً مطلقاً، فيعتقد أنه إذا ما تلوث بدنه في موضع من مواضعه – وليكن يده مثلاً – فلا بدّ له من غسل بدنه كله، وأنه إذا ما غسل بدنه كله ونسي جزءاً، ولو موضعياً منه، فكأنه ما اغتسل للبتّة، كذلك ينزع داعية القطيعة الحضارية إلى تبني «مذهب كلي» لا يقر بجزئية الجزء، ولا يعترف به جزءاً ولو من كل، بل يماهيه مع الكل ويراه بحد ذاته كلاً، وهو ما يعني على صعيد فلسفة التطهر الحضاري:

1. إن الأخذ (التلوث) بجزء من حضارة ما يعني أخذها كلها.
  2. إن الاغتسال من هذا التلوث الجزئي – الذي هو بالضرورة والتعريف كلي – لا بد أن يكون كلياً.
  3. إن التصدي بالمقاومة لذلك الجزء يقتضي خوض حرب كلية ضد كل الحضارة التي جاء منها التلوث الجزئي – الكلي.
- وبالعودة إلى إشكالية التماهي الجزئي مع الحضارة للغربية كما صاغتها غالبية اللنضوبيين العرب المنضوبين تحت لواء «الاتجاه التوفيقي»، فإن هذه «الرؤية الكلية» تعني:

1. أن الأخذ الجزئي عن الحضارة الغربية هو، في أول المطاف وفي نهاية المطاف، غير ممكن، لأن اقتباس التقنية الغربية يعني اقتباس جملة الحضارة الغربية؛ إذ ما دلم «الأمر يتعلق بالنظرة الكلية»، وما دامت العلوم والتقنيات في الحضارة الأوروبية... جزءاً لا يتجزأ من تلك الحضارة»، فإنه من غير الممكن الأخذ بـ«ما توصلت إليه الحضارة الفرنجية للمعاصرة من اكتشافات علمية وتقنيات» بدون الأخذ بـ«النسق الحضاري بأسره، بما في ذلك طراز النظام القائم». فالعلوم والتقنيات لا تنتقل من حضارة إلى حضارة بدون «تأشيرة دخول». والحال أن رسم هذه التأشيرة ليس أقل من «التغريب الكامل»<sup>(1)</sup>.

2. ما يصدق على التقنية في الأخذ يصدق على الاستعمار في الرفض. فيما أن الاستعمار هو جزء من الحضارة الغربية، وبما أن الجزء هو الكل، فإن رفض الاستعمار الغربي يقتضي رفض كل حضارة الغرب. أما ذلك الذي لا يرى الكل الذي هو في الجزء، ولا يرى في الاستعمار أبعاده الحضارية الكلية التي «تتعدى الجوانب الاقتصادية والسياسية والعسكرية»، ولا يريد أن يحارب سوى الاستعمار الغربي دون الحضارة الغربية، فإن يستطيع أن يشن حرباً شاملة ضده، ومن ثم أن يتمكن من تحقيق النصر ضده». فعندما «نخوض جزءاً من المعركة» بدون أن نخوض المعركة كلها، فلا مفر من أن «نهزم في الأجزاء الأخرى، وبهذا يعود [الغرب] فيسلب النصر الذي نحققه في ذلك الجزء»<sup>(2)</sup>.

3. «بكلمة، إن معالجة جزئية لحرب شاملة تؤدي إلى خسارة الحرب مهما أحرز من نجاح في هذه المعركة أو تلك. فالحرب الشاملة التي شنت ضدنا لا تواجه إلا بالحرب الشاملة»<sup>(3)</sup>. ولأن هذه «الرؤية الكلية» ظلت

---

1. المصدر نفسه، ص 63-69. ولا ننكر أن داعية القطيعة الحضارية يضع إصبعه هنا على نقطة ضعف أكيدة في الإشكالية للنهضوية كما صاغها الاتجاه للتوفيق: فالتقنية غير قابلة للاستهلاك كالثمرة مقطوعة من شجرتها الحضارية.

2. المصدر نفسه، ص 9.

3. المصدر نفسه.

غائبة عن أولئك الذين «وقفوا سياسياً ضد الاستعمار والأمبريالية»، فقد ظلوا يتخبطون «في أحضان التبعية». والواقع أن «التخلص من الاحتلال العسكري وإسقاط حكومات العملاء وتأمين الشركات والبنوك الأجنبية» لا «يؤدي إلى تحقيق الاستقلال وحماية البلاد من العودة إلى الوقوع تحت السيطرة». فما دامت «الهيمنة شاملة تتعدى تلك الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية، يغدو من المحال الإطاحة بالتبعية ما لم تضرب السيطرة ضربة شاملة، ورفض للتبعية رفضاً شاملاً، وهذا لا يكون إلا إذا خرجنا من الغرب بكل مدارسه... وحققنا استقلالنا الحضاري والثقافي وخلعنا عنا ما فرضه الغرب علينا من أتماط حياة ومعايير ومفاهيم ونظريات وأخلاق وفلسفات»<sup>(1)</sup>.

وكان هذه الحرب الهجومية الشاملة على جبهة الحضارة الغربية لا تنفي بالغرض المطلوب بالنسبة إلى داعية القطيعة الحضارية الكلية، لهذا نراه يعززها بحرب موازية من نمط تحصيني ودفاعي على جبهة الحضارة العربية الإسلامية. فإن تكن إستراتيجية النهضويين العرب التوفيقية، القائمة على التماهي الجزئي والعداء الجزئي للغرب، إستراتيجية باطلة بحكم الماهية الكلية للجزء، مما لا يترك خياراً آخر سوى التماهي الكلي أو العداء الكلي، فإن الماهية الكلية المصممة للنمط الحضاري الإسلامي تمنع تطعيمه بأي عنصر من نمط حضاري مغاير مهما تكن درجة جزئيته. وهكذا يطن داعية القطيعة الحضارية، ودوماً من مطلق «النظرة الكلية»، أن التمازج الحضاري الجزئي الذي ينشده التوفيقيون هو «في نهاية المطاف غير ممكن، لأن الإسلام لا يقبل المزج بما هو غريب عنه، فكيف حين يكون مضاداً له مثل الحال مع الحداثة الغربية؟ وبناء عليه، فإن أولئك «الذين يتبنون أية نظرية من النظريات الفلسفية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي قامت بها هذه المدرسة أو تلك من مدارس الغرب يقيمون بالضرورة حاجزاً بينهم وبين الإسلام»<sup>(2)</sup>.

1. المصدر نفسه، ص 195-198.

2. المصدر نفسه، ص 122، وكذلك في: القومية العربية والإسلام، ص 673.

وإذ يشطب داعية القطيعة الحضارية على هذا النحو بجرّة قلم على واحدة من أهم السمات التي صنعت عظمة الحضارة العربية الإسلامية، وهي انفتاحها الحضاري على الحضارات السابقة لها والمعاصرة لها، لا يتردد، إحصائياً لغلق دائرة القطيعة، في أن يفرد «باباً في علاقة الحضارات ببعضها» لينفي هذه العلاقة، وليقرر أن كل حضارة دارة مغلقة، وأن التفاعل الحضاري أسطورة ملفقة لدواعي مقتضى الحال، وأنها لكاذبة «تلك الموضوعة القائلة إن الحضارات تقوم على بعضها.. وإن ما من حضارة إلا تتفاعل مع الحضارات الأخرى وتتبادل الإخصاب وإياها»<sup>(1)</sup>.

وتوكيداً لهذه النزعة النفية بصدد التفاعل ما بين الحضارات لا يتردد داعية الانغلاق الحضاري في الإقدام على خطوة يَعرِّضُ نظيرها في الخطاب العربي الحديث والمعاصر، إذ يبادر بكل بساطة، ونزولاً عند حكم منطق فلسفته الانغلاقية، إلى أن ينزع عن الجرح الذرجسي العربي واحدة من أنجع ضماداته ليؤكد أنه، خلافاً لكل دعاوى المدعين، سواء أمن الرافضين للحضارة الفرنجية والداعين إلى مقاومتها أم من القائلين بالتماهي الجزئي مع الجانب التقني على الأقل من حضارة الغرب، فإن الحضارة الغربية لم تتأثر، وما كان لها أن تتأثر، بالحضارة العربية الإسلامية بحكم التضاد في الروح بينهما وبحكم الدائرة المغلقة التي يتحرك ضمنها مسار كل حضارة. وهكذا يقول في معرض تنقيده الموضوعة «الخلافة» القائلة بتفاعل الحضارات فيما بينها وبالأخذ عن بعضها بعضاً:

«إن هذه الموضوعة واسعة الانتشار حتى في أوساط بعض الذين يرفضون الحضارة الفرنجية ويدعون إلى مقاومتها. وهذا ما يلمسه المرء حين يستمع لتفاخرهم باقتباس أوروبية للحضارة العربية الإسلامية، أو لاعتمادها على العلوم التي ازدهرت في ظلها. وتستخدم هذه الفكرة من قبل البعض من منطلقات أخرى وهي إغراء جماهيرنا ومتقفيها للأخذ بالحضارة الفرنجية باعتبار أن ذلك هو القانون في نهضة الحضارات... ولكن السؤال: هل من الصحيح أو الثابت تاريخياً أن الحضارات تقتبس من بعضها أو تتراكم فوق

1. المصدر نفسه، ص 62.

بعضها... أم أن لكل حضارة مساراً يمضي ضمن سياق خاص، كما لكل منها قوانينها الداخلية التي تتحكم في حركتها؟... وبالمناسبة كثيراً ما نسمع عن أخذ أوروبا للعلوم والتقنيات عن العرب والمسلمين إبان نهضتها، وذلك كنيل على اعتبار العلوم والتقنيات مشاعاً إنسانياً، وهو «كالشمعة التي تنتقل من يد إلى أخرى». وفي الواقع أن الألوان لأن يدق في هذا الأمر ولا يؤخذ على علاقته، وذلك على الرغم مما يحمله من إغراء للمسلمين حين يقال لهم إن الغرب أخذ عنهم العلوم والتقنيات وبنى عليها ما نراه اليوم من تقدم وحضارة تبهر الأبصار وتعمي البصائر... في الحقيقة، كل من يدق في منهج ابن سينا الطبي... سيد أن ما فعله للفرجة المعاصرون في الطب مضى في الطريق المعاكس ولم يؤخذ عن ابن سينا إلا بعض القوانين العلمية والتقنيات. فطب ابن سينا أو الرازي، على سبيل المثال، كان ينطلق من وحدة بين الفرد والمجتمع والروح والعقل والجسد والطبيعة والبيئة، وكان يعالج الأمراض في ظل هذه الوحدة وبالاعتماد عليها... بينما ذهب الطب في الغرب باتجاهات وحيدة الجانب وأحدثت طلاقاً فيما بين تلك الجوانب التي كان يراها طب الرازي وابن سينا موحدة... الشيء نفسه يمكن أن يلحظ في مختلف المجالات العلمية والتقنية واتجاهات تطورها، بل في الاتجاهات الفلسفية أيضاً. وعلى سبيل المثال، كثيرون يتحدثون عن اقتباس الغرب عن ابن رشد - بالرغم من تحفظنا على الكثير من أفكاره - ولكن ماذا أخذوا فعلاً عن ابن رشد؟ لقد أخذوا الجانب الأرسطي ورموا بعيداً بكل ما هو وليد الحضارة الإسلامية. أي أنهم استعادوا أرسطو واستعادوا الفلسفة اليونانية من خلال ابن رشد. أما ابن رشد نفسه فقد لفظوه كما تلفظ النواة. لأن فلسفة النهضة الأوروبية وتطوراتها حتى الآن لم تشكل تواصلًا مع ابن رشد أو الرازي أو ابن سينا، وإنما تواصلت مباشرة مع الفلسفة الإغريقية وسارت ضمن خطوط أخرى تختلف تماماً عن الخطوط التي سارت عليها الفلسفة في ظل الحضارة الإسلامية<sup>(1)</sup>.

1. المصدر نفسه، ص 62-69. ونلاحظ أن النص يعاني من تلقضين، ولحد مباطن له، وآخر مُخارج. وفيما يتصل بالتلقض الأول، الداخلي، كنا رأينا أن داعية القطيعة الحضارية يبني تقليده لحجج «الاتجاه لتوفيقي» على مصادرة تقول، انطلاقاً من ماهية الجزء»

وحتى ندرك مدى تضاد هذه النزعة الاتغلافية الحضارية، التي لا تتعقل العلاقة بين الحضارات إلا بلغة «الحرب الشاملة ضد الحرب الشاملة»، مع النزعة الانفتاحية لعصر النهضة، حمينا أن نعتقد مقارنة سريعة بين ما يمكن اعتباره أول رائد نهضوي - ونقصد رفاعة رافع الطهطاوي - وبين من يمكن أن يكون آخر من تصدى في الخطاب العربي المعاصر لإرساء «إستراتيجية حضارية جديدة» - ونعني أنور عبد الملك مؤلف «ريح الشرق». فمؤلف «مناهج الألباب المصرية في مباحث الآداب العصرية»، الذي عاش وكتب في عصر كانت فيه حركات الإحياء السلفي تحذر من مخالطة الأوروبيين الموصومين في الغالب بأنهم من أهل «الكفر»، لم يتردد في الدعوة إلى مخالطتهم والأخذ عنهم - ولو بتقيد - واصفاً التفاعل معهم فيما لا يخالف الشرع والدين بأنه مثل «المغناطيس الذي يجلب المنافع»، لأن «مخالطة الأعراب، لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجائب»<sup>(1)</sup>. ولئن كالمديدح لمحمد علي ولئن ذكره ولقبه بالمقتوني الثاني، فلأنه قاد مصر على طريق التقدم وأعاد وصلها بالعالم، ولاسيما بجناحه الغربي المنتقم: «فلو لم يكن لمحمد علي من

---

«بالكل، بأن المزج الجزئي مستحيل، مثمنا هو مستحيل أخذ التقنية بدون روحها وروح كل الحضارة التي أنتجتها. والحال أنه إذا صح أن الغرب لم يأخذ عن ابن سينا والرازي سوى «بعض القوانين العلمية والتقنيات» ولم يأخذ المنهج والروح، فقد تفقد إذن من تلقاء نفسه التقليد الذي يبينه داعية القطيعة للحضارة وثبتت سلامة منطق أصحاب الاتجاه التوفيق في مطالبهم، هم أيضاً، بأخذ الصناعات والتقنيات، أو ما سماه الطهطاوي بـ«العلوم البرزانية»، عن الحضارة الغربية دون روحها وفلسفتها الداخلية.

والنص، بعد، لا يتناقض مع نفسه فحسب، بل كذلك مع نص آخر للمؤلف ينكر فيه، على الطريقة التفاضلية إياها، بميدونية الغرب للتراث العربي الإسلامي، فيقول بالحرف الواحد: «يمكن القول إن كل ما جاء به روجر بيكون وفرنسيس بيكون في مجال العلوم المادية والرياضية لم يزد حرفاً واحداً عما أرساه العلماء العرب في هذا الميدان من أمثال الرازي وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم. وكان الأمر كذلك بالنسبة لما يسمى اليوم بالعلوم الإنسانية حين أرسيت قواعد وموضوعات منهجية على درجة عالية من العمق في دراسة التاريخ والاجتماع والنفس ومباسة الدول والاقتصاد» (المصدر نفسه، ص37).

1- رفاعة رافع الطهطاوي، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973)، للجزء الأول، ص398.

المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبية، بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والمنين الحديدة، لكفاه ذلك. فلقد أذهب عنها داء الوحشة والافتراء، وأنسها بوصول أبناء الممالك الأخرى والبلاد، لنشر المنافع العمومية، واكتساب السبق في ميدان التقدمية<sup>(1)</sup>. ولكن بعد قرن ونيف من رسم المسودة الأولى لهذه الإستراتيجية الحضارية الانفتاحية، وبعد أن أزيلت من خريطة الوعي البشري الحدود التي كانت تفصل بين ديار «الكفر» وديار «الإيمان»، يأتي مصمم «الإستراتيجية الحضارية الجديدة» ليدعو إلى رسم الحدود من جديد لتفصل هذه المرة بين ديار «الغرب» وديار «الشرق» فصلاً أشد بترأً وتنافياً حتى من ذلك الذي كان أملاه لاهوت القرون الوسطى الكلي التشدد والقطعية، وليطالب بإغلاق جميع بوابات العبور التي يمكن أن تربط بين العالمين اللذين لا يربط بينهما سوى تنافي «الشر» و«الخير» وتضادهما المانوي المطلق، وليحرض على شن حرب تصفية وإيادة شاملة ضد كل ما يمكن أن يكون تسرب من العالم الأول إلى العالم الثاني خلال ذلك القرن النهضوي الانفتاحي «المشؤوم» من قرون «الصراع المصري» - التي تزيد على الخمسين عدداً - بين «ريح الغرب» الإبلية و«ريح الشرق» القدسية. وإنما بدالة هذا «التناقض الرئيسي» في «الحرب الحضارية المصرية» ينبغي «أن نعمل في آن واحد على إغلاق حدودنا القومية أمام للصهيونية والاستعمار»، وأن نقيم «جبهة وطنية متحدة تمثل مفهوم العروة الوثقى في عصرنا وتشمل الجميع باستثناء فئة قليلة من المتعاملين مع الاستعمار السياسي والحضاري»، وأن «نقتلع دون هوادة كافة الجذور والجراثيم التي تثبت سم التبعية الفكرية تحت ستار التحديث<sup>(2)</sup>. وإنما عن طريق هذا «الانغلاق في وجه العدو الحضاري الخارجي» وهذا «الانفتاح في الداخل» على جميع القوى المعادية «للاستعمار الحضاري» و«لعملائه الحضاريين» اللذين «تمكن الغرب من توليتهم المكانة الأولى في الحياة الثقافية، بل وأحياناً كثيرة في الحياة الاجتماعية والسياسية في الأمة العربية، فأصبحوا أبواقاً للثقافة الغربية

1. المصدر نفسه، ص 441-442.

2. عبد الملك، ربح الشرق، ص 130.

باللغة العربية، وأصبحوا يتحدثون عن الإسلام بلغة المستشرقين، وعن الأمة العربية بمنظور الاستعمار الثقافي»، يمكن أن نخوض بنجاح «المعركة الحضارية الشاملة ضد الاستعمار الحضاري»، وأن ننزع من الغرب «مفاتيح المبادرة التاريخية» لنؤسس أنفسنا في «مركز القوة العالمي الجديد» ولنقدم للعالم «نمطاً أو مشروعاً حضارياً مغايراً للنمط الغربي بنوعيه، الرأسمالي الغربي من ناحية، والاشتراكي الأوروبي الشرقي من ناحية أخرى»<sup>(1)</sup>.

وبصرف النظر عن الطابع الهذلي الجلي لهذا التضخم المفرط في الطموح الحضاري، وبغض النظر أيضاً عن أن المحاولة الوحيدة التي جرت في التاريخ المعاصر لإغلاق الحدود في وجه «العدو الحضاري الخارجي»، ولاقتلاع «الجراثيم» التي تبث سم التبعية الفكرية» لثقافته كانت تلك التي شهدتها كمبوديا في عهد الخمير الحمر بقيادة بول بوت والتي أخذت شكل قيادة جماعية لمئات الآلاف من «عملاء الغرب الحضاريين»، فإن ما يذهل في النص أعلاه من حيث الجرأة النظرية تركيبه المزجي بين «الاستعمار» و«الحضارة»، وصياغته بالتالي لمفهوم «الاستعمار الحضاري».

والواقع أن إيديولوجي الحقبة الكولونيالية الغربيين كان سبق لهم، هم أنفسهم، أن قرنوا بين الاستعمار والحضارة، وتحدثوا عن «استعمار حضاري»، أو «تحضيري» بالأحرى. ولكنهم ما فعلوا ذلك إلا كمحاولة لتبرير الاستعمار في نظر أنفسهم وفي نظر الشعوب المستعمرة على حد سواء. أما حديث مؤلف «ريح الشرق» عن «الاستعمار الحضاري» فغرضه ليس تبرير الموصوف، بل - على العكس - تبخيس الصفة. فالمطلوب هذه المرة هو رأس الحضارة. ولئن قرنت بالاستعمار، أي بذكرى صادمة وبخبرة تاريخية جارحة للغاية بالنسبة إلى العرب كما إلى معظم شعوب العالم الثالث، فإنما لإدانتها ولتحميلها بشحنة وجدانية سلبية من شأنها أن تحرر بصورة آلية ولاشعورية لدى المتلقي شحنة مضادة من الكراهية والعداء.

1. المصدر نفسه، ص 73، 130، 166، 252 و259.



وعلى هذا النحو، وعلى خلاف الخطاب النهضوي الذي ما تحدث إجمالاً إلا عن الاستعمار العسكري بمفهومه كاحتلال أجنبي، وعلى خلاف الخطاب الثوري الذي انتقل ابتداءً من مرحلة الاستقلالات إلى التركيز على الاستعمار بمفهومه الإمبريالي الجديد كظاهرة نفوذ سياسي وهيمنة اقتصادية، وعلى خلاف الخطاب التنموي الذي شدد على التبعية الاقتصادية باعتبارها آخر موروثات الحقبة الكولونيالية، فإن الخطاب النكوصي المعاصر يضع في رأس أولويات عدائه ما سماه في البداية بـ«الاستعمار الفكري» و«الاستعمار الثقافي» وما انتهى إلى تسميته - على ما في ذلك من مفارقة - بـ«الاستعمار الحضاري». وعلى معهود عاداته في الممارسة الدبلوماسية لإستراتيجية التسمية، فإنه يحول أيضاً مفهوم «التبعية» عن منطوقه الاقتصادي ليعطيه معنى شديد الجارحية نرجسياً، ألا وهو معنى التبعية الفكرية والحضارية<sup>(1)</sup>.

على هذا النحو يتحدث ممثل السلفية المحدث عن «الهجمة الحضارية الغربية الكاسحة التي تقتحم في بلادنا الدور والرؤوس» وعن «استمرار التدفق الثقافي والحضاري الغربي واكتساحه مقومات التميز القومي، وذلك لصالح الهيمنة الغربية السياسية والاقتصادية والفكرية»<sup>(2)</sup>. وبدوره يحذر ممثل السلفية السياسية من «الآثار المدمرة للغزو الفكري والروحي للحضارة الغربية... وللهجمة الغربية للفكرية التي صاحبت وأعقبت الهجمة العسكرية»<sup>(3)</sup>. بينما يحذر ممثل آخر للسلفية السياسية من السقوط في «حضيض الهزيمة الحضارية المدمرة... والتبعية الفكرية والروحية الكاملة للحضارة الحديثة»<sup>(4)</sup>.

1. من الواضح أن هذا التحوير في معنى التبعية من شأنه أن يحول مطلب «الاستقلال الاقتصادي» المشروع إلى مطلب مثير للاقتباس، إن لم نقل إنه يسوق الماء إلى طاحون الانغلاقيين الحضاريين، وهو مطلب «الاستقلال الحضاري»، أو ما رأينا محمد عابد الجابري يسميه أيضاً بـ«الاستقلال التاريخي التام للذات العربية».

2. طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية (دار الوحدة، بيروت 1982)، ص 703-704.

3. للفنوشي، مقالات، ص 183.

4. عبد الحليم عويس، «موقف الفكر الإسلامي للمعاصر من الحضارة الحديثة»، في: ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص 179-180.

ولكن تداول مقولة «الاستعمار الحضاري» ومرادفاتها لم يعد محصوراً بالتيارات السلفية، التقليدية منها والمحدثة، بل أضحي - وهذا ما يدلنا على أننا أمام ظاهرة هي أقرب ما تكون إلى اللوباء النفسي - رائجاً حتى في خطاب ممثلي التيارات القومية المنفتحة بقدر أو بآخر على الحداثة وحوار الثقافات. وعلى هذا النحو لا يتردد مؤلف «مجتمع النخبة» في الحديث عن «الغزو الثقافي والحضاري الأجنبي» وفي إدانة ما يصر على تسميته - مع باقي دعاة الانغلاق الحضاري - بـ «التبعية الثقافية» باعتبارها تجسداً لغلبة «الثقافة الهجينة» - التي هي «ثقافة النخبة» - على «ثقافة الشعب»، وتعبيراً مضاداً لروح الشعب عن «تبعية الطبقة العليا وتأثرها بالبورجوازية الغربية» على قاعدة «التغريب الكامل»<sup>(1)</sup>. ولا يكتفي ممثل بارز للاتجاه القومي العربي المعقلن بالكلام عن «التلوث الثقافي والاستلاب الثقافي» نتيجة لـ «طغيان النموذج الغربي» فحسب، بل لا يحجم أيضاً حتى عن الحديث عن «غائلة الإمبريالية الثقافية التي تكون شكلاً متقدماً من الإمبريالية السياسية»<sup>(2)</sup>. ويغلو ممثل بارز أيضاً للاتجاه القومي العربي الإسلامي في هذا المنحى فيتحدث عن «الإمبريالية الحضارية» بوصفها «السلاح الجديد للقوى الإمبريالية لإحكام قبضتها على الشعوب»<sup>(3)</sup>. على أن ممثل السلفية اليسارية هو من يذهب، في مشروعه لـ «تحدي الحضارة الغربية»، إلى أبعد مدى في عملية أئمة مفهوم «الاستعمار الحضاري»: «فإن كان الأفغاني قد نبه من قبل على الاستعمار العسكري المتمثل في الاحتلال، وكنا في أوائل القرن قد أدركنا مخاطر الاستعمار الاقتصادي المتمثل في شركات الاحتكار الدولية، كما حاولنا التنبيه على مخاطر الاستعمار الثقافي بلفظ كل شيء سوى مقولات الدين، فإن «اليسار الإسلامي» ينبه على مخاطر الاستعمار الحضاري، أي تفريغ الحضارة من

1. برهان غليون، مجتمع للنخبة (معهد الإمام العربي، بيروت 1986)، ص 207-221. وانظر أيضاً: الوعي الذاتي، ص 108.

2 عبد الله عبد الدائم، في سبيل ثقافة عربية ذاتية (دار الأدب، بيروت 1983)، ص 11 و 35.

3 عصمت سيف الدولة، عن العروبة والإسلام (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1986)، ص 334-335.

دخلها عن طريق القضاء على انتساب الأمة لها حتى تجتث جنورها التي تمدها بأسباب حياتها ويدوم استمرارها»<sup>(1)</sup>.

ويواصل مؤلف «الإسلام وتحديات الاحتفاظ المعاصر» العمل التطويري باتجاه أفقمة مفهوم «الاستعمار الحضاري»، فيصوغ قانوناً جديلاً غربياً يقيم علاقة تناسب عكسي بين «الاستعمار السياسي» و«الاستعمار الحضاري»: فكلما خفّت وطأة الأول ازدادت ضراوة الثاني: «ففي مرحلة الاستعمار المباشر شنت حملات مباشرة تارة ومبطنة أطواراً أخرى ضد الإسلام... وعندما كان التغريب يفرض فرضاً كان من الواضح أن ذلك يتم بالرغم من إرادة الأمة... وحتى بعض قادة حركات الاستقلال من الفئات المتغربة كانوا في تلك المرحلة يحافظون على كثير من المظاهر الإسلامية... وعندما وصل هؤلاء إلى سدة الحكم في مرحلة الاستقلال خطوا بالبلاد خطوة إضافية على طريق التغريب الفكري... وتعميم النموذج الحضاري الفرنجي... وفرض التبعية... إن الحرب التي شنت ضد الإسلام ورجاله تواصلت ولكن من خلال قوى ترفع أعلاماً غير أعلام الاستعمار، بل تعلن عداها السياسي للاستعمار، مما جعل المعركة تزداد تعقيداً وغموضاً. فقد كان مفهوماً من الاستعمار المباشر ورجاله أن يحاربوا الإسلام وأهله، ولكن لم يفهم الشعب لماذا تواصلت هذه الحرب في عهد الاستقلال وفي العهود التي تلتها. بل لماذا ازدادت ضراوة... وازدادت السيطرة الاستعمارية كما ازدادت التبعية للخارج في مختلف المجالات؟»<sup>(2)</sup>.

وكما أن مفاهيم من قبيل «الاستعمار الحضاري» و«الغزو الفكري» و«الامبريالية الثقافية» هي مفاهيم متنافرة تجمع بين ضدين لا يمكن الجمع بينهما، هما الاستعمار والحضارة، الغزو والفكر، الإمبريالية والثقافة، كذلك فقد كان من المحتم، حتمية استدعاء المشكلة لحلها والسبب لترياقه، أن ترى النور مفاهيم للمقاومة وصد للغزو والعدوان، مبنية هي الأخرى على المزوجة الضدية، من قبيل مفهوم «الأمن الثقافي» الذي أخذ يروج

1. حنفي، للإسلام الإسلامي، ص 20-21.

2. شفيق، الإسلام وتحديات الاحتفاظ المعاصر، ص 104-108.

استعماله، في الآونة الأخيرة، في الخطاب العربي المعاصر<sup>(1)</sup>. فهذا المفهوم، المستمد مباشرة من قاموس الحرب الوقائية العسكرية أو الاقتصادية (الأمن الداخلي، الأمن القومي، الأمن الغذائي) يحدد تجاه الثقافة الأجنبية موقفاً سلبياً وحمائياً... وبالتالي إفقارياً بالنسبة إلى الثقافة الوطنية - تقوم «فلسفته» على «المنع» و«المصادرة» و«مكافحة التسلل والتخريب»، بله على «العزل» و«الحجر الصحي» و«التطهير» في حال ثبوت «التلوث الثقافي»، ناهيك عما تستلزمه هذه «الفلسفة» من جهاز تنفيذي هو بالضرورة ذو طبيعة قمعية: حرس حدود، رجال جمارك، دوريات تفتيش، عناصر استخبار ومكافحة، رقباء ومقصات رقباء، وما إلى ذلك مما يمكن أن يدخل في وظيفة «الشرطة الثقافية».

لكن إذا ودعنا هذه الصورة الكاريكاتورية جانباً، نجد أن لمقولة «الاستعمار الحضاري» جانباً مفجعاً في مأساويته؛ فهي إذ تضع الذات العربية في وضع التضاد المطلق مع الحضارة وتطالبها بأن تعادياها عداها للاستعمار والامبريالية، تحكم على هذه الذات بتمزق مأساوي، بل فصامي، يشل طاقتها على الإقلاع والانطلاق، ويحبسها في عنق زجاجة التاريخ الكوني، ولا يندرها لمصير آخر غير مصير الأوباد التي كتب عليها الانقراض لعجزها عن التكيف. وبكلمة واحدة، إنها تحكم على هذه الذات بالتخبط الخانق في حالة «انحباس حضاري». فعندما تدعى الذات إلى مهادنة الحضارة بالاستعمار - والاستعمار مرادف للنفي المطلق للذات - لا يعود أمامها إلا أن تقيم بينها وبين الحضارة علاقة تناف ذي حدين: فأى قبول منها بالحضارة سيكون بمثابة نفي للذات، وكل تأكيد منها للذات سيكون بمثابة نفي للحضارة. ولعل ما من شعب في التاريخ الحديث عانى

1. انظر شكوى فؤاد زكريا من رواج هذا المفهوم في مقال: «ثقافة بلا أمن»، العربي (نيسان-إبريل 1983) قال فيه: «وقع المخطور وأصبح تعبير «الأمن الثقافي» متداولاً على الألسن، وغدا التعبير شائعاً بين المعنيين بالسياسة الثقافية في بلانا. واكتمل إحساسي بالاستياء، وبلدني أحارب في معركة خاسرة عندما وجدت تعبير «الأمن الثقافي»، الذي لا أتوانى عن محاربته كلما ولتنتي الفرصة، يصبح هو نفسه، ولا شيء غيره، عنواناً لمؤتمر سيعقده وزراء الثقافة العرب في إطار المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم (خطاب إلى العقل العربي، ص36).

من مثل هذا الإحراج المأساوي المحبوس المخارج كالهنود الحمر. ولقد كان مصيرهم الإبادة والانقراض. ولكن لنن ولجه الهنود الحمر هذا الإحراج الانتحاري على أرض الواقع والتاريخ، فإن الذات العربية لا تواجهه لحسن الحظ. هذا إذا جاز الكلام هنا عن حسن حظ. إلا على الورق ومن خلال العين الإيديولوجية المعصوبة<sup>(1)</sup> لمنتجي الخطاب العربي المعاصر من حيث هو خطاب ردة ونكوص. ولا يعني هنا أن نخوض في حديث احتمالات أو فرص ترجمة منطوق هذا الخطاب إلى واقع، وما سيترتب من كلفة بشرية وثقافية باهظة على أي محاولة للمسير في طريق «القطيعة الحضارية» كإستراتيجية للمقاومة ضد «الاستعمار الحضاري». ولكن كل ما نود أن نلاحظه أن إستراتيجية القطيعة الحضارية هذه، التي تمليها مقولة «الاستعمار الحضاري» كترياق مضاد، تضع نفسها على طرفي نقيض مباشر مع الإستراتيجية الحضارية لعصر النهضة. فمقولة «الاستعمار الحضاري»، المتعاطمة الرواج في الخطاب العربي المعاصر، ليس من شأنها، في خاتمة المطاف، غير أن تحول الحضارة إلى موضوع غريب وعنصر شديد الأنية والعمية، وغير قابل بالتالي للاستدخال ولا للتمثل<sup>(2)</sup>، وبكلمة واحدة، إنها مقولة مائعة للأبيض الحضاري. والحال أن كل الإستراتيجية النهضوية لم تكن، في مختلف رواياتها وتلاوينها، إلا محاولة لتسهيل هذا الأبيض الحضاري. ولا يتسع المجال هنا لعرض شتى التخريجات التي اعتمدتها إستراتيجية الرواد النهضويين للفصل بين الحضارة وحاملها المستعمر، ولتحويلها إلى موضوع مقبول من الذات

1. بكلا المعنيين: المضروب عليها عصابة حاجبة للرؤية، والمصابة بعصاب.
2. لا ينتر. كما في الكثير من حالات رهاب الاستدخال. أن تشف رمزية الموضوع السُمي المثير للخوف والكره. وهنا الحضارة «الفرنجية». عن كونه، ككل موضوع مثير لخوف الاستدخال، ذا طبيعة قضيبية، وككل موضوع مثير للكره، ذا طبيعة شرعية. هكذا يتم الجمع بين صورة «السهم المسمومة» و«الروائح الكريهة» المعزوة إلى «الإفرنج» الذين لا بد من عزلهم والابتعاد عنهم ب«جدار ولق»، إذ «لا سبيل إلى ترك الحدود مكتشفة ولا إلى التفاضل عن روائحهم الكريهة، ولطماعهم، ونزواتهم القاتلة... وما لديهم من سهم مسمومة وحبال منصوبة» (د. عبد الحليم عويس، «موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الحضارة الحديثة»، في: ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص182-183).

وغير متناف معها، وقابل بالتالي للاستدخال والتمثل. ومن هذه التخرجات، كما رأينا، القول بأن الأخذ عن أوروبا إنما هو مجرد استرداد لما أخذته عنا. ومنها أيضاً التذكير بأن الذات ملزمة، بمقتضى قواعدها الذاتية، بطلب العلم «ولو في الصين». ومنها أيضاً إقامة علاقة تناف لا بين الذات والحضارة، بل على العكس بين الذات والانحطاط. فالانحطاط عرض عارض في حياة الذات وتاريخها، وهي إذا ما نهضت من عثرتها وتقدمت، ولو بالانقباس عن غيرها، فإنما تتضو عنها التأخر الدخيل عليها وتستعيد حالتها الأصلية التي هي بلغة الطهطاوي «التقدمية». وإنما في هذا المنحى جرى التأكيد، من خلال توظيف جنلي لصفة «الحقيقية»، على التطابق بين الإسلام والحضارة الحديثة، أو «المدنية» كما كان يؤثر الرواد النهضويون أن يقولوا، وذلك سواء باتجاه القول مع محمد عبده بأن «المدنية الحقيقية مطابقة للإسلام»، أو باتجاه القول مع تلميذه محمد فريد وجدي بأن «الإسلام الحقيقي مطابق للمدنية»<sup>(1)</sup>. وقد أوغل هذا الأخير في هذا الاتجاه إلى حد القول في كتابه ذي العنوان الدال: «المدنية والإسلام»: «إن كل ترقٍ يحصل في العالم، وكل خطوة تحطوها العقول في سبيل الكمال، ليس إلا تقريباً إلى الإسلام»، و«إن كل ما نتقراه من قواعد المدنية العصرية ليس بالنسبة إلى قواعد الديانة الإسلامية إلا كشعاع من شمس أو قطرة من بحر»<sup>(2)</sup>. وفي هذا السياق جرى التأكيد على وحدة الجنس البشري ووحدة العقل البشري، وهي الوحدة التي يؤكد لها منطق الخطاب القرآني ومنطوقه معاً. فيما أن الإسلام هو دين العقل، فكل ما يقبله العقل يقبله الإسلام. وعلى قاعدة هذه النزعة العقلية الكونية، ودوماً ضمن إطار المسعى إلى تخفيف التوتر بين الموروث الإسلامي والوافد الغربي، جرت محاولة واسعة للنطاق، وعظيمة الجدوى، لاستدخال المفاهيم الأساسية للفكر الغربي الحديث ولتبنيها عن طريق التوحيد بينها وبين ما هو قريب إليها من المفاهيم التقليدية للفكر

1. حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 199.

2. محمد فريد وجدي، المدنية والإسلام (القاهرة 1912)، ص 36 و 122. نقلاً عن فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث (المؤسسة العربية

للدراسات والنشر، بيروت 1981)، ص 400-402.

الإسلامي بعد إخضاعها لعملية تحويل في المعنى وتطوير في المدلول. «وعلى هذا المنهج لتقلب المصلحة تدريجياً إلى المنفعة، والشورى إلى الديمقراطية البرلمانية، والإجماع إلى الرأي العام، وأصبح الإسلام نفسه مرادفاً للتقدم»<sup>(1)</sup>. بالطبع هذا لا يعني أن التوتر لم يكن في الأصل شديداً، ولا أن الاختلاف لم يكن عميقاً، ولا سيما أنه ما كان، على حد تعبير أحمد أمين، «اختلافاً بسيطاً كالذي يكون بين أفراد الصنف الواحد، ولكنه اختلاف كبير كالذي يكون بين الأصناف المتعددة»<sup>(2)</sup>. ولكن من الممكن أن نقول، مع أحمد أمين كذلك، إن العملية النهضوية لم يكن لها من هدف آخر سوى صهر تلك «الخلاقات الكثيرة في بوتقة واحدة»، وإن «عمل المصلحين» لم يكن له من قولم آخر سوى «إشعال النار تحتها حتى يتم امتزاجها ويذهب زيدها»<sup>(3)</sup>.

والحال أن إستراتيجية اللأم والصهر هذه، التي كانت العنوان الأبرز في الخطاب النهضوي، هي التي يستعاض عنها اليوم، في الخطاب العربي المعصوب، بما يمكن أن نسميه إستراتيجية فك ارتباط. ولكن ليس بغية تخفيف التوتر كما في الحالات الحربية الفعلية، بل على العكس، بغية تشديد التوتر من جديد وتصعيده إلى تناف استقطابي مطلق بحيث لا يعود أي واحد من الحضارة الحديثة الموصومة بأنها «فرنجية» يقبل التطابق مع أي موروث من الحضارة العربية الإسلامية. وإذا عدنا إلى صورة صاحب كتاب «زعماء الإصلاح» قلنا إن منتجي الخطاب العربي المعاصر المضاد للنهضة لا دأب لهم، هم أيضاً، سوى «إشعال النار» وتأجيجها، ولكن هذه المرة بغرض فك اللحام وإعادة فرز ما التأم وانصهر. وعلى هذا النحو يصوغ ممثل السلفية المحدثه قانوناً للعلاقة بين «تيارات الفكر الموروث من جهة وتيارات الفكر الوافد من جهة أخرى»، هو قاتون المواجهة والصدام الذي هو - فضلاً عن ذلك - قانون صارم لو حادت عنه «شعوب المنطقة» المكتسحة بـ«التنقذ الثقافي والحضاري الغربي» قيد أنملة، ومالت به نحو

1. حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 179.

2. أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث (دار الكتاب العربي، دت)، ص 340.

3. الموضع نفسه.

التوفيق والمهادنة، لحكمت علي نفسها بأحاء الذات وبالإسماخ إلى «نوع من القدرة المَهرة، يقتنون بعضاً من الصنائع بغير انتماء ولا هوية»<sup>(1)</sup>.

وتأكيداً لهذه العلاقة الضدية التي هي العلاقة الوحيدة التي يمكن أن تجمع بين القطبيين المتنافيين، الموروث والوافد، لا يحجم ممثل السلفية التقليدية عن الطعن في واحد من أكبر وأثمن المبادئ التي أقرتها - مع الإسلام - البشرية المتحضرة، فيجاهر بعدم إيمانه بوحدة العقل البشري وينمغ هذه الوحدة بأنها مغالطة تغريبية: «لقد كان من أكبر المغالطات التي روجها التغريب والغزو الثقافي أن لا فرق بين العقل العربي والعقل الغربي... إلى غير ذلك من الادعاءات التي ردها دعاة التغريب في محاولة للتعمية عن الفوارق الذاتية والنفسية والعقلية الواضحة بين الثقافة العربية والثقافة الغربية، وبين المزاج النفسي الذي كونه جذور أساسية مستمدة من الإسلام في الأمة العربية، ومن الوثنية الإغريقية في الغرب»<sup>(2)</sup>.

ولئن مثلّ التعليم الحديث بمعناه الديمقراطي المعمم واحداً من أهم الانجازات التي تمخض عنها إقرار البشرية المتحضرة بوحدة العقل البشري، ولئن مثل هذا التعليم في الوقت نفسه العلة النهضوية الأولى التي عقد عليها جميع «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» بلا استثناء الآمال

---

1. البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، ص 650 و 704.  
2. الجندي، الثقافة العربية، ص 229. ومن المفارقات أن داعية آخر للقطيعة الحضارية بحذر على العكس من أن من يقول بالتمايز العقلي للعرب عن غيرهم من الأمم يلعب لعبة المستعمر الذي حاول تبرير استعمارهم باصطناعه مغالطة عدم وحدة العقل البشري: «في القرن التاسع عشر، مع بداية تأسيس الإمبرياليات الأوروبية المعاصرة، ظهرت نظرية تدعي أن تفكير الإنسان العربي شبيه بالبدائي، لأن ذهنيته خلسة ترفض الحرية والمسؤولية والمسببية، أما التفكير الغربي فمنطقي وعلمي وقابل للتجديد... هذا ما ادعاه المستعمرون عندما استولوا على أراضيها. ألم يؤكدوا، في الأنتولوجيات الخاصة بالعالم الثالث، أن للذهنية ذهنتان: الأولى تتحرك في مرحلة ما قبل المنطق وفي طور السير نحو اكتساب المنطق (بفضل الاحتكاك بالاستعمار)، وذهنية المنطق والإدراك العلمي للخالي من الخرافة والسحر؟... فالمفكرون الذين يلحون على أن للذهنية العربية بنيات خاصة تميزها عن بقية الأقاليم للبشرية إما يبررون، عن غير قصد، الأنتولوجيا المصنوعة بعون الاستعمار ولمصلحته، ضد الشعوب الضعيفة» (محمد عزيز الحبابي، في ندوة: للتراث وتحديات العصر، ص 105-106).



الكبار في تجسير الهوة بين التأخر والتقدم، والانتقال من حال الانحطاط إلى حال الحضارة، فإن هذا التعليم الحديث - الذي ما كان لولاه ليكون للنهضة من معنى - هو الذي يتخذ اليوم، في الخطاب العربي المعصوب، هدفاً للطنن والتجريح بحجة أنه ناتج «تغريب» وعامل «تغريب». فممثّل السلفية المحدثّة لا يتردد في أن يدين بجرة قلم ليس فقط كل «من تأثروا بالثقافة الغربية من أبناء البعثات أو مدارس التبشير أو المدارس المحليّة الحديثة»<sup>(1)</sup>، بل كذلك، وبالأصل، «نمو للتعليم الحديث» الذي لم يؤد إلا إلى «نمو نزعة التوجه الحضاري للغرب، كنزعة فكرية واكبت للزحف الغربي على الوطن العربي»<sup>(2)</sup>.

وانطلاقاً من أن «جانب الغزو الثقافي-الحضاري هو الأخطر والأشد فاعلية»، يشن داعية القطيعة الحضارية هجومه الأكثر تركيزاً على «التعليم الحديث» لأنه بدوره هو الجانب الأخطر والأشد فاعلية من جوانب «الغزو الثقافي-الحضاري»، لأن من شأنه أن «يجعل الغرب يدخل العقول والبيوت» ويقوض «أساسات استقلال الأمة ووحدتها وهويتها» من داخلها ويفرض «أفكاره وإيديولوجياته وثقافته وحضارته ونهج حياته وأنماطه المعيشية». فالتعليم الحديث هو نبت غريب استزرعه الاستعمار - بعد اقتلاع النبت الأصل - ليكون، في حال غيابه، وكيّله الحاضر أبداً وعامله الفاعل دوماً. وعلى هذا، «عندما اجتاحت الغرب بقواته العسكرية بلادنا وأحكم قبضته السياسية عليها، راح يعمل على تحطيم كل مقوماتها الأساسية التي تشكل استقلالاً عنه وبديلاً له، فأقام مدارسه وكيّلاته للتبشيرية والعلمانية وجامعاته الحديثة لكي يخرّج جيوشاً من المتقنين للموالين له، ممن ينسلخون عن ثقافة الإسلام ويتبعون ثقافة الغرب». وبالمقابل، «فقد ضرب المنقف الإسلامي والمدرسة الإسلامية»، وألغى «المنهاج الإسلامي من المدارس والتعليم» وعمل «على تحطيم كبريات الجامعات الإسلامية، إما بالإهمال، وإما بعدم

1. طارق البشري، «الخلاف بين للنخبة والجماهير إزاء العلاقة بين القومية العربية والإسلام»، في: القومية العربية والإسلام، ص286. والتسويد منا للإشارة إلى أنه يضمن على المدارس الحديثة، أي التي أنشئت بعد الاستقلال، حتى بصفة «الوطنية».

2. المصدر نفسه.

الاعتراف بشهادتها، وإما بالدعم الذي قدم للجامعات والمدارس ذات النمط الغربي». وشن «الغزاة الغربيون» «إرهاباً فكرياً ضد كل من يرفض الأنماط الغربية ويستمسك بأنماطنا الأصلية»، ف«عمدوا إلى الانقاص من قدر العلماء والمتفقيين الإسلاميين... وعملوا على إبعادهم عن المراكز العامة، بما في ذلك مراكز القضاء المدني والتدريس، وأحلوا جامعيين متغربين مكانهم يطبقون القانون الوضعي والمناهج العلمانية»<sup>(1)</sup>.

ولا يتردد ناقد «مجتمع النخبة»، وهو بالتعريف في نظره «مجتمع تغريب»، في تسديد أقسى ضرباته «للمدرسة العربية الحديثة» من حيث هي نتاج مباشر للتغريب ومصدر لإعادة إنتاجه في آن معاً. ف«تاريخ المدرسة العربية الحديثة، منذ قيامها على يد المبشرين الأوائل، يعكس الوظيفة الخاصة التي أنيطت بها. فهي تهدف، على صعيد التعليم أو نقل القيم، إلى انتزاع فئة المتعلمين من بيئتهم وربطهم بنمط فكري وحضاري آخر... وتخلق لامتياً مغترباً، معادياً للمجتمع، يعتبر تعليمه واسطة للصعود والترفع»<sup>(2)</sup> وأهلية للدخول وسط الحياة والتمتع بنمط الحياة الغربي الحديث»<sup>(3)</sup>.

واستراتيجية فك الارتباط الحضاري، الكامنة وراء تسعير حملة التشكيك في التعليم الحديث الناقل لجرثومة ما أمسى يسمى بـ«التبعية المدرسية»<sup>(4)</sup>،

1. شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص 198. وانظر أيضاً: الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر، ص 66.

2. لسنا ندري ما الذي يمنع أن يكون التعليم «واسطة للصعود والترفع»؟

3. غليون، مجتمع النخبة، ص 248 و 252. وبالمناصفة نحن نقر لمؤلف «مجتمع النخبة» بأنه يسطر صفحات نقدية عميقة في سبر بنية النظام التعليمي العربي الحالي لرصد أعراض تدهوره وتعرية عيوبه. ولكن إذا كنا نتفق معه إجمالاً في التشخيص، فلماذا نختلف معه في التحليل. فتدهور النظام التعليمي العربي لا يعود إلى فرط في تحديثه، بل على العكس إلى نقص وتراجع في تحديثه. وإذا كانت للمدرسة العربية الحديثة تتدهور فلأنها تكف أكثر فأكثر، وتحت ضغط عوامل متعددة - ومنها الاتباع المتزايد لسياسة الإفقار أو حتى الانغلاق الحضاري - عن أن تكون «حديثة».

4. وهي تبعية بالغة الخطورة في تقدير محلل الخطاب القريبوي والفلسفي عند محمد عبده، لأن شأنها أن تكون مخلاً إلى تبعية «ثقافية، واقتصادية، ومن ثم حضارية»، وبالتالي،\*\*

تتجلى أيضاً من خلال العداء المتزايد الذي باتت تقابل به فكرة القومية العربية في خطاب الارتداد عن عصر النهضة. فالقومية العربية، التي كانت واحدة من أئمن ثمار شجرة النهضة وأبكرها إيناعاً، مثلت أيضاً مخرجاً ذكياً لإشكالية لا تخلو من صعوبة، وهي إشكالية معاداة الاستعمار الغربي بدون سحب هذه المعاداة على الحضارة الغربية، وبالتالي الحديثة. ولكن بالضبط من حيث أن القومية العربية مثلت حلاً ناجحاً لمعادلة الانفتاح على العصر بدون خسران الذاتية والهوية، فقد باتت مستهدفة طعناً وتجريحاً من قبل دعاة القطيعة الحضارية. وعلى هذا النحو يتبارى ممثلو التيارات السلفية، ولاسيما منها السلفية السياسية، في التشنيع على القومية العربية والطعن فيها، لا نظرياً بل جينالوجياً في المقام الأول، برميها بأنها من طمي «الفكر الوافد» ومن نتائج «الغزو الفكري» الغربي، بله من اصطناع المستعمرين و«صنائعهم» من «نصارى الشام». وعلى الرغم مما يفترض أن يكون هنا من ثباين في وجهات النظر بين دعاة السلفية اليمينية واليسارية، فإن العداء للقومية العربية والتشكيك في شرعيتها الجينالوجية ورميها بالعصالة السياسية والحضارية للغرب ودمغها بالغيوتية النصرانية يؤلف بينهم قاسماً مشتركاً أكبر. وعلى هذا النحو يعلن ممثل السلفية اليسارية أن القومية «أثر من آثار التغريب»، وأن الاستعمار هو الذي حمل الفكرة القومية إلى خارج أوروبا «كي يسيطر بها على الشعوب غير الأوروبية»، وأن الغرب هو الذي «نشر الفكرة القومية عن طريق الإرساليات والمدارس الأجنبية، خاصة في الشام ولبنان، وتعليم أبناء العرب وتربيتهم على الفكرة القومية، مسلخاً لهم عن الأمة الإسلامية»، وأنه «لما كان كثير من المفكرين العرب ورواد النهضة الأوائل قد تعلموا في الغرب وعاشوا فيه، فقد حملوا الفكرة القومية كما حملوا الأفكار الأخرى، مثل الحرية والعدالة والديمقراطية والاشتراكية، وروجوا لها جميعاً في الأمة العربية»، وفي مقدمتهم «الإخوة نصارى الشام» الذين «كانوا أكثر الطوائف

---

« ودوماً تحت «غطاء العامل التربوي»، إلى «قبول الهيمنة، ومحو الذات، واستيراد الآخر لإسكانه في الأنا» (علي زيعور، مصدر أنف الذكر، ص213).

في الأمة عرضة للأثر الأجنبي والتغريب»، فكانوا أسبق الطوائف أيضاً إلى الوقوع «في الحيلة» و«تبنى الدعوة القومية»<sup>(1)</sup>.

وتتصاعد ضراوة الهجوم على القومية العربية، أصلاً وفصلاً، مع مؤلف «حتمية الحل الإسلامي». فكبير المنظرين المعاصرين للسلفية السياسية لا يتخرج من الغلو إلى حد التأكيد بأن «النزعة الوطنية والقومية ظهرت في دنيا المسلمين كنتيجة من نتائج الفكر العلماني الذي خلفه الاستعمار الغربي، وأن النزعة القومية مصدرها الاستعمار الصليبي ممثلاً في مؤسساته التبشيرية والاستشراقية، وفي اليهودية العالمية ممثلة في منظماتها السرية كالصهيونية وغيرها، وأن الاستعمار استعان في الدولة العثمانية بيهود الدومة الذين روجوا للنزعة الطورانية في تركيا، وبنصاري الشام الذين روجوا للنزعة القومية العربية في بلاد الشام والعرب، فلما ظهرت النزعتان اقتتل المسلمون»<sup>(2)</sup>.

ولا يتردد ممثل آخر للسلفية السياسية «اليمينية» في إدانة القومية العربية بوصفها تعبيراً عن «سطوة الحضارة الغربية وانقياد المسلمين لها»، تلك السطوة التي كان مقبوضاً لها أن تستمر وتتأبد لولا أن «اليقظة التي أحدثها الاستعمار الغاشم لبلادنا، وبروز الفكر العلماني ودعوة القومية العربية بين متقفينا، نهيت المشاعر وأنعشت الفكرة الإسلامية، فتحركت الجماعات الإسلامية في أكثر من بلد عربي وإسلامي لتحذ من سطوة الحضارة الغربية وانقياد المسلمين لها... وقد نجحت الدعوة الإسلامية في تخفيف

---

1. حنفي، في: القومية العربية والإسلام، ص233-234. وسلاحظ عابرين أن ممثل السلفية اليسارية يقع هنا في تناقض منطقي: فلن تكن فكرة القومية العربية مرفوضة في رأيه لأنها «أثر من آثار التغريب»، فلماذا لا تكون مرفوضة أيضاً لفكر «الحرية والعدالة والديمقراطية والاشتراكية» المحمولة هي الأخرى - باعتراؤه - من الغرب؟ على كل حال، ستكون لنا عودة مطولة إلى ظاهرة التناقض ودلالته ووظيفته في فكر صاحب مشروع «اليسار الإسلامي».

2. يوسف القرضاوي، حتمية الحل الإسلامي: الحل الإسلامي، معالمه وشروطه (القاهرة 1977)، الجزء الأول: الحطول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، (مؤسسة الرسالة، بيروت 1977)، ص62-63، نقلاً عن طارق البشري، المسلمون والاحتياط في إطار الجماعة الوطنية، ص653.

وطأة هذا الغزو شيئاً فشيئاً حتى تراجعت فكرة العلمانية وصيحة القومية العربية، وتفتحت أعين المسلمين على حقيقة دينهم، وتبتهت الأمة إلى خطر الانتقادات الأعمى للقاتلين بأن سبيل النهوض من كبوتنا هو محاكاة الغرب في كل أنظمة حياته<sup>(1)</sup>.

ولا تحظى العروبة بقلم مؤلف «حوار مع الأجيال» - وهو أيضاً من إيديولوجي السلفية السياسية - بأكثر من الوصف بأنها «مكنسة»، ناهيك عن أنها مكنسة بيد الاستعمار: «إن المستعمرين كانوا حريصين على إيجاد قومية عربية في منطقتنا تكون قاعدتها الجنس، وكان الغرض من سياستهم هذه كنس الأتراك منافسهم بمكنسة العروبة»<sup>(2)</sup>.

1. محمد فريد عبد الخالق، «لمحة تاريخية عن المراحل التي مرت بها جماعة الإخوان المسلمين»، في: ندوة لتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص 500-501.
2. حسن دوح، حوار مع الأجيال (دار الاعتصام، 1978)، نقلاً عن البشري، المسلمون والاقباط في إطار الجماعة الوطنية، ص 661. وبالمناسبة، وما دعا نؤكد أن للقانون النفسي الذي يحكم الخطاب العربي المعاصر هو قانون الذكوص، فقد يكون مفيداً أن نلاحظ أن الخطاب السلفي السياسي المعاصر يتكشف هو نفسه، وفي إطار مرجعيته الخاصة، عن أنه خطاب ناكص إلى الوراء بالقياس إلى الخطاب السلفي السياسي الذي رأى النور في أواخر عصر النهضة. وحسبنا هنا أن نقارن بين موقف العداء الجزري الذي يقفه ممثلو السلفية السياسية المعاصرة من القومية العربية وبين موقف التفهم والتقبل الجزئي الذي كان يقفه منها - ومن للوطنية والقومية إجمالاً - حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين وأول منظر عربي لإيديولوجيا السلفية السياسية عندما أكد في «رسالة المؤتمر الخامس» (1939) أن «الإسلام قد فرضها فريضة لازمة لا مناص منها أن يعمل كل إنسان لخير بلده وأن يتقلى في خدمته وأن يقدم أكبر ما يستطيع من الخير للأمة التي يعيش فيها... فالأخوان المسلمون يحبون وطنهم ويحرصون على وحدته القومية بهذا الاعتبار، ولا يجدون غضاضة على أي إنسان أن يخلص لبلده وأن يقف في سبيل قومه، وأن يتمني لوطنه كل مجد وفخر. هذا من وجهة القومية الخاصة. ثم إن الإسلام الحنيف نشأ عربياً ووصل إلى الأمم الأخرى عن طريق العرب... وقد جاء في الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام. وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسي وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والدليل ومن إليهم. فالعرب هم عصبية الإسلام وحراسه... ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه. ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتليدها ومناصرتها... واضح إذن أن الإخوان المسلمين يحترمون قوميته الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ولا يرون بأساً بأن يعمل كل إنسان لوطنه وأن يقدمه على سواه. ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض»

ومثل هذا التركيز على لحظة النشوء، بغية التشكيك «بطبيعة وتركيب وتكوين الحركة القومية وطبيعة ارتباطاتها وارتباطاتها الخارجية»، يطالعنا أيضاً في القراءة الملفية المحدثّة التي يقدمها الباحث المغربي عبد الإله بلقزيز عن لفكرة القومية العربية باعتبارها «حسيلة مباشرة للاختراق الأوروبي»، ارتباط نشوؤها - هي وشقيقتها التوأم الدعوة العلمانية - «بدخول الغرب مسرح السياسة» في العالم العربي والإسلامي، وبمسعاه إلى تفكيك «بنى الإمبراطورية العثمانية الجامعة» وفصم «الرابعة العثمانية التي أريد لها أن تكون لوناً من ألوان التوحيد العربي - التركي في إطار إسلامي». فعن طريق مثل هذا الربط يغدو «بالإمكان جلاء حقيقة العلاقة التي نشأت بين الموقف القومي الخارج لتوه عنيفاً من رحم الإمبراطورية وطموحاً لإرثها سياسياً، وبين الاستعمار الذي رعى هذا الموقف برعايته مصالح أطرافه اقتصادياً وسياسياً ودينيّاً. ونحن في معرض هذا التحديد الأولي لتلك العلاقة لا نريد الذهاب إلى أبعد من تسجيل واقعة تاريخية، أي لا نريد أن نرتب عليها حكماً يرى في حركة الاستقلال القومي الناهضة حركة سياسية عميلة للغرب، على الرغم من أنها هانته وشاركت حملته الرامية إلى تفكيك الإمبراطورية وسلمت لاحقاً بانداباته [كذا]، بل نتوخى من هذا تبديد الزعم الذي لازم الحركة للقومية العربية، فكراً وممارسة، على امتداد قرن ونصف، والذي جهد كثيراً لإقامة عوازل وهمية - غير قادرة على الصمود أمام المعرفة وحقائق التاريخ - بين الاستعمار والنهوض القومي»<sup>(1)</sup>.

«ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام. ولي أن أقول بعد هذا إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله، فهم ينادون بالوحدة العالمية... وأنا في غنى بعد هذا البيان عن أن أقول إنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار، وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها» (نقلاً عن مجلة الحوار، السنة الأولى، العدد 2، صيف 1986، ص 168-170). ولنلاحظ بالمناسبة أنه، بالإضافة إلى كلمة «قومية» نفسها، فإن حسن لبنا يستخدم استخداماً إيجابياً كلمة أخرى هي «الوطن»، وهي من المفردات التي باقت مسحوبة اليوم من معجم الحركات الإسلامية المعاصرة الأشد تطرفاً وانغلاقاً حتى من تلك التي أسسها المرشد العام الأول للإخوان المسلمين.

1. عبد الإله بلقزيز، «في نشوء وإخفاق الدعوة العلمانية في العالم العربي»، في مجلة: الوحدة، السنة الثالثة، العدد 26-27 (كانون الأول-ديسمبر 1986)، ص 62-80. وبالمناسبة، وما دمناء مرة أخرى، بصدد الدعوة إلى إعادة تقييم الدولة العثمانية والرابطة العثمانية»

ولا يخفى أن الغرض من هذا التركيز في تاريخ القومية العربية على لحظة النشوء، دون لحظة التطور والنضج، هو تأنيب القومية العربية كمظهر فرعي من عملية تأنيب عصر النهضة ككل من حيث هو عصر يندرج بتمامه تحت عنوان جريمة قتل الأب. ويقوم منطق عملية التأنيب هذه على إظهار القومية العربية وكأنها تحتل موقعها بالضرورة في قطب التعارض والتنافي مع الإسلام، ممثلاً بالأب العثماني الحامي، وصولاً إلى حد التآمر والقتل. ولكن ما يسكت عنه خطاب هذا التأنيب أن القومية العربية المشرقية لم يكن أمامها من خيار آخر، في مرحلة نشوئها، سوى أن تنقف موقف المعارضة والمناوأة - وإن بدرجات متفاوتة - تجاه الاحتلال الفعلي الوحيد القائم لحظتها على الأرض، أي الاحتلال العثماني. كما أن ما يسكت عنه خطاب التأنيب هو أن مناهضتها لهذا الاحتلال لا تعود إلى أنه كان إسلامياً، بل إلى أنه كان عثمانياً - تركيا. بل أكثر من ذلك، فإن ما يسكت عنه الخطاب التأنيبي هو أن «إسلامية» الاحتلال العثماني - التركي هي التي حالت بين القومية العربية وبين اتخاذ موقف جذري في مناهضته. فالعديد من القوميين العرب الأوائل، من مسلمين ومسيحيين - ومنهم البستانيان بطرس وسليم - كانوا ذوي نزعة عثمانية، يقصرون برنامجهم القومي على طلب الحكم الذاتي أو المساواة للعرب ضمن إطار الدولة العثمانية دون أن

---

« بصفتها رابطة «للتوحيد العربي-التركي في إطار إسلامي»، فقد يكون مفيداً أن نورد في هذا الصدد ما يؤكد ممثل آخر للسلفية المحنثة من أنه: «لم تكن نزعة الحكم الاستبدادي لدى آل عثمان محض نزعة استبداد فردي، ولكنها نزعة تسلط عنصري على شعوب الدولة. ويكشف السلطان عبد الحميد هذا المعنى في مذكراته التي أُملاها بعد خلعها عن العرش [مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد (القاهرة 1978)، ص58] إذ يهاجم المعارضة الدستورية في دولته فيقول: «قلت وسأقول، شرحت وأسأرح، ألم يكونوا يفكرون أن الدولة العثمانية دولة تجمع أمماً شتى، والمشروطية (=الدستور) في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد. هل في البرلمان الإنجليزي ناخب هندي واحد أو أفريقي أو مصري؟ وهل في البرلمان الفرنسي ناخب جزائري واحد؟ وهم يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار والصرب والعرب في البرلمان العثماني. لا، لا أستطيع أن أقضي على ابن الوطن الذي تعلم وفكر وهوب نفسه لتضييته» (البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، ص658).

يتعدوه إلى طلب الانسلاخ عن دولة الخلافة التي كان بعضهم بعدها درعاً واقية في وجه أطماع الاستعماريين الأوروبيين<sup>(1)</sup>. ولم يقيض للقومية العربية أن تتحول إلى اللجزرية تحولاً تاماً إلا عندما سقط البرقع العثماني الإسلامي عن الاحتلال التركي وإسفار سياسة التتريك عن وجهها بلا قناع<sup>(2)</sup>. وما يضرب عنه صفحاً نفاة القومية العربية من المنضوين تحت لواء السلفية السياسية هو أن القومية العربية اللجزرية لم يعد لها من خصم

1. يعبر عن رأي هذا النفر خير تعبير ما كتبه حنا الطرابلسي في المقطم (12 آب-أغسطس 1899) رداً على جبرائيل شام الذي كان لقتراح فصل الخلافة الإسلامية عن السلطنة العثمانية، بقوله: «إذا فصلت الخلافة عن السلطنة العثمانية سقطت منزلة العثمانية أمام الدول الأوروبية، فلا تعود قادرة على التسلح بسلاح الإسلام. فتزول من نفسها، وهذا لا يرضاه لها إلا أعداؤها» (نقلًا عن جان دايه، الإمام الكواكبي، فصل الدين عن الدولة، ص105).

2. بالمقابل، وعندما شاعت ظروف تاريخية وجغرافية خاصة للقومية العربية الناشئة أن تواجه لا الاحتلال العثماني - كما الحال في المشرق - بل الاستعمار الأوروبي - كما الحال في المغرب - فإن «نصرانية» هذا الاستعمار لم تمنع «نصارى الشام» المهاجرين إلى المغرب من مواجهة أطماع هذا الاستعمار بعداء لا يقل عن ذلك الذي ووجه به الاحتلال العثماني في المشرق. وهكذا يقال لنا إنه عندما بدأ «مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فجر آخر للنهضة في المغرب... جاءت بوارق هذا الفجر الجديد من المشرق هذه المرة أيضاً، ولكن لا في صورة دعوة وهابية مولية كامل وجهها إلى الماضي، معرضة تمام الإعراض عن قضايا العصر ومشاكل الغد، بل لقد حملت تلك البوارق إلى المغرب هذه المرة شعاعاً من الفكر النهضوي العربي الليبرالي». إذ في طنجة التي كانت مقرراً لجاليات أجنبية أوروبية وعربية عدة... صدرت أول صحيفة عربية باسم المغرب أسسها عرب مسيحيون من لبنان عام 1889. وقد حددت هذه الجريدة أهدافها في افتتاحية عدها الأول، وقد ورد فيها أنه «إذا كانت هذه البلاد (المغرب) مفتقرة إلى جريدة عربية للغة والمشرّب تنشر الأنباء الحقيقية والحقائق العلمية والاستبانات المستحثة للصناعة التي من شأنها تقوية منزلة البلاد بأن تثير في نفوس أهلها نار الحمية العربية وتكذب فهم النخوة الوطنية وتهض هم الرجال من حضيض الإهمال إلى التخرج في مراقي الكمال لكي يسعوا في إصلاح حالة بلادهم باتلين للنفس والتفكير في درء المفسد عنها وجلب المنافع إليها وكل ما يعود إلى رتبته عاملين على مكانتهم في مجاورة بقية البلدان في مضمار النجاح والوقوة ومجال العلوم والصناعات وتوسيع دائرة التجارات حتى ينتصر فيها أناس ذوو غيرة وطنية يذبون عن مصالح بلادهم ويحلمون عن حقوقها» (محمد عابد الجابري، «الحركة السلفية والجماعة الدينية المعاصرة في المغرب»، في: الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي (مركز دراسات الوحدة العربية بالاشتراك مع جامعة الأمم المتحدة، بيروت 1987)، ص198.



تواجهه على امتداد خمسة عقود، ومنذ افتتاح أمر اتفاقية مايكس-بيكو، سوى الاستعمار الأوروبي. كما أن ما يضربون عنه صفحاً هو أن ذروة النضج في تطور القومية العربية قد توافقت وتطابقت مع ذروة التصعيد في المواجهة مع الاستعمار الأوروبي والإمبريالية الغربية في عهد قيادة عبد الناصر لحركة القومية العربية ولحركة للتححر العربي في آن معاً.

على أن صورة الارتداد عن المقولات النهضوية الفكرية مثل القومية العربية والتعليم الحديث ووحدة العقل البشري والانفتاح الحضاري لا تكتمل ما لم نشر إلى المحاولات الجارية على قدم وساق في الخطاب العربي المعاصر المعصوب لفسخ ذلك البند من بنود الإستراتيجية النهضوية الذي يمكن أن يعد أكثرها فاعلية وأجداها مردوداً، والذي يتمثل بالمسعى إلى تبينة المفاهيم الأساسية الطارفة لتجربة التقدم الغربي عن طريق ربطها ومطابقتها بما يضارعاها من تليد مفاهيم الفكر للعربي الإسلامي المنعقد عليها بالإجماع. ولتأخذ مثلاً الديمقراطية. فمن المتفق عليه أن زعماء الإصلاح، على اختلاف مشاربهم، اعتبروا أن «تفوق الغرب راجع أساساً إلى نظامه السياسي الضامن في رأيهم للحرية والمقيد للسلطة بالقانون، وأن تأخر الشرق، بما فيه البلاد الإسلامية، راجع أيضاً إلى طبيعة نظامه السياسي القائم على الاستبداد»<sup>(1)</sup>. وعلى الرغم من أن طرْحاً كهذا، يرجع التقدم والتأخر إلى طبيعة المؤسسة السياسية، هو بطبيعته أدخل في الإشكالية الليبرالية منه في الإشكالية السلفية، فقد نبأه أيضاً السلفيون من الإصلاحيين، «فحدثوا هم أيضاً عن تقابل الشرق والغرب، وحصروا المشكل في نظام السلطة، وصبوا جام غضبهم على الاستبداد الذي اعتبروه السبب الأول في الاحتطاط ودعوا إلى تقييد السلطة بأصول العدل الإسلامي»<sup>(2)</sup>. وإنما من هذا التلاقي بين الليبراليين والسلفيين من الإصلاحيين أعيد إحياء مفهوم «الشورى»، ذي المرجعية الإسلامية، ليكون مرادفاً ورديفاً معاً لمفهوم «الديمقراطية»، ذي المرجعية الغربية. وعلى هذا

1. علي أومليل: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية (دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت

1985)، ص22.

2. المصدر نفسه، ص23.

النحو، وعلى الرغم من الوقع الأجنبي السافر للفظ «الديمقراطية»، فقد احتل مكانه بسهولة في رأس المدونة الإيديولوجية لعصر النهضة ودخل - عبر الصحافة - في دائرة التداول اليومي، مستقيماً في ذلك من شرعية النسب التي أسبغها عليه ربطه المعنوي بمفهوم الشورى. والحال أن هذا الربط هو ما يعاد اليوم فكه نزولاً عند مقتضيات القطيعة المزدوجة مع النهضة ومع الحضارة، وتطبيقاً لتكتيك تسعير التناقض بين «الفكر الوافد» و«الفكر الموروث» وتصعيده إلى درجة التنافي المطلق. وهكذا، وعلى الرغم من كل الرواج الذي باتت تحظى به كلمة «الديمقراطية» في الخطاب العربي المعاصر بعد أن استردت الإشكالية الليبرالية بعضاً من اعتبارها، وبعد أن أضحي الفكر السياسي العربي يميل من جديد، تحت وطأة احباطات المرحلة الثورية التي سعت إلى حل الإشكالية الليبرالية بحرقها، إلى تحميل الدكتاتورية - أي مرة ثانية الاستبداد - وزر ما قد تجوز تسميته بعصر الانحطاط العربي الثاني، إذن على الرغم من هذا الرواج، أو ربما بسببه، فإن دعاء القطيعة الحضارية - الملزمة بمنطقها بالذات كما رأينا بأن تكون كلية - لم يتوانوا عن خوض حربهم الشاملة على جبهة «الديمقراطية» أيضاً من خلال العمل على فك الارتباط بينها وبين «الشورى». وعلى هذا النحو، وانطلاقاً من أن «مصطلح الديمقراطية فلسفة متكاملة لها جذورها وانتماءاتها وكياناتها»، يعلن ممثل بارز للملفية السياسية تأييده للرأي القائل بعدم جواز الخلط «بين كلمة ديمقراطية، وهي كلمة غربية نعرف كلنا أصلها، وبين كلمة الشورى»، ويؤكد أن «الإسلام لا يقبل هذه الإسقاطات، لا تركيبة اشتراكية اجتماعية، ولا تركيبة ديمقراطية ليبرالية فردية. فالإسلام منظومة متكاملة من المبادئ، لكل مبدأ كثافة معينة، وله حجم معين، وله نسبة معينة في بناء الإسلام الكلي، ولا يجوز إطلاقاً أن نسقط على الإسلام لا مفاهيم شرقية ولا مفاهيم غربية»<sup>(1)</sup>. ويطور ممثل آخر للملفية السياسية فكرة الطلاق المبني هذه بين مفهوم «الديمقراطية» الغربي ومفهوم «الشورى» الإسلامي فيقول: «نعلم جميعاً أن للديمقراطية نظام غربي بدأ كرد فعل للنظم الاستبدادية والدكتاتورية، ومثل هذا النظام، الذي

1. عويس، في: ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص 517.

يعني حكم الشعب بالشعب، أو للنظام البرلماني أو النيابي أو البرلماني الرئاسي أو ما شاكل ذلك من ترقيعات تخفف من حدة الاستبداد والدكتاتورية، هذه الأنظمة كلها لا يقرها الإسلام، ولا يصح أن يقال إن الإسلام نظام دكتاتوري أو ديمقراطي أو نيابي أو برلماني؛ فالإسلام له نظامه الخاص وله ضوابطه وقبوده ومعالمه وأوضاعه. كل ما في الأمر أن بعض مزايا الديمقراطية - من الاعتماد على الشورى أحياناً - قالوا إنها تتفق مع بعض مبادئ الإسلام. ولكن هذا لا يعني أن الإسلام نظام ديمقراطي بالمعنى الذي يراد... لذلك ينبغي ألا نخلط بين هذه المصطلحات... وبين الإسلام، ونزج به ضمن هذه الأنظمة. كل هذه الأنظمة في الحقيقة مغايرة للإسلام... وإن النظام الديمقراطي الذي يعتمد على تمثيل كل فئات الشعب - في الحقيقة - لا يتفق مع الإسلام<sup>(1)</sup>.

وربما كان خير من أفصح عن خطاب فك الارتباط هذا هو قائل السادات عطا طليل - وهو بالأصل من مستهلكي هذا الخطاب وليس من منتجيهِ - عندما قال أمام قضااته: «هذه الكلمة [الديمقراطية] ليست من الإسلام في شيء، لأن الديمقراطية هي حكم الشعب نفسه بنفسه، فيستطيع مجلس الشعب أن يقر أي قرار توافق عليه الأغلبية دون الرجوع لكتاب الله... فلفظ الديمقراطية هذا مرفوض لدى المسلمين، ولن يكون لنا منهج إلا كتاب الله: ﴿إن الحكم إلا لله﴾»<sup>(2)</sup>.

وإذا كنا هنا أمام محض مصادرات لا تتسم بالعمق النظري، فإن مؤلف كتاب «الإسلام في معركة الحضارة» ينتطع، من خلال مثال «الديمقراطية»، لإيقاظ خطاب فك الارتباط حقه من التنظير. وهو لا يستعمل أصلاً تعبير «الديمقراطية» إلا محاطاً بمزدوجين إشارة منه إلى تحفظه على استعمال هذا المصطلح - وغيره من المصطلحات الحاملة للوثة «التغريب» - مؤكداً أن ثمة «معضلة تواجه كل باحث يرفض التغريب ويسعى إلى العودة إلى الأصول... وهي مشكلة استخدام أو عدم استخدام المصطلحات الشائعة في

1. وهبة الزحيلي، في: نوبة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، ص 520.

2. نقلاً عن فؤاد زكريا، «مستقبل الأصولية الإسلامية»، في مجلة: فكر، العدد 4 (كانون الأول-ديسمبر 1984)، ص 35.

العصر الراهن مثل الديمقراطية، الدكتاتورية، الاشتراكية، حقوق الإنسان، المساواة، الوطنية، وغيرها كثير.. وإذا كان، على الرغم من «تسجيل التحفظ على استخدام مصطلح «الديمقراطية»، يعلن عن «القبول باستخدامه» - وإن محاطاً نوماً بمزدوجين - فإنما ليتمكن من الدخول في نقاش «مع الذين تنقفوا في مدارس الغرب واستعاروا ما استخدمته تلك المدارس من مصطلحات ومدلولات وابتعدوا عن المدرسة الإسلامية وما استخدمته من مصطلحات ومدلولات». و«بهذا لا يكون الهدف» من هذا الاستخدام المشروط لتعبير «الديمقراطية» «تكريس المصطلح الأجنبي»، بل خطوة «على طريق التخلي عنه تدريجياً». و«الموقع الأصح من الناحية العملية الصرف» هو موقف من يرفض استخدام «المصطلحات الشائعة في العصر الراهن جملة وتفصيلاً» ولا يخاطب الناس إلا بـ«المصطلحات الإسلامية التراثية»، إذ أن «المجتمع الإسلامي» لا يقبل سوى «المصطلح الإسلامي». ومن «النفاق التشويهي» ومن «الخطورة» بمكان في أن معاً «استخدام المصطلح نفسه مع إعطائه محتوى إسلامياً». فنهج كهذا ليس من شأنه سوى أن يثير «التياسات وشبهات قد تفيد فكر التغريب ولا تخدم عملية استعادة الهوية والأصالة والمصطلح على أساس الإسلام». ولكن بانتظار استعادة هذه الهوية البريئة من كل تلوث و«الخلاص من هذا الأخطبوط (=التغريب) المتعدد الأيدي والأرجل، ألماصت دماء والنافاتات سموماً»، فقد يكون مباحاً، «من أجل مد جسر الحوار مع مئات الألوف وربما ملايين المتقنين الذين اعتادوا استخدام المصطلح الأجنبي»، التعامل مع هذا المصطلح تعاملًا عازلاً مانعاً للتلوث (يقوم المزدوجان هنا بدور القفاز الواقعي)، مقيداً بالحرص على التنبيه إلى «سلبياته ومحاذيره» وبالتشديد على ضرورة إمسك «القوى الشعبية الأصيلة»، البريئة من لوثة التغريب، «الموصولة للثرايين بالإسلام والتراث والتاريخ»، بـ«قضية الديمقراطية»، لتعمل على «إزالة الغموض المحيط بها، وإنهاء وقعها الأجنبي»، وإعادة النظر في «موضوعها ومحتواها، وحتى اسمها، على أرض أخرى، وتحت سقف معايير ومقاييس أخرى»<sup>(1)</sup>.

1. شفيق، الإسلام في معركة الحضارة، ص 164-170، وكذلك ص 200.

وإذا كان هذا شأن «الديمقراطية» الموصولة نسباً بشجرة «الثوري»، فماذا يمكن أن يكون إذن شأن مفهوم مثل «العلمانية» بقي، بالنسبة إلى الإصلاحيين النهضويين، مفهوماً خلاقياً، ولم يقيض له أن يحظى من مدونة الفكر الإسلامي الموروث بمفهوم يرافقه أو يُشاكله لينزع عنه، بالتالي، صفة «الوفود» و«الاستيراد»؟ والواقع أنه إذا كان خطاب الردة لا يزال يبدي خجلاً وتردداً في اللطعن في مفهوم «الديمقراطية» والتوصل منه، فليس في عداد ممارسي الخطاب العربي المعاصر المعصوب من لم يعد يجترئ على مفهوم «العلمانية» تشكيكاً وتجريحاً وإنكاراً وتبرؤاً في مناسبة وغير مناسبة. وقد استباحت «العلمانية» حتى باتت تكافئ، بشكل آلي، «تهمة» أو «سبة». وكما يقول فؤاد زكريا، وهو من القلة للقليلة التي ما زالت تجره بانتماؤها للعلماني، فقد أصبح لفظ العلمانية يحمل من المعاني السلبية الممنومة إلى حد بات معه «يكفي»، في حياتنا الفكرية المعاصرة، أن يوصف أي اتجاه، أو أي شخص، بأنه علماني، لكي يعد موصوماً ويخرج تلقائياً من نطاق ما هو مقبول وما يمكن التعامل معه<sup>(1)</sup>. ويمكن القول، ناهيك عن ذلك، إن العلمانية أضحت «مكسر عصا» لكل مبتدئ في ممارسة الخطاب العربي المعاصر. على هذا النحو نستطيع أن نقرأ... وهذه عينة ليس إلا مما هو متداول في الصحافة الفكرية العربية اليوم - أن العلمانية ما هي إلا «حصيلة للسيطرة الاستعمارية السياسية والاقتصادية والثقافية على المنطقة العربية» و«لم نقد إلى خلق ثقافة وطنية وقومية بقدر ما كرست ثقافة النخبة المعزولة عن الجمهور والمشدودة إلى التقليد للث والتزجئة»<sup>(2)</sup>. وإذا كان الإطار المرجعي لمصدر هذا الحكم هو كتاب برهان غليون عن «المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات»، فلنبادر حالاً إلى القول بأن ناقد «مجتمع النخبة» ينجح العلمانية بسكين أكثر رهافة بكثير. فعنده أن العلمانية هي دين النخبة بالمواجهة مع دين الشعب. وأسوأ ما في الأمر أن دين النخبة هذا، على خلاف دين الشعب، لم يكن ديناً أصيلاً ذاتي المنشأ، بل كان ديناً بالترجمة

1. فؤاد زكريا، «الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر»، في: المستقبل العربي، السنة الثامنة، العدد 76 (حزيران-يونيو 1985)، ص 107.

2. عبد الإله بلقزيز، «في نشوء وإخفاق الدعوة العلمانية في العالم العربي»، مصدر آف الذكر، ص 76-77.

والتعريب. «فالعلمانية لم تثبت هنا من الصراع الاجتماعي الداخلي... ولكنها نشأت عن طريق التبنّي من قبل نخبة محدودة العدد وغالباً معزولة عن الشعب». وعلى هذا النحو «جاءت العلمانية العربية كوسيلة لتقوية النظام السياسي القائم وتدعيم الطبقة المسيطرة» و«كاستمرار وتطوير لسياسة فصل الجمهور المتزايد عن السلطة وتحرير الدولة من سلطة الدين، آخر مرجع شعبي ووسيلة للضغط الوحيدة بيد المعتمدين من السلطة والعلم»، فكانت «كتقاليد وممارسات ولغة تفاهم ووعي من نمط جديد، وسيلة لعزل الغالبية الشعبية عن السلطة والسياسة». وعلى هذا لا يكفي القول بأن إشكالية العلمانية «تبدو عندنا مصنوعة منقولة عن الغرب»، بل ينبغي أن يضاف القول بأنها تحولها إلى «دين جديد لفئة جديدة اجتماعية» قد تحولت إلى «أداة قمع اجتماعي وسياسي» بيد هذه الفئة النخبوية ضد الغالبية الشعبية و«إيديولوجيا تبرير» لضرب حرية الاعتقاد الأساسية، «حرية الرأي والصحافة والتنظيم الحزبي»، و«وسيلة للتغطية على انعدام هذه الحرية في الواقع والممارسة» وعلى «الاحتكار المطلق لحرية الرأي والتعبير والتنظيم» من قبل «نخبة النخبة العصرية»<sup>(1)</sup>. ولكن إذا كان داعية ما يمكن أن نسميه بـ«السلفية الشعبوية» يكتفي على هذا النحو بأن يضع كلاً من العلمانية والديمقراطية على طرفي نقيض<sup>(2)</sup>، فإن دعاة السلفية المسيئة لا يرضون بأقل من أن توضع العلمانية في موضع التضاد المانوي مع دين الغالبية الشعبية الذي هو الإسلام. وعلى هذا النحو يؤكد داعية السلفية القومية أن «العلمانية نظاماً، وللإسلام نظاماً، وهما لا يتفقان في أكثر من وجه»<sup>(3)</sup>.

1. برهان غليون، المسألة الطفولية ومشكلة الأقليات (دار الطليعة، بيروت 1979)، ص 11-12، 52-53، 66، 82، 88. وانظر أيضاً، مجتمع النخبة، ص 308.

2. علماً بأن اصطلاح هذا التناقض بين العلمانية والديمقراطية لا يخلو هو نفسه من اصطلاح. إذ أن كل ما يقوله داعية السلفية الشعبوية عن إشكالية العلمانية يمكن أن يقال من المنطلق نفسه وبالمناطق نفسه عن إشكالية الديمقراطية: فهي قليلة للتوصيف بأنها هي الأخرى «منقولة عن الغرب» - كما يدل اسمها - ومستخلّة «عن طريق التبنّي». وهذا، ناهيك عن أن الديمقراطية أحق من العلمانية بالوصف بأنها دين النخبة الجديد، لأنه على حين أن العلمانية باتت تُقرّد «إفراد البعير للمجذّ» كما يقول للشاعر العربي، فإن الديمقراطية قد أضحت على العكس، في الخطاب العربي للمعاصر، موضوع عبادة حقيقية.

3. سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، ص 240.

وبدوره يؤكد داعية ما يمكن أن نسميه بـ«السلفية الوطنية»، أي تلك التي تؤسس الشرعية السياسية على الدين وتريد في الوقت نفسه أن تحافظ على وحدة طوائف الأمة «في إطار الجماعة الوطنية»، يؤكد أن «محك الصدام بين الإسلام والقومية هو في الجانب العلماني، والقومية العربية قريبة من الإسلام ما ابتعدت عن العلمانية، بعيدة عنه ما اقتربت منها، فلا تجتمع علمانية وإسلام»<sup>(1)</sup>. أما داعية السلفية التطهيرية، للقاتلة بإسلام مصمت ومقل على كل ما عداه، فلا يرضيه لقل من المصادرة على أن «الذين يقولون بالعلمانية يتصادمون مع الإسلام حتماً»<sup>(2)</sup>.

ولعلنا لا نستطيع أن نهتدي، في الخطاب العربي المعاصر المعصوب، إلى موقف أكثر اعتدالاً من مسألة العلمانية إلا لدى ممثل العقلانية المعتدلة. وبالفعل، إن العلمانية لا توضع لدى صاحب مشروع «نقد العقل العربي» في موضع التعارض والتنافي مع الإسلام، وإنما فقط في حالة عجم لزوم واستغناء عن الخدمات. وإذا كان سائر السلفيين يتخذونها هدفاً رئيسياً لهجومهم باعتبارها الحلقة الأضعف في الفكر النهضوي والثغرة التي يمكن التسلل منها بسهولة نسبية لهدم كل عمارة الحدائنة، فإن ممثل العقلانية المعتدلة يكتفي بالمطالبة بسحبها من التداول - ربما بدافع اعتداله، وربما أيضاً بدافع الحرص التكتيكي على سد الثغرة وإنقاذ باقي العمارة. وعلى هذا النحو يعلن، في واحدة من أحدث مداخلاته المتكررة حول العلمانية، أن «الإسلام دين ودولة في آن واحد»، وأن «العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة غير ذات موضوع في الإسلام لأنه ليس فيه كنيسة حتى تفصل عن الدولة أو تفصل الدولة عنها»، وأن «مسألة العلمانية في العالم العربي مسألة مزيفة، بمعنى أنها تعبر عن حاجات بمضامين غير متطابقة مع تلك الحاجات»، وأنه «من الواجب استبعاد شعار العلمانية من قاموس الفكر العربي وتعويضه بشعارَي الديمقراطية والعقلانية، فهما اللذان يعبران تعبيراً مطابقاً عن حاجات المجتمع العربي»<sup>(3)</sup>.

1. طارق البشري، «بين الإسلام والعروبة»، في مجلة: الحوار، السنة الأولى، العدد 2 (صيف 1986)، ص 28.

2. شفيق، في القومية العربية والإسلام، ص 673.

3. محمد عابد الجابري، «الإسلام ليس كنيسة كي يفصله عن الدولة»، في مجلة: اليوم السابع، السنة 5، العدد 256، 3 نيسان-إبريل 1989، ص 21.

وبديهي أن مثل هذه الدعوى قابلة للتنفيذ من أكثر من زاوية<sup>(1)</sup>. فمن الزاوية المنطقية يمكن أن نلاحظ أن العلمانية لا تعني مجرد فصل الكنيسة عن الدولة، بل فصل الدين عن الدولة. والحال إن الإسلام دين، وإن لم يكن فيه كنيسة (بالنسبة إلى الإسلام المني على الأقل). ونقل السلطة في الإسلام لا يقل وطأة عن نقلها في المسيحية، وإن يكن الإسلام السني أقرب إلى البروتستانتية منه إلى الكاثوليكية في البنية اللاهربية لسلطته. ومن الناحية المفهومية يمكن أن نلاحظ أن «العلمانية ثابت مركزي من ثوابت العلم والممارسة الديمقراطية» و«من المبادئ المؤسسة للاختيار الديمقراطي»<sup>(2)</sup>، وأن واجهة الديمقراطية والعقلانية من عمارة الحدائنة مستهاوى بالتالي إذا ما سحبت من تحتها عضادة العلمانية. ولكن بما أننا معنيون هنا فقط برصد أعراض النكوص في الخطاب العربي المعاصر، فسنكتفي بأن نلاحظ أن النص الذي نحن بصده يشف عن نكوص مثلث الأبعاد:

أولاً: بالنسبة إلى فكر عصر النهضة نفسه، ممثلاً لا في رواده الليبراليين من أمثال بطرس البستاني فحسب، بل حتى في بعض رواده «الأرثوذكسيين» من الإصلاحيين السلفيين. وحسبنا هنا أن نقارن بين ما يؤكد في عام 1989 صاحب مشروع «نقد العقل العربي» من عدم جواز أو عدم لزوم فصل الدين عن الدولة في الإسلام وبين ما كان قاله، قبل تسعين عاماً بالضبط، رائد كبير للسلفية الإصلاحية، الإمام عبد الرحمن الكواكبي: «يجب على الخاصة منا أن يعلموا العامة للتمييز بين الدين والدولة، لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان اللذين نحن فيهما، فإذا لم يدركه عامتنا كان الخطر محيقاً أبداً بخاصتنا. ولو سألت عامتنا اليوم عنه لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة والدولة لا تقوم إلا بالدين، وأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وهذا خطأ مبين لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التي تسعى الدولة إليها في زماننا هذا هي غاية

1. انظر مناقشتنا لهذه الدعوى في: «الانتلجانسيا العربية والإضراب عن التفكير»، في: اليوم

السابع، السنة 6، العددان 277-278، 28 آب-أغسطس - 4 أيلول-سبتمبر 1989.

2. كمال عبد اللطيف، «مفهوم العلمانية في الخطاب السيلسي العربي»، في: المعرفة والسلطة

في المجتمع العربي (معهد الإنماء العربي، بيروت 1988)، ص 331 و339.



دنيوية محضة، وأعني بها تأمين الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وسن الشرائع العادلة لهم. وأما الدين فالغاية المقصودة منه واحدة على اختلاف الزمان والمكان، وهي صلاح الناس في هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم في الآخرة. فهو الصلة بين الأفراد الذين يدينون به وبين خالقهم، ولكل إنسان دينه، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة... فإذا لم نميز بين الدولة والدين في عصرنا هذا، بل طلبنا من الدين مساعدة الدولة ومن الدولة مساعدة الدين بناءً على أن كلا منهما لا يقوم إلا بالآخر، فماذا نفعل لو سقطت الدولة؟ أبسقط معها الدين الذي كنا نقول إنها حاميته وإنه قائم بقيامها؟ حاشا وكلا»<sup>(1)</sup>.

ثانياً: بالنسبة إلى فكر الحقبة المتأخرة من عصر النهضة، ممثلاً لا بمنظري العلمانية الخالصة من أمثال أحمد لطفي السيد وعلي عبد الرزاق وسلامة موسى وإسماعيل مظهر، بل حتى في شخص مفكر مثل طه حسين تعلم منذ بداية حياته الفكرية ألا يدخل في صدام مباشر مع الإيديولوجيا الدينية السائدة. فمن الحجة المنطقية عينها التي يعتمدها الجابري ليعلم أن «العلمانية غير ذات موضوع في الإسلام»، وهي أنه ليس في الإسلام كنيسة ولا كهنوت، كان طه حسين قد استخلص، قبل خمسين سنة بالضبط، في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» الصادر عام 1938، نتيجة معاكسة تماماً: «فما دام لا كهنوت في الإسلام، ولم تنشأ فيه طبقة ذات منفعة معينة في سيطرة الدين على المجتمع»، فلن يكون من الممكن «إجراء فصل بين الدين والمدنية» مماثل لذلك الذي أجري في أوروبا فحسب، بل إن ذلك سيكون «أسهل على المسلمين منه على المسيحيين»<sup>(2)</sup>.

ثالثاً: بالنسبة إلى فكر محمد عابد الجابري نفسه. فالجابري الذي يدمج في عام 1989 «مسألة العلمانية في العالم العربي» بأنها «مسألة مزيفة» ويطالب بالاستعاضة عنها شعارياً بـ«الديمقراطية والعقلانية»، كان في كتابه عن «الخطاب العربي المعاصر» الصادر عام 1982 قد وجه النقد - وعن سداد

1. المقطع، العدد 3148، (5 آب-أغسطس 1899)، نقلاً عن داية، الإمام الكواكبي، فصل الدين عن الدولة، ص 124-125.

2. حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص 396.

في رأينا - إلى برهان غليون لأنه حكم، في كتابه «المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات» على «إشكالية فصل الدين عن الدولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر بأنها إشكالية مصطنعة ومنقولة عن الغرب» ولأنه طالب بالاستعاضة عنها بإشكالية أكثر مطابقة منها هي إشكالية «علاقة أفراد المجتمع ككل بالدولة»، أي إشكالية الديمقراطية. وقد عزز الجابري نقده لغليون في حينه بالتساؤل بقوله: «إشكالية الديمقراطية نفسها، ألا يمكن البرهنة على أنها هي الأخرى - إذا انطلقنا من نفس المنطق وسلطنا نفس السبيل - «إشكالية مصطنعة ومنقولة عن الغرب؟»<sup>(1)</sup>. ثم خلص، في حينه أيضاً، إلى الاستنتاج بقوله: «إن للحكم بالزيف على إشكالية فصل الدين عن الدولة في الوطن العربي استناداً إلى أن المشكلة الحقيقية ليست مشكلة «العلمانية»، بل مشكلة «الديمقراطية»، إنما يعني المرور بنفس الإشكالية إلى وجه آخر من وجوها، وليس إلغائها أو تجاوزها... فإذا كان هناك من زيف في إحداها فهو ينسحب بالضرورة على الأخرى، هذا فضلاً عن كون «الديمقراطية»، لغة وإشكالية، منقولة إلينا هي الأخرى عن الغرب بنفس الدرجة التي هي منقولة إلينا، من نفس المصدر، «العلمانية» مصطلحاً وإشكالية... إذن فمن الموقع الإبيستمولوجي الذي ننظر منه إلى الأشياء نقول إنه إذا كان هناك من زيف أو عدم نقة في استعمال هذا المصطلح أو ذاك في الخطاب السياسي العربي الحديث والمعاصر، فليس ذلك راجعاً إلى كون الإشكالية التي يعبر عنها «مصطنعة عندنا، منقولة عن الغرب». فالإشكالية ستظل هي هي سواء سميناهما بهذا الاسم أو ذلك... إذا كان هناك من زيف أو التباس فإنما مصدره، في نظرنا، هو انقطاع العلاقة المباشرة بين الفكر وموضوعه، بين منظوق الخطاب ومضمونه، في الأكبيات النهضوية العربية الحديثة والمعاصرة»<sup>(2)</sup>.

وبديهي أننا لو كنا نأخذ نحن أيضاً بالمنظور الإبيستمولوجي لما كان عسيراً علينا، ونحن نعاين على هذا النحو انقلاب الجابري بزاوية 180 درجة على نفسه وتماهيه عام 1989 في الموقف الفكري مع منقوده لعام

1. الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص 76.

2. المصدر نفسه، ص 91-92.

1982، أن نرجع بدورنا هذا التناقض الذاتي إلى «انقطاع العلاقة بين الفكر وموضوعه». ولكن بما أننا نأخذ أساساً بالمنظور السيكولوجي، فإننا نؤثر أن نتكلم بالأحرى عن نكوص. وبالفعل، كان الجابري نفسه قد استعار مصطلح المتكلم المعتزلي إبراهيم بن سيار النظام، الذي يميز بين «حركة النقلة» و«حركة الاعتماد»، ليوظفه في تحليل ظاهرة «تداخل الأزمنة الثقافية» وظاهرة «الاجترار الثقافي» في الفكر العربي، وليصف من ثم الزمن النفسي للخطاب العربي الحديث والمعاصر بأنه - كما رأينا - «زمن ميت». فإن تكن حركة النقلة، حسب تصور النظام، هي انتقال الجسم من موضع إلى موضع، وإن تكن حركة الاعتماد «هي حركته في نفس موضعه»، فإن الجابري يقرر أن «الحركة في الثقافة العربية كانت وما تزال حركة اعتماد لا حركة نقلة»<sup>(1)</sup>. والحال أننا إذ نتبنى بدورنا هذا التوصيف، فإننا نرى أنه لا بد، حتى يحتفظ بقيمته الإجرائية من المنظور السيكولوجي، من أن ندخل عليه تعديلين:

1. فلئن تكن حركة الثقافة العربية علي امتداد الحقبة التي نعرف باسم «عصر الانحطاط» قابلة للوصف فعلاً بأنها «حركة اعتماد»، فإننا نعتقد أن عصر النهضة بالمقابل قد مثل محاولة لكسر إيقاع المرواحة والتحول إلى «حركة النقلة».

2. إن الزمن النفسي ليس ثنائي الحركة، بل ثلاثيها. فبالإضافة إلى إيقاع المدة والسكون الذي يتمثل بـ«حركة النقلة» و«حركة الاعتماد»، يمكن أن تتعكس حركة النقلة إلى ضدها، فيكون بعد «الطفرة» - حسب تعبير سائر المتكلمين - ارتداد إلى الموضع المطفور عنه. وذلك هو النكوص الذي هو بالتعريف زمن العصاب. وذلك هو أيضاً - كما يمكن الاستنتاج بعد هذه «الجلسة» التحليلية الطويلة - زمن الخطاب العربي المعاصر.

---

1. الجابري، تكوين العقل العربي، ص42. أنظر أيضاً الجزء الثاني، بنية العقل العربي (المركز الثقافي العربي، لدار البيضاء 1986)، ص185-186.



# الفصل الخامس

## من الموضوع إلى المنهج

آن الأوان الآن لنطرح سؤالاً يتعلق بالمنهج: فلقد أخذنا على عاتقنا، فيما تقدم من الصفحات، المجازفة بتمديد الخطاب العربي المعاصر على سرير التحليل النفسي؛ فما مدى نصاب هذه المجازفة من المشروعية المنهجية؟

وبعبارة أخرى، هل التحليل النفسي منهج مطابق هنا لموضوعه، وهل الخطاب العربي المعاصر موضوع مطابق لمنهجه؟

أما فيما يتعلق بالثيق الأول من السؤال فحسبنا التذكير بأن التحليل النفسي كمنهج قد كف منذ أمدديد - وربما من بدايته الأولى - عن أن يكون محض طريقة للعلاج النفسي. وقد تأكد بعده المعرفي مع دراسات فرويد «التطبيقية» في مجال علوم الاجتماع والتاريخ والجمال. ومشهورة هي، من هذا المنظور، دراساته عن الطوطمية وما قبل للتاريخ البشري، وعن موسى وديانة التوحيد اليهودية، وعن دافنشي وميكلانجلو ودوستوفسكي وغوته و«غرافيا» ينسن. وقد مضى «التلامذة» في اتجاه تعزيز التحليل النفسي للثقافة، فكانت دراسات كارل أبراهام عن أختاتون والتوحيد المصري، وأوتو رانك عن دون جوان، وإرنست جونز عن هملت، وماري بونابرت عن إدغار آلان بو، وفلهلم راوخ عن الفاشية، وجيزا روهايم عن المجتمعات البدائية. واليوم يكاد يكون من المستحيل

حصر المساهمات الأساسية للتحليل النفسي في شتى فروع علوم الإنسان والمجتمع. وحسبنا التتويه هنا بدراسات جورج دفرو في انتروبولوجيا الثقافة، ودراسات جيرار ماندل في الأنتروبولوجيا والتحليل النفسي الاجتماعي، وفرانكو فورناري في التحليل النفسي للثقافة، وألان بوزانسون في التحليل النفسي للوقائع التاريخية، وجانين شاسغيه-سميرجل في التحليل النفسي للإبداع الفني، وبيرونو بتهلام في التحليل النفسي لحكايا الأطفال، وإريك فروم في التحليل النفسي للغة الرمزية وللإيديولوجيات المعاصرة، وهيربرت ماركوز في التحليل النفسي للحضارة، الخ.

أما فيما يتعلق بالثشق الثاني من السؤال: هل الخطاب العربي المعاصر موضوع مطابق للمنهج التحليلي النفسي؟ فمن الممكن الرجوع هنا إلى رأي محللين ذائعي الصيت لهذا الخطاب. أولهما محمد عابد الجابري الذي أخضع الخطاب العربي المعاصر لتحليل إبستمولوجي، وثانيهما برهان غليون الذي أخضعه لتحليل إيديولوجي-سوسيولوجي.

الحكم الذي ينتهي إليه المحلل الإبيستمولوجي للخطاب العربي المعاصر هو بلا مرأ لصالح المنهج الذي نأخذ به هنا. فهو يقول بالحرف الواحد: «يبدر أن معطيات علم النفس، والتحليل النفسي بكيفية خاصة، تجد ما يركبها في سلوك العرب الفكري إزاء مشروع النهضة»<sup>(1)</sup>.

أما الحكم الذي ينتهي إليه المحلل الإيديولوجي-السوسيولوجي للخطاب العربي المعاصر فهو يميل، على العكس، إلى الإعلان عن عدم مطابقة الموضوع لا للمنهج التحليلي النفسي وحده، بل لكل منهج «تطبيقي» مماثل، وبالتالي إلى إدانة ما يسميه بـ«العلموية الجديدة» إدانة قاطعة دامغة: «يأخذ اليوم مفهوم العلم الدور الذي كان يأخذه مفهوم العقل في بداية القرن. ويعكس ذلك الانخراط أكثر فأكثر في توجه فكري خاطئ يعكس هو ذاته عقلية بيباغوية... فنحن نرفع اليوم شعار الفكر العلمي معتقدين أن العلم هو الحقيقة المطلقة التي لا تتغير لا في الزمان ولا في المكان... نقلص العقل إلى العلم، والعلم إلى معلومات، ونعتقد أننا إذا طبقنا المفاهيم النفسية أو

1. الجابري، الخطاب العربي المعاصر، ص 19.

الاجتماعية أو الاقتصادية العلمية، أي الكونية، والمضمون تاريخياً صلاحها لكل زمان ومكان، وصلنا إلى الحقيقة وإلى حل كل مشاكلنا... وهكذا فنحن في سباق مع الزمن اليوم لترجمة هذه المفاهيم وحفظها وتطبيقها. ونحن لا نقوم في الواقع إلا بإسقاط مفاهيم مشتقة من واقع معين على واقعنا الخاص. فإذا بعالم النفس يكتشف في المجتمع العربي كل الأمراض على الإطلاق ويعيد تفسير مشاكله على ضوء المازوشية والسادية والخصاء والاضطهاد والذهان والهجاس والعصاب والنفاس... هذه العلمية الجديدة المدمرة لم تأخذ قسطها الكامل من الحياة بعد، وستطور بسرعة، إذ مجال النقل عن الغرب هنا لامحدود. وننسى أن هذه المفاهيم التي نستخدمها علمياً ذات تاريخ، مرتبطة بواقع اجتماعي محدد يتطور محدد للمجتمعات الأوروبية، وأن في كل علم موضوعاً يحدد هذه المفاهيم؛ وإذا طبقنا كل ما يتعلق بالشخصية الفردية على المجتمع أضعفنا العلم والمجتمع معاً<sup>(1)</sup>.

وبديهي أنه لا يهنا هنا الدفاع عن «العلمية الجديدة» الموصوفة بأنها «مدمرة»، وإن كنا سنلاحظ مع ذلك أنه خلافاً لما قد يوحي به هذا الهجوم - وهو هجوم عودنا على شنه أصحاب الرؤى الشعبوية كلما تعارضت الخصوصية الأصلية التي ينادون بها مع الكونية العلمية والعقلانية - لأن كان الخطاب العربي المعاصر يشكو من تضخم فإنما من التضخم الإيديولوجي، وليس من تضخم «علمي»، ولئن كان يشكو من ضمور فإنما من ضمور انفتاحه على المنهجيات العلمية الجديدة في مضمار الإنسانية والاجتماعيات. ولكن ما يعنينا بالمقابل هو الطعن المباشر، وبالأسم، في «مفاهيم العلم النفسي الحديث» باعتبارها «مفاهيم مشتقة من واقع معين» ومعممة بالإسقاط على «واقعنا الخاص». ويصرف النظر عن هذه النزعة الخصوصية التي لا تحسن الدفاع عن حق الموضوع في أن يُعَرَّفَ بخصوصيته إلا بإنكارها حق العلم العام في أن يَعْرِفَ، والتي لا تؤكد على «التنوع في الوحدة» بقدر ما تنفي الوحدة نفسها، وتنفي معها وحدة العقل البشري ووحدة النفس البشرية، والتي لا تدعو إلى تكيف الكونية العلمية وتبنيها وتخصيصها بقدر ما تحيي «التصور القومي للعلم» وتخضع

1- غليون، مجتمع النخبة، ص 165-166.

المعرفة العلمية لمنطق الاستيراد والتصدير والنزعة الحمائية مع كل ما يقتضيه ذلك من إقامة حواجز «جمركية» بين الموضوع المعرفي «المحلي» والمنهج المعرفي «المجلوب»، بصرف النظر عن هذا كله فإن إنكار الصلاحية التطبيقية لمفاهيم العلم النفسي الحديث لا يمتنع ناقد «مجتمع النخبة»، في تشريحه لخطاب الحداثة من حيث هو خطاب تغليب لـ «ثقافة النخبة» للوافدة على «ثقافة الشعب» الموروثة، من أن يلجأ هو نفسه إلى استخدام مفاهيم هذا العلم على نحو معمم. فهو لا يكتفي بدمج سلوك النخبة بأنه «سلوك انفعالي»، بل كذلك بأنه «سلوك وسواسي»، ولا يكتفي بدمج فكر النخبة بأنه فكر «هوامي» فاقد «لقدرته على وضع يده على الواقع والإمساك به»، بل كذلك بأنه فكر «فصامي» تحكمه «الآلية السحرية»، أي - بحسب تعريف علم النفس المرضي - «الآلية التي لا تقوم على تغيير الواقع، وإنما على تغيير الفكر نفسه»<sup>(1)</sup>. وإذا كان هذا التحديد لآلية الفكر السحري يطابق تحديد فرويد لآلية الفكر العصابي بوصفها آلية لتشكيل الذات AUTOPLASTIQUE بدلاً من تشكيل العالم الخارجي ALLOPLASTIQUE، فإن مؤلف «مجتمع النخبة» يغرف غرماً مباشراً، وعلى سعة، من قاموس التحليل النفسي عندما يتحدث أيضاً عن «الأفكار الوسواسية المستبدة» وعن «الرجسية والأناية وللتمحور القاصر على الذات» في الفكر العربي السائد وعن «فصامه الذاتي»<sup>(2)</sup>. بل إنه، في أحدث المنشور من كتبه، يمارس الفرويدية بنفسه ويتحدث عن «عودة المكبوت الماضوي»، وعن موقف العرب «المرضي» من الواقع، وعن «تعاملهم العصابي» معه، وعن تلذذهم المازوخي بـ «تعذيب النفس» و«الرغبة في تدمير الذات»، وعن ازدواجيتهم الوجدانية التي تقلب بسهولة «الشعور الأكسى بالدونية» إلى «الشعور المناقض بالتفوق والأسبقية الحضارية»<sup>(3)</sup>. فإن لم يكن هذا كله بعضاً من أعراض «العصاب الجماعي العربي» الذي نتحدث عنه، فماذا يمكن أن يكون؟

1. المصدر نفسه، ص 289.

2. المصدر نفسه، ص 288 و 291.

3. غليون، الوعي الذاتي، ص 108-109.



لكن بما أن كل منهج لا يستمد مشروعيته في التحليل الأخير إلا من مرجعيته الخاصة وضمن إطارها، فلندع جانباً المناقشة مع محلي الخطاب العربي المعاصر من مواقع منهجية مغايرة، ولننظر في مشروعية مفهوم «العصاب الجماعي» في إطاره المرجعي الخاص. فقد يبدو هذا المفهوم هرطيقياً حتى بالنسبة إلى التحليل النفسي، إذ أن علم النفس المرضي درج، كما يلاحظ فرويد نفسه، على حصر مبحث أسباب «العصاب البشري بمختلف ضروبه... بمضمار علم النفس الفردي»<sup>(1)</sup>. على حين أن الظاهرة التي نحن بصدد تحليلها - الخطاب العربي للمعاصر - عدا أنها لاشخصية، فإن فاعل الفعل فيها جماعي، وفي بعض الحالات مبني للمجهول. ولكن فرويد هو أيضاً من ضرب القدوة في مشروعية النقلة من علم النفس الفردي إلى علم النفس الجمعي من خلال كتابه عن «موسى والتوحيد» الذي أقام فيه موازنة بين تطور الفرد وتطور النوع البشري، مؤكداً أن «الآليات عيها التي تتسبب في ظهور ضروب العصاب تلعب دورها على الدوام في المظاهر التي ندرسها هنا [أي المظاهر الدينية]»، ومفسراً بالتالي اليهودية على أنها ضرب من عصاب جماعي حكمته، كما في جميع الأعراض العصابية، آية «عودة المكبوت» [والمكبوت للعائد هنا هو جريمة قتل «الأب» موسى على أيدي «أبنائه اليهود»<sup>(2)</sup>]. ولكن إذا كان فرويد لم يستخدم في كتابه «موسى والتوحيد»، الصادر عام 1939، تعبير «العصاب الجماعي»، فقد كان سبق له، في مقاله لعام 1907 عن «الأفعال الاستحوائية والشعائر الدينية»<sup>(3)</sup>، أن استخدم تعبير «العصاب الكوني»، وذلك عندما وصف العصاب بأنه «دين فردي»، والدين بأنه «عصاب جماعي».

على أنه دفعاً لأي التباس لا بد أن نبادر إلى القول بأن «العصاب الجماعي» الذي يمكن استقراؤه من تحليل الخطاب العربي المعاصر لا يعني

1. سيغ蒙德 فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طراينيشي، ط4 (دار الطليعة، بيروت 1986)، ص101.

2. المصدر نفسه، ص176.

3. انظر ترجمتنا لهذا المقال في: سيغ蒙德 فرويد، مستقبل وهم، ط3 (دار الطليعة، بيروت 1981).

بحال من الأحوال أن كل من مارس هذا الخطاب الجماعي هو بالضرورة على الصعيد الفردي إنسان عصابي. فالخطاب العربي المعاصر، من حيث هو خطاب لاشخصي، يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي عن فاعله الجماعي. وفضلاً عن ذلك فإن له، ككل خطاب، معقوليته الخاصة، ومنطقه اللقائم بذاته، وتبريراته العقلية التي يقتضيها تماسكه الذاتي. ولكن هذا لا يعني بالمقابل أن الخطاب العربي المعاصر اللاتشخصي غير قابل لأن يتخذ ركيزة لإسقاطات وجدانية شخصية، ولأن يقرأ بالتالي على أنه سيرة ذاتية لفاعل الفردي الجزئي. بيد أن مثل هذا الربط بين عصابية الخطاب الجماعي وعصابية الفاعل الفردي لا يكون مشروعاً إلا إذا أقيم البرهان عليه حالة حالة، وإلا إذا جُرد الخطاب من جماعيته وغفليته وجرى تحليله، في الحالة العينية المفردة، كخطاب شخصي مرتبط وجدانياً بشخص قائله ارتباط السيرة الذاتية بكتابتها<sup>(1)</sup>.

ولكن إذا أمكن لنا على هذا النحو أن نجتاز - ولو بالقفز - الهوة التي تفصل بين علم النفس الفردي وعلم النفس الجمعي، وتلك التي تفصل أيضاً بين الظاهرة اللاشخصية وفاعليها الشخصيين، فثمة صعوبة أخرى لا يزال مطلوباً منا تذليلها، وهي تلك التي تتمثل في أن الخطاب العربي هو بالتعريف ظاهرة ثقافية، على حين أن العصاب الذي نحن بصدد رصد أعراضه وقراءة دلالاتها لا يمكن أن يكون بالتعريف أيضاً إلا من طبيعة نفسية. والحال أن مثل هذه للصعوبة سهلة التذليل إذا ما أخذنا في اعتبارنا أن الواقعة الثقافية هي أيضاً واقعة نفسية. بل إن رائداً كبيراً للتأولوجيا التحليلية النفسية ولأنثروبولوجيا الثقافة مثل جورج ديفو لا يتردد في الجزم بأن الواقعة الثقافية قابلة للتحويل إلى مادة نفسية: «إن الواقعة الاجتماعية-الثقافية، منظوراً إليها من زاوية تاريخية خاصة، هي برانية المنشأ وتؤلف جزءاً من الخارج... ولكن حالما نتخلى عن هذا التصور التاريخي - والتبسيطي - للأشياء وننتقل إلى تحليل وظيفي، فإن «الواقعة الثقافية» تكف عن أن تكون خارجية. بل إنها، بتحولها إلى مادة أو بنية

1. سنقدم في الجزء الثاني من كتابنا هذا تحليلاً عينياً ومشخصاً من هذا القبول من خلال «الحالة السريرية» التي تقدمها لنا كتابت حسن حنفي حول التراث.

نفسية، إلى أنا أو أنا أعلى أو مثال للأنا - أي باختصار إلى شيء مُتَعَلِّم أو منتج أو مبني - تصوير جوانية وتؤلف جزءاً من الداخل»<sup>(1)</sup>. وبالفعل، لقد كنا رأينا أن الواقعة الثقافية المتمثلة بإحياء التراث غالباً ما تُقرأ في اللاشعور الجمعي العربي على أنها استعادة للقدرة الفالوسية التي أستاذلها «الجراح الغربي». هكذا يكف التراث عن أن يكون هو التراث ليتحول، على نحو ما يلاحظ سندور فيرنزي بالنسبة إلى قصص الأطفال<sup>(2)</sup>، إلى قصة تسود فيها تخیيلات كلية القدرة بلا منازع، ويتحول فيها التراث إلى عصا سحرية قادرة على كل ما لا يُقدَّر عليه في الواقع. وإذا كنا نتفق من هذا المنظور مع ما يؤكد محمد أركون من أن «التراث الذي يدعو إليه الفكر العربي المعاصر سلاح من أسلحة الكفاح أكثر منه مفهوماً ثقافياً ذا أبعاد تاريخية معرفية»<sup>(3)</sup>، فإننا سنلاحظ مع ذلك إن هذا الرد لما هو ثقافي إلى ما هو إيديولوجي يقف، من منظورنا التحليلي النفسي، في منتصف الطريق لأن ما هو إيديولوجي قابل هو نفسه للرد إلى ما هو نفسي، باعتبار أن الإيديولوجيا قابلة للتعريف تحليلاً نفسياً بأنها «نظام نو ظاهر عقلائي يقدَّر أو يأخَر، يناظر واجهة الحلم والصياغة الثانوية»<sup>(4)</sup>، ويحتوي دوماً على وهم الصعود النرجسي المرتبط بالعودة إلى الانصهار الأولي، والنافي في الوقت نفسه للصراع والخصاء، والعامل بالتالي تحت راية الوهم»<sup>(5)</sup>.

ولكن هنا ينهض سؤال أساسي: كيف يمكن التمييز بين الواقعة الثقافية التي تدرج في مضمارها الطبيعي الذي هو المضمار المعرفي وتمثل في

- 1- جورج دفرو، التحليل النفسي الأنتولوجي التكاملي Ethnopsychanalyse complémentariste (منشورات فلاماريون، باريس 1985)، ص 63.
- 2- سندور فيرنزي، «تطور حس الواقع ومراحله»، في: الأعمال الكاملة، الترجمة للفرنسية، المجلد الثاني (منشورات بايو، باريس 1978)، ص 65.
- 3- محمد أركون، «التراث محتواه وهويته»، في: قتراث وتحديات العصر، ص 157.
- 4- الصياغة الثانوية هي التحوير الذي تخضع له أحداث الحلم بحيث يأخذ، في مضمونه الظاهر أو واجهته، شكل سيناريو له نصيبه من التماسك المنطقي ومن قابلية الفهم. والصياغة الثانوية، إذ تجرد الحلم من عبقثته، يمكن أن تعد من قبيل العقلنة Rationalisation التي تخضع لها كل مادة نفسية.
- 5- جانين شاسغيه-سميرجل، مثال الأنا، دراسة تحليلية نفسية حول مرض المثالية، ص 214.

هذه الحال موضوعاً مطابقاً للمنهج الإبستمولوجي أو السوسولوجي، وبين تلك التي تتدرج أيضاً جزئياً أو كلياً في المضممار النفسي وتمثل في هذه الحال موضوعاً مطابقاً للمنهج السيكلولوجي والتحليل النفسي؟

يخيل إلينا أن معيار هذا التمييز مباطن للواقعة الثقافية نفسها، وأنه من طبيعة مزدوجة:

1. إذا كانت الواقعة الثقافية حاملة لدلالة رمزية طاغية على دلالتها المعرفية، وبخاصة إذا كانت هذه الرمزية من طبيعة جنسية، فالوسية أو خصائية، أو كانت تحيي ما أسميناه بالمخطط العائلي في تصور العالم.

2. إذا كانت الواقعة الثقافية حاملة لسمة اللاعقلانية. وما نقصده باللاعقلانية هنا ليس مؤداها للمنطقي بمعنى الخروج على مقتضيات للعقل فحسب، بل كذلك مؤداها النفسي بمعنى تجاهل قوانين الواقع، وانتهاك حدوده، والاستسلام لإغراء الوهم، واللهات وراء كلية القدرة للرجسية المفتقدة، وممارسة مختلف ضروب الفكر السحري الذي يرأى بالتلاقي بين الأنا ومثاله الذي هو، في الحالة التي نحن بصدها، مثال ماضوي.

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار من جهة أولى أن الرمز هو بالتعريف «رابطة بين دالين، دال شعوري ودال لاشعوري، علماً بأن هذه الرابطة نفسها تكون لاشعورية»<sup>(1)</sup>، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار من جهة ثانية أن لفظ «اللاعقلاني» هو، في نظر علم النفس، علامة على أصل لاشعوري، أي على شيء صادر عن «تلك المناطق السحيقة من العقل التي لا علم لنا بها على الإطلاق»<sup>(2)</sup>، فمن الممكن القول إن ما يفرق بين الواقعة الثقافية المعرفية والواقعة الثقافية النفسية هو اندراج هذه الأخيرة، سواء أكانت حاملة لسمة الرمزية الجنسية والعائلية أم لسمة اللاعقلانية، تحت لواء اللاشعور. وبتعبير آخر، يمكن القول إن الواقعة الثقافية المعرفية أحادية

1. ماندل، الانثربولوجيا الاختلافية: نحو اقثربولوجيا تطبيعية نفسية اجتماعية، ص207.

2. إيرنست جونز، مقالات تطبيقية في التحليل النفسي، للترجمة الفرنسية، للمجلد الأول (منشورات بليو، باريس 1973)، ص230-231.

المنطق، أما الواقعة الثقافية النفسية فمزوجة المنطق. فهي في منطقها الظاهر أو الفوقي ليست إلا لبنة من اللبنة التي تنهض عليها عمارة الخطاب العربي المعاصر. أما في منطقها الباطن أو التحتي فهي شاشة لتمظهر العصاب الجماعي المنتج لذلك الخطاب والمحكوم، ككل عصاب، بآليات لاشعورية. ومن ثم جازت قراءتها كما يقرأ العرض، أي بالإحالة لا إلى معقوليتها المعلنة، التي هي من طبيعة ثقافية أو إيديولوجية، بل إلى ما يختفي وراء واجهة هذه المعقولة من موقف نفسي لاشعوري تنشي به لغة الرمز أو اللاعقل.

وعلى هذا النحو نجد أنفسنا على خلاف من جديد مع صاحب مشروع «نقد العقل العربي». فبعد أن كنا لتقنا معه على أن «معطيات علم النفس، والتحليل النفسي بكيفية خاصة، تجد ما يزيكها في سلوك العرب الفكري»، فإننا لا نستطيع إلا أن نعود فنعلن عن عدم اتفاقنا معه عندما نراه لا يستخلص من هذه الملاحظة التقريرية أي نتيجة منهجية ويؤكد على العكس – وبالتضاد – مع منطوقها – أن «إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر إشكالية فكرية ثقافية محض، بمعنى أنها تجد أسسها ومبررات وجودها في الوضع الثقافي والفكري الراهن»، وعندما يثني بالقول بأنها «إشكالية نظرية يميل استقلالها النسبي عن الواقع نحو المائة بالمائة»<sup>(1)</sup>.

فإشكالية الأصالة والمعاصرة، التي هي الإشكالية المحورية في الخطاب العربي المعاصر، هي عندنا على العكس – وكما حاولنا أن نثبت على امتداد الصفحات السابقة – نموذج للإشكالية الثقافية التي لا يمكن وصفها بأنها «ثقافية محض»، والتي يمكن أن يقال على العكس – إذا شئنا أن نغالي مغالاة الجابري – بأن تبعيتها النسبية للواقع النفسي، لا استقلالها عنه، تميل نحو المائة بالمائة. وصحيح أن هذه الإشكالية تطرح نفسها، من خلال إطارها المرجعي الخاص، على أنها إشكالية ثقافية، ولكن مثل هذا الطرح

1. محمد عابد الجابري، «إشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر: صراع طبقي أم مشكل ثقافي؟»، في: التراث وتحديات العصر، ص 31 و 45. والتسويد منا.

يظل أقرب في آليته إلى ما أسماه إرنست جونز العقلنة Rationalisation منه إلى العقلانية Rationalité بحق معنى الكلمة. فالرؤية الثقافية Culturaliste لهذه الإشكالية هي، على ضرورتها منهجياً، رؤية حاسرة لأنها تعجز عن أن ترى أن هذه الإشكالية «الثقافية المحض»، مثلها مثل الإيديولوجيا عند ماركس، لا يكمن تعيينها في ذاتها بقدر ما يكمن، مهما يكن حظها من الاستقلال الذاتي، في الواقع النفسي الذي يقوم لها مقام البنية التحتية للإيديولوجيا.

وهنا نجدنا مدفوعين إلى أن نلاحظ أن القراءة «الوظيفية» التي يقترحها صاحب مشروع «نقد العقل الإسلامي» لأشباه هذه الإشكالية الثقافية تبدو لنا أجدى بما لا يقاس من القراءة «النظرية» الخالصة التي يقترحها صاحب مشروع «نقد العقل العربي». يقول محمد أركون: «إن أية قراءة سديدة لمزمة بأن تعزف عن الرفض الجدالي كما عن الرفض «العلمي» المتعجرف في تسامحه لتبحث عما سنسميه بالحقائق الوظيفية. فهذه الحقائق تفرض نفسها كتظاهرات غير قابلة للكبح لحياة المجتمعات التي تحاول التعويض عن الانتقاصات الفعلية من القيمة، بل عن التدميريات الفظة لمقومات وجودها التقليدية، بالمبالغة في إعادة تقييم التراث الإسلامي. فالهرب إلى أنا أعلى مبني، مملوم به، يسمح بتخفيف وقع الصدمات على الأنا الفردي والجمعي. وهذه ظاهرة نلاحظ في عدد جم من المجتمعات المعاصرة المعرضة لتعديبات التصنيع؛ وهي تتلبس، في الإسلام، تعبيراً مأساوياً لأن كل التفاوتات المعروفة في الغرب بين التقاليد والحدثة تفاقمها هنا قطيعتان تاريخيتان لم ترم هوثما بعد: قطيعة الإسلام الموصوف بالحدوث بالنسبة إلى الإسلام الكلاسيكي، وقطيعة العالم الإسلامي بالنسبة إلى أوروبا منذ القرن السادس عشر»<sup>(1)</sup>. وباستثناء ملاحظة جزئية تتصل بالاستعارة من القاموس الاصطلاحي للتحليل النفسي – إذ كان من الألق الكلام عن «الهرب إلى مثال الأنا Idéal du moi بدلاً من «الأنا الأعلى» Sur-moi – فإن نص ناقد الإسلامي قابل للتطوير على ما يخيّل إلينا، في فقرته الأخيرة، في اتجاه إجراء تمييزين اثنين:

1. أركون، نحو نقد للعقل الإسلامي، ص 111.

1. التمييز، داخل العالم الإسلامي، بين ما هو «إسلامي» وبين ما هو «عربي إسلامي».

2. التمييز، داخل قطيعة الحدث، بين ما هو «حديث» وما هو «معاصر».

وغيرنا من هذا للتمييز المزج واضح: فنحن نتحدث عن عصاب جماعي عربي وعن خطاب عربي معاصر، وذلك بالإحالة بالتحديد إلى الرضّة الحزيرية التي كانت رضة للعرب دون سائر المسلمين، وللمعاصرين دون سائر المحدثين.

وفي الواقع، إن المفعول الجماعي لهذه الرضّة لا يمكن أن يستوفي حقه من الاعتبار ما لم نستمر من القاموس الفرويدي مصطلحاً آخر يؤكد البعد التكاملي في مبحث أسباب العصاب، وهو مصطلح «السلسلة المتتامة»<sup>(1)</sup>.

فعند فرويد أن احتمال تخض عصاب من الأعصبة يخضع تكاملياً ودينامياً لعوامل أربعة:

1. رضة قوية بما فيه الكفاية لإطلاق آلية العصاب.

2. جبلة ضعيفة بما فيه الكفاية للوقوع ضحية العصاب.

3. تجربة تثبئية على رضة ماضية.

4. ظروف محيطة أو خارجية مساعدة.

وَيُخَيَّلُ إلينا أننا أوفينا العامل الأول حقه من خلال كل ما كتبناه عن هزيمة يونيو-حزيران «السوداء» التي مثلت نموذجاً ناجزاً للرضّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار تعريف علم النفس المرضي للرضّة بوصفها «لفارق بين كمّ التثبية المتلقى فعلياً من قبل الأنا وبين الكم الذي يمكن له أن يستقبله، أن يربطه، أن يسيطر عليه في لحظة معينة»<sup>(2)</sup>. وكل ما هنالك أن الأنا

---

1. انظر تعريف «السلسلة المتتامة» في: سيغ蒙德 فرويد: النظرية العامة للأمراض العصبية، ترجمة جورج طرابيشي، ط2 (دار الطليعة، بيروت 1986)، ص134، وكذلك في، موسى والتوحيد، ص103.

2. ج.ج. لوستن، «العيادة الطفلية»، في الوجيز في علم النفس المرضي Abrége de psychologie pathologique، ط2 (منشورات ماسون، باريس 1976)، ص35.

الذي تلقى الرضة الحزيرانية كان أنا جماعياً، أو قلنقل، إذا شئنا التمسك بالمحمول الفردي للأنا، إن الرضة الحزيرانية، التي كانت بطبيعتها عامة، كان لها من قوة المفعول وشموله ما جعلها تستثير استجابات فردية مقننة، أو حتى موحدة.

أما ثاني العوامل الأكيولوجية فقد تعددت إشارتنا إليه سابقاً - وستكون لنا عودة إليه لاحقاً عند تحليلنا لكتابات حسن حنفي - وهو يتمثل في أن جبلة الشخصية العربية الحديثة جبلة مجروحة ومتجددة الاجراح، وقابلة للتأريخ ميلادياً بالجرح النرجسي الذي لا يزال فاغر الشفتين منذ أن أفاقنا على واقع تأخرها في مواجهة الغرب المتقدم. فلو أن أمة أخرى، لا تعاني في شخصيتها القومية من الوهن الذي تعاني منه الشخصية العربية الحديثة بفعل استمرار النزف النرجسي، واجهت هزيمة مثل هزيمة حزيران، فأرجح الظن أن هذه الهزيمة كانت ستبقى بالنسبة إليها مجرد هزيمة ولن تأخذ حجم الرضة غير القابلة للتصريف.

وبالمقابل، فإن الحلقة الثالثة من «المنسلة المتنامة» تحتاج منا إلى وقفة متأنية. فلئن يكن النكوص كما رأينا هو المظهر الرئيسي الذي يتجلى به المفعول الرضّي، فإن لفظ النكوص ومفهومه بالذات لن يكون بذي موضوع إذا لم تكن هناك محطة من محطات سفرة النمو يمكن أن تنكفي إليها الشخصية الناكصة مثلما كان الشاعر العربي ينكفي إلى أطلاله ليبكيها. فالنكوص، إن لم يكن له بد من دافع راهن، فلا بد أن يكون له أيضاً إغراء ماضٍ. فلا مجال للنكوص إذا لم يكن هناك تثبيت على الماضي. والحال أن العرب عرفوا تجربة تثبيتية من هذا القبيل ربما لم تعرفها أمة أخرى من أمم الأرض. فقد بلغ من تعلقهم بالماضي أنهم أضحواء في إدراكهم لذاتهم وفي إدراك الآخرين لهم، أمة العصر الذهبي، ولكنه العصر الذهبي الذي إلى الوراء لا إلى الأمام، بل العصر الذهبي الذي لا يتقبل ذاته مستقبلاً إلا في صورة إحياء للماضي: فالبيوطوبيا عندهم هي عبارة عن بحث. وذلك هو - ربما - سر انفرادهم باختراع كلمة «السلفية» التي لها بمفردها وقع المفارقة: التقدم بالرجوع إلى الخلف. وهذا التثبيت الفريد في نوعه على



الماضي يقع تحت الملاحظة المباشرة لصديق العرب كما لعدوهم، للمراقب الخارجي كما للمراقب الذي من داخل. وحسبنا بعض الشواهد:

يقول صديق العرب الكبير الأفغاني جمال الدين في واحدة من خاطراته التي ينفذ فيها إعجاب العربي «بماضيه وأسلافه وهو في أشد الغفلة عن حاضره ومستقبله وكيف يجب أن يكون»:

«الكون يشهد، والآثار تدل، ولا من ينكر على أن للعرب - وغيرهم من العجم - آثاراً ومفاخر أتت من وراء الهمم وصنق العزائم، ولكنها بالأسف دفنت في أحداث الأجداد، وجاورت عظام أولئك العظام - أهل النجدة، أسود الحمية وغوث المضيض يوم القعدة، شوامخ القوة، رواسي العدل - عثر عليها الخلف بالنش وهو في جبانة «الجبن» و«الخمول»، وقرأها في سطور حادثات الدهر وأوراق سجل العالم، فطفق يفخر، ويعتد، ويصول، ويطول، ويقول: نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالشرق، وانقضت شهبها على المغرب، فنلت لهم رقاب القياصرة والأكاسرة، وخضعت لأمرهم الأمم، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض، فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملؤوها بالرحمة والعدل. وهكذا لا تزال تسمع كلاً من العربي والفارسي - وغيرهما من الشرقيين - يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد، ونحن سلالة وثرية أولئك الأقبال الأمجاد، ونحن نحن، مما يثير الأشجان، ويثير الإحزان»<sup>(1)</sup>.

ويقول عدو كبير للعرب، وهو موشي دايان، وزير الدفاع الإسرائيلي السابق في أثناء حرب حزيران 1967:

«يميل العرب إلى خداع أنفسهم وخداع غيرهم، وهم يقومون بذلك عن غير عمد. فهم يميلون دائماً إلى التحدث عن أمجاد الأجداد.. عن صلاح الدين.. عن معارك حطين واليرموك.. وبينما يفعلون ذلك فإننا نتبسم لأنهم يرون أنفسهم في مرآة أمجاد الماضي، أما نحن فنراهم في مرآة الحاضر... ليتهم

1. محمد باشا المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني الصيني، ط2 (دار الحقيقة، بيروت 1980)، ص 289-290.

يسألون أنفسهم لماذا يتحدثون دائماً عن عظماء ماضيهم ولا يجدون في حاضرهم أحداً من العظماء يتحدثون عنه؟<sup>(1)</sup>.

أما المراقبان الخارجي والداخلي فيميلان، مع التنويه بهذا التثبيت على الماضي، إلى التحذير للضماني من طابعه العصائبي ومن أخطاره الشالة للحركة باتجاه المستقبل. يقول ياسومازا كورودا، الأستاذ الياباني الأصل في جامعة هاواي بهونولولو: «إن العرب يملكون تراثاً غنياً جداً، حضارة تبدو، إلى حد ما، أنها تعمل ضد المصلحة العربية. فقد كان اليابانيون، الذين لم يطوروا على الإطلاق الحضارة الرفيعة المستوى التي طورها العرب أو الصينيون في الماضي، قادرين على تقبل العلوم والتكنولوجيات الغربية الجديدة باستعدادية أكبر من استعدادية العرب أو للصينيين. ويبدو أن اليابانيين طوروا حاسة الموازنة بين ثقافتهم بأنفسهم والتعقيد الداخلي بالنسبة للغرب لصالح الأمة ككل. وربما يستفيد العرب أيضاً إذا استطاعوا أن يطوروا بحكمة الاعتزاز الكافي بتراثهم، ولكن دون أن يتركوا كبرياءهم يقف عائقاً في وجه عملية تطورهم الذاتي»<sup>(2)</sup>. وبدوره يحذر رياض نجيب الريس من أن يكون التثبيت على الماضي و«التعصب للتاريخ تعصباً ضد الحياة وضرورتها» ويقول: «العجيب أن العرب لا يقدرون على الانفصال عن الماضي أو التذكر له، ولا يقدرون كذلك على أن ينفصلوا عن الحياة. فظلوا معلقين في الجسر المعلق بين الحياة والماضي. هذا الوضع الشاذ جعلهم يتسامحون كثيراً مع من ينتقد حياتهم، ولكنهم يرفضون التسامح مع من ينتقد تاريخهم. على هذا الأساس ظل التناقض قائماً وحاداً بين صراعاتهم الحضاري من أجل التقدم وبين تقديمهم لتاريخهم. وظلت جانبيه التاريخ أقوى من قوى التقدم الحضاري»<sup>(3)</sup>.

أما العامل الرابع والأخير من عوامل السلسلة المتتامة، ونعني به الدور المساعد للظروف المحيطة أو الخارجية في تشغيل آلية الرضا والنكوص،

---

1. نقلاً عن أمين هويدي، «موقف القوى الخارجية وتحركها في مواجهة القومية العربية والإسلام»، في: القومية العربية والإسلام، ص 687-688.

2. في: التراث وتحديات العصر، ص 271.

3. المصدر نفسه، ص 129.

فهو يتألف من شقين: سلبي وإيجابي. أما الشق السلبي فيتمثل في فشل الإيديولوجيا التحديثية التي كان يمكن أن تمثل قوة دافعة باتجاه الهضم النفسي للهزيمة الحزيرية واستقلالها وقلبها من قوة نكوص إلى الورا إلى قوة دفع إلى الأمام تطبيقاً لقانون «الفعالية الثورية في النكبة». وأما الشق الإيجابي فيتمثل في صعود الإيديولوجيا النكوصية، «محمولاً على ظهور براميل البترول» على حد تعبير ياسين الحافظ. وبالفعل، وإذا كانت تكثر الإشارات في أدبيات علم الاجتماع السياسي العربي إلى انحصار في إيديولوجيا الحدأة وانكسار لقواها، باعتبار أن هزيمة 1967 كانت هزيمة مباشرة للأنظمة السياسية التي كانت تحمل لواءها، فثمة بالمقابل صمت شبه مطبق حول التصعيد المموّل بالمال النفطي للإيديولوجيا النكوصية. وربما كان الكاتب العربي الوحيد الذي قطع جدار هذا الصمت هو ياسين الحافظ حين كتب قبيل وفاته يحذر هو الآخر من «غزو ثقافي» تتعرض له المنطقة العربية، ولكنه غزو ثقافي من طبيعة مغايرة تماماً لما بات يعنيه هذا التعبير في الخطاب العربي المعاصر. فهو بعد أن يلاحظ أن «السبب الأكثر أهمية في تنامي سلطان الإيديولوجيا التقليدية هو تهافت وإخفاق الإيديولوجيا والحركة القوميتين، وكذلك الماركسية العربية، باعتبار أن هزيمة حزيران هي بالتحديد هزيمتهما»، يضيف قائلاً: «وجاء أخيراً دور الإيديولوجيا البدوية التقليدية محمولة، بدلاً من على ظهور الجمال، على ظهور براميل البترول: الشعوب العربية غير البترولية، الأقل تأخراً بنسبة ملحوظة من الشعوب البترولية، تتعرض لعملية ضغط وغزو إيديولوجي وثقافي، ناهيك عن الغزو السياسي، من قبل الأخيرة»<sup>(1)</sup>. والعجيب في هذا «الغزو الثقافي»، للممول بعائدات النفط الصحراوي، أو ما يسميه جورج قرقم بـ«المن البترولي»<sup>(2)</sup>، أنه لا يحجم، ترويحاً للإيديولوجيا النكوصية، عن توظيف التقنيات الإعلامية الأكثر حداثة: من الميكروفون إلى الراديو إلى التلفزيون

1. الحافظ، الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة، ص186.

2. جورج قرقم، أوروبا والشرق L'Europe et L'Orient (منشورات لانيكوفيرت، باريس 1989)، ص291. والمؤلف لا يكتفي بتفكيك آلية التمويل النفطي للإيديولوجيا النكوصية، بل يفصح أيضاً الوظيفة التي يؤديها ترويح هذه الإيديولوجيا في خدمة الإستراتيجية الغربية.

إلى الفيديو إلى الكاسيت إلى الصحيفة إلى المجلة المطبوعة بواسطة القمر الصناعي أو اللازر.

وعلى هذا النحو تكون السلسلة المتتامة بمختلف عناصرها قد سرى عليها قانون المفعول التركمي. فهناك، من جهة أولى، رضة جماعية طارئة قميئة، كما في حالات الحروب والأزمات الكبرى، بتوحيد الاستجابات الفردية، وهناك، من جهة ثانية، جرح نرجسي طريء ما انقطع له نرف. وهناك، من جهة ثالثة، خبرة تاريخية تثبينية تليدة منقطعة النظير تقدم ميداناً نفسياً فسيحاً وموائماً إلى أقصى حد لإطلاق آلية عودة المكبوت. وهناك من جهة رابعة، واقع موضوعي موسوم بعمق بميسم الإحباط والفضل والشعور بالذنب والتأثم، من شأنه أن يستدعي المكبوت وأن يرأري، من قبيل التعويض، بوهم كلية القدرة المفقودة. وهناك، من جهة خامسة وأخيرة، استراتيجيات واعية ومخطط لها مطلقاً ودولياً ومنفق عليها بسخاء واقتدار لمد جسور النكوص نحو الماضي وإطلاق المكبوت من قمقمه.

هل معنى هذا أن النكوص حتمية لا راد لها؟ الواقع، وكما يفيدنا الدرس التحليلي للنفس، فإنه «توجد أيضاً لدى الإنسان رغبة في التقدم والنضوج تعارض النكوص، رغبة في الاستقلال الذاتي تعارض التبعية... وهذه الرغبة في النضوج والتحرر تقوم على أساس من تطور سلطان العقلانية لدى الإنسان؛ والعقلانية تتحدد بغائيتها: تخفيف ضغوط المحيط البشري الخارجي والداخلي، بما في ذلك تخفيف ضغط اللاعقلانية اللاشعورية على الأنا، وتصحيح التشوهات التي فرضتها هذه اللاعقلانية على رؤيتنا للعالم. ومن الممكن أن نتساءل عما إذا لم تكن هذه الرغبة في النضج والتحرر والاستقلال الذاتي، وعما إذا لم تكن سلطة العقلانية تلك وقدرة للتخفيف تلك، هي محض تعبير عن غريزة الحياة وعن «حب الذات» شبه البيولوجي... الذي من شأنه أن يحول عدم النجاح الأولي وعدم التوافق الأصلي إلى تفتح نفسي وجداني وعقلي؟»<sup>(1)</sup>.

والواقع أيضاً أن اللاعقلانية اللاشعورية، على قوة تجزئها في النفس

1. مفلند، التمرد على الأب، ص 50-51.

البشرية، وعلى ضخامة المدد الذي يمكن أن نتلقاه من القوى العاملة عن وعي واختيار ميساسي باتجاه النكوص وإعادة المكبوت، ليست كلية القدرة. فثمة نقطة أساسية تلعب في الأمور البشرية لصالح العقلانية، وهي أن الواقع هو الواقع، وكل من يرفض أن يأخذ بعين الاعتبار يتحطم على صخرته. وفي مواجهة هذا الواقع، فإن العقلانية هي وحدها ذات الجدوى. يقول مؤسس التحليل النفسي الاجتماعي: «إن الوقائع لعنيدة، ولذة النرجسية العتيقة التي يلاقيها الفرد في ممارسة «كلية قدرة الأفكار»، أو في الفكر السحري، أو في الأوهام على مختلف ضروبها، لا تكوم متى ما تأخر الإشباع المنتظر أكثر مما ينبغي عن الوصول. والنقطة الوحيدة التي تشد أزر العقلانية في نضالها ضد اللاعقلاني هي فعاليتها. فالشجرة يحكم عليها من ثمارها - على الأقل بالنسبة إلى من لا يستطيع إفلاتاً من قبضة الجوع»<sup>(1)</sup>. ولقد كان فرويد نفسه لاحظ أن انتصار العقلانية على اللاعقلانية أمر محتوم في نهاية المطاف لأن العقلانية هي وحدها التي يمكن أن تقدم إشباعاً فعلياً وأن تفتح الطريق أمام إمكانية تحرير حقيقي، بحكم اعتمادها على مقارنة علمية وواقعية للواقع، في حين أن الإشباع الوحيد الذي يمكن لللاعقلانية أن تقدمه هو الإشباع عن طريق الهلوسة الذي هو بالضرورة إشباع كاذب وغير مجد وأشد إحباطاً في خاتمة المطاف من الإحباط الفعلي الذي يحاول أن يدرأ بتغيضه وأن يشبعه سحرياً. وقد يكون التعاطي السحري مع العالم أَرْضَى للنفس وألذ، ولكن التعاطي العلمي والواقعي مع الواقع هو وحده للمحرر. ومن ثم يمكن اعتبار النقلة من مبدأ اللذة في النشاط العقلي إلى مبدأ الواقع نقلة من طفولة البشرية إلى سن رشدها. وهذا هو أصلاً معنى الحداثة: الاعتقاد بوجود عالم موضوعي؛ والاعتقاد بقدرة العقل، مسلحاً بسلاح العلم والمنهج التجريبي، على معرفة هذا العالم، إن لم يكن في ماهيته، فعلى الأقل في قوانينه؛ والاعتقاد أخيراً بقدرة الإنسان على التدخل، من خلال هذه المعرفة، في الظروف السائدة في العالم الخارجي بغية السيطرة عليها ومحاولة تعديلها ولو جزئياً.

1. المصدر نفسه، ص 351.

هذه الولادة للحدث، المرتبطة بالتخلي عن الفكر السحري الابتدائي لصالح الفكر العلمي التجريبي، وبتراجع الشعور بكلية القدرة الذاتية لصالح الاعتراف بنقل الواقع الموضوعي، و«بانصباب الاهتمام على الأشياء أكثر منه على الألفاظ»<sup>(1)</sup>، هذه الولادة للحدث والعقلانية هي التي ينكص عنها الخطاب العربي المعاصر القابل للتوصيف بـ«التراشي». فهذا الخطاب، إذ يتمحور حول التراث تمحوره حول «قضية القضايا»، يبدو وكأنه يعود، تحت ضغط الإحباط، إلى إيلاء الألفاظ اهتماماً أكبر من ذاك الذي يوليه للأشياء، وإلى التوجه إلى إعادة تشكيل الأفكار بدلاً من التوجه إلى إعادة تشكيل الوقائع، وإلى التقهقر من مبدأ الواقع الجارح نرجسياً إلى مبدأ اللذة الماضي البلسمي.

---

1. بالإحالة إلى مناقشة جيرار ملاند، لكتاب ميشيل فوكو، الألفاظ والأشياء.

# الفصل السادس

## من التغريب إلى التحديث

بناء على كل ما تقدم، نستطيع أن نقول، في هذا الفصل الختامي، إن القاسم المشترك بين اللاعقلانية والعصاب هو أنهما كليهما بمثابة خطيئة ضد الواقع. وهذه الخطيئة، تماماً كما في اللاهوت الكاثوليكي، يمكن أن تكون عَرَضِيَّة أو مَمِيتة، وذلك تبعاً لتجاهل الواقع جزئياً أو كلياً، أو حتى إنكاره إنكاراً تاماً كما في بعض الحالات التي يتطور فيها العصاب إلى ذهان. ويبدو لنا أن شرط التكفير عن هذه الخطيئة بحق الواقع هو أن تعيد الأنتلجانسيا العربية، منتجة الخطاب العربي المعاصر، ترتيب علاقتها بهذا الواقع، انطلاقاً - كما يقول فرويد - من أن «المبدأ الحديث للنشاط العقلي هو الامتناع عن تمثيل ما هو لاذً لتمثيل ما هو واقعي فحسب، حتى ولو كان هذا الواقع باعثاً على التفتيش»<sup>(1)</sup>، ولانطلاقاً كذلك من أن «كل جهود الفكر العلمي تنصب على الوصول إلى توافق مع الواقع، أي ما هو موجود خارجاً عنا ومستقلاً عنا... وهذا التوافق مع العالم الخارجي هو ما يسمى بالحقيقة، وهو ما ينشده كل عمل علمي»<sup>(2)</sup>.

1. سيغموند فرويد، «صياغات بصدد مبدئي الاشتغال العقلي»، في: *نقلج، أفكار، مشكلات*، الترجمة الفرنسية، الجزء الأول، 1920-1890 (المنشورات الجامعية الفرنسية، باريس 1984)، ص 136.

2. سيغموند فرويد، *محاضرات جديدة في التحليل النفسي*، الترجمة الفرنسية (منشورات غليمار، باريس 1977)، ص 258.

إن درس الواقعية هذا، في حال تطبيقه على «قضية القضايا» التي أوضحت الركيزة الأولى لمتظهر عصابية الخطاب العربي المعاصر ولاعقلانيته، يقتضي - أول ما يقتضي في تقديرنا - أن تعيد الانتلجانشيا العربية صياغة إشكالية الأصالة والمعاصرة برمتها وفق الاعتبارات العقلانية والواقعية التالية:

1. إن العالم يتجه اليوم أكثر فأكثر إلى أن يكون موحد الحضارة، متعدد الثقافات. فبالأمس كانت هناك حضارات، وفي جملتها أو حتى في مقدمتها الحضارة العربية الإسلامية. أما اليوم فلم يعد ثمة وجود ولا إمكانية وجود إلا لحضارة واحدة هي الحضارة العالمية، على حين أن صفة التعدد ما عاد يمكن إطلاقها إلا على الثقافات التي هي بالضرورة قومية. وصحيح أن الحضارة العالمية لم تعم بعد جميع أنحاء العالم بدرجة متساوية، وصحيح أن بعض شعوب العالم لا تزال تقيم مع الحضارة العالمية علاقة استهلاكية، بينما مبدأ الإنتاجية فيها لا يزال بدوره حكراً على شعوب أخرى، وصحيح أن وحدة الحضارة العالمية لا تزال تقوم على قسمة ثنائية للعالم: اليوم إلى مراكز وأطراف، إلى شمال وجنوب، إلى بلدان متقدمة وأخرى متخلفة، كما بالأمس إلى متربولات ومستعمرات؛ ولكن جميع هذه التفاوتات هي تفاوتات في قلب الحضارة الواحدة، وما كان ليكون لها من معنى لولا وحدة هذه الحضارة. والحال أنه في هذا العالم الموحد حضارياً، وإن على أساس من قسّمات ثنائية، فإن أي حديث - وما أكثر رواجه في الإيديولوجيا العربية المعاصرة! - عن حضارة أخرى أو نموذج حضاري مغاير أو مشروع عربي للحضارة لن يكون ضرباً من الوهم ومن خداع الذات فحسب، ولا محاولة فاشلة لكم شفتي الجرح النرجسي فحسب، بل سيكون أيضاً - وبالأساس - بمثابة تأسيس لعلاقة فصامية مع الحضارة الوحيدة الممكنة اليوم التي هي الحضارة العالمية. إذ - وهذا نجندنا على وفاق مع مؤلف «اغتيال العقل» - «إن الأمة التي لا تستطيع أن تستوعب القيم الجديدة للحضارة تخرج من التاريخ وتنتهقر نحو البربرية»<sup>(1)</sup>.

1- غليون، اغتيال العقل، ص 311.



2. إن سبباً رئيسياً للتوتر في العلاقة مع هذه الحضارة العالمية يعود إلى أنها كانت غربية قبل أن تصبح عالمية، وأوروبية قبل أن تصبح غربية. ولا شك أن لهذا التوتر، بدوره، أسبابه التاريخية واللغوية والدينية، الخ، مثلما له أسبابه النفسية التي تتصل بالانجراف الفرجسي. ولكن مهما اختلفت درجة الإحساس بهذا التوتر تبعاً للظروف التاريخية والجغرافية، كما تبعاً للرؤية الإيديولوجية، فإن للأشياء واقعها الذي لا محيص - تحت طائلة السقوط في الفصام أو في الهريرية - عن التوافق معه. وواقع الأشياء هذا هو أن تلك الحضارة الغربية، التي يمكن أن نكره وأن نرفض لألف سبب وسبب، هي التي استطاعت أن تفرض نموذجها الحضاري على العالم بأسره وأن تصبح هي الحضارة العالمية. وهنا نجدنا على وفاق مرة أخرى مع مؤلف «مجتمع النخبة» حينما نراه يؤكد - ولو ضدًا على منطق استنتاجاته - أن «ليس هناك أي شك في أن نمط الحضارة الراهنة الغربية يتحول اليوم إلى نمط حضاري كوني. وليس هناك أي شك في أن تعميم هذا النمط هو الحركة الأساسية للسائدة في عالمنا، وذلك بالرغم من اختلاف الإيديولوجيات والمذاهب السياسية... إن أشكال الحضارة الحديثة تعم اليوم مختلف أصقاع الكرة الأرضية، والطموح إلى تقليد نموذج الحياة الغربية... هو الطموح السائد لدى كل شعوب الأرض، ولدى كل الطبقات الاجتماعية. فليس هناك تصور آخر للحياة اليوم يخالف كلياً التصور الذي لدينا عن الحياة الغربية بسعائتها وكربها. وهذا التصور الذي لدينا، والذي تبنيه اليوم وتعمق ملامحه وسائل إعلام ذات أبعاد دولية بدءاً من الإذاعة إلى التلفزة إلى السينما إلى الكتاب، هو الذي يلهم وسيظل يلهم البشرية إلى وقت طويل ويدفعها للحركة والنضال... إن الميل إلى الحداثة لا يمكن مقاومته، وليس هناك أي إمكانية أخرى ملموسة حتى الآن للحديث عن طريق جديدة أو عن حضارة جديدة»<sup>(1)</sup>. وإزاء واقع الأشياء هذا، أي صيرورة الحضارة الغربية هي الحضارة العالمية، فإن أية محاولة لتحويل العداء للاستعمار

1. غليون، مجتمع النخبة، ص 260-262، والنص معد نشره في: الوعي الذاتي، ص 119-120.

الغربي أو للهيمنة الاقتصادية الغربية، أو إجمالاً العداء السياسي للغرب، إلى عداء حضاري للغرب، لن تعني إلا وضع الذات في موضع التضاد مع الحضارة والحكم عليها بواحد من مصيرين: السقوط في البربرية أو في الفصام. ومهما يكن من أمر، فإن موقف ذلك الشطر من الأنتلجانتسيا العربية الذي يدعو إلى القطيعة مع الحضارة الحديثة لمجرد أنها غربية الأصول يعيد إلى الأذهان في لاعتقائيته موقف السلطات الفلورنسية التي كانت حرمت في حينه على تجار المدينة استخدام النظام للعدي العربي لأنه من لاختراع «الكفار»، وألزمهم بالاستمرار في استخدام الأرقام الرومانية رغم أنها شديدة الإرباك لهم في معاملاتهم»<sup>(1)</sup>.

3. أن تكون الحضارة الحديثة غير قابلة للرفض فهذا لا يعني أنها غير قابلة للنقد، بل على العكس تماماً: فلم يسبق لحضارة أن جعلت النقد الذاتي مقوماً ثابتاً من مقومات وجودها مثل الحضارة الحديثة. وهذا هو سر جانب من حيويتها. ولكن شرط فعالية هذا النقد هو الانخراط في الممارسة الحضارية عينها. وقد يكون النقد الأكثر سداداً الذي يمكن أن يوجه إلى هذه الحضارة والأكثر جذرية والأكثر تأثيراً في مصائرها لللاحقة هو ذلك الذي قد يصدر عن الأطراف والهوامش في عملية اكتشافها لها مشيتها وفي سيرورة مسعاها إلى التحول بدورها إلى مراكز. وإذا كان ثمة من وعد ترأى به الحضارة الحديثة فليس هو الوعد بعالم متعدد المراكز فحسب - وهو أمر في سبيله إلى أن يغدو حقيقة واقعة منذ أن لم تعد الحضارة الحديثة محض حضارة أوروبية أو غربية - بل كذلك الوعد بعالم بلا أطراف ولا هوامش، وهو أمر لا يزال يتطلب انخراط ثلاثة أرباع البشرية في الممارسة الحضارية، وفي الفرض الفعلي لحقها المشروع في ألا تكون مجرد أطراف وهوامش، كما لا يزال يتطلب من المراكز القائمة حالياً أن تتحي جانباً الأثنية التي حكمت سلوكها حتى الآن لنقدم كل أشكال العون التي تؤهلها لها وضعيتها

1. فلوريان كاجوري، تاريخ الرياضيات A History of Mathematics (نيويورك، 1924)، ص121، نقلاً عن دغرو، التحليل النفسي الأنتولوجي التكلمي، ص268.

المركزية لتسريع سيرورة التحول المركزي لساير الأطراف والهوماش. فعلى هذا النحو فحسب يكف التحديث عن أن يكون هو التغريب، ليتطابق مع مفهوم أوسع وأغنى وأعمق وأكثر جدلية من مفهوم التغريب، ومجاوزاً له إن لم يكن مناقضاً. فعلى حين أن التغريب أحادي المرجعية وإلزامي النموذج، فإن التحديث التزام مفتوح على تعدد من النماذج والبدائل والحلول المبدعة. ثم إن التحديث خفيف الحمولة بالجارحية النرجسية لأنه لا يختزل، شأن التغريب، العملية الحضارية إلى علاقة أحادية الاتجاه بين طرف فاعل وطرف منفعل، بل يفترضها شراكة متبادلة لا يكون فيها فعل بلا انفعال، ولا انفعال بلا فعل. وعلى نقيض التغريب الذي يؤسس العملية الحضارية على أنها قطيعة في الهوية، يؤسسها التحديث على أنها استمرارية واتصالية يكون فيها التماهي مع الآخر ممكناً دون نزع الهوية. وبقدر ما أن التغريب يجب ما قبله وما عداه، ولا يعترف عملياً بوجود الآخر إلا ليصادره أو يلغيه، فإن التحديث، إذ يفهم التماهي مع الآخر على أنه تطوير وإغناء لهوية الذات لا إلغاء لها، لا يقطع مع الماضي وتراث الذات، بل قد يوظفهما عند الضرورة كعتلة رافعة في عملية التحول الحضاري بالذات. وفي الوقت الذي لا يعترف فيه التغريب بأية مديونية حضارية للآخرين، بل يؤسس ذاته في دلثنية مطلقة، فإن التحديث يعيد تأسيس الحضارة الغربية نفسها في نسبيتها التاريخية، ويخضعها لحفريات تكشف عن مدى مديونيتها في مقوماتها للتحثية للحضارات الأخرى، كما يخضع بنياتها الفوقي لنقد يكشف عن مدى حاجتها إلى المساهمة الحضارية للآخرين لتتجاوز جوانب كثيرة من قصورها ونرجسيتها، ولتتصح في المجال أمام تمخض حضارة كونية بكل ما في الكلمة من معنى، حضارة تنتسب إلى الإنسان وينتسب إليها الإنسان كتعبير عن الدخول الفعلي في عصر رشد الإنسان.

4. إن نقطة التمهصل الوحيدة الممكنة مع الحضارة العالمية من خلال قناة التحديث تظل، حتى إشعار آخر، هي الثقافة القومية. وللمرة الثالثة نجدنا على وفاق مع مؤلف «اغتيال العقل» - ولكن دوماً ضد منطوق

استنتاجاته - حينما يؤكد أن «ليس هناك أمة تستطيع أن تستوعب الحضارة وإبداعاتها الجديدة في إطار غير إطار ثقافتها»<sup>(1)</sup>. ولكن النتيجة التي تترتب على هذه المقدمة هي أن «التبعية الثقافية» مفهوم أقرب إلى الخلف منه إلى التماسك المنطقي. وبالفعل، وباستثناء حالات نادرة جرت فيها محاولات فعلية للاستتباع اللغوي والثقافي، كما في الجزائر في العهد الكولونيالي، فإن الثقافات القومية، مفصلة التواصل مع الحضارة العالمية، عرفت بفضل التماس والتناضح مع هذه الحضارة، تطوراً ما كانت لتعرفه قط لو بقيت أسيرة دارتها المغلقة. ونقدم لنا الثقافة العربية، ابتداءً من عصر النهضة، مثلاً أخذاً على مثل هذا التطور بالتماس - ولو الضدي أحياناً - مع الحضارة الحديثة. وحسبنا هنا الإشارة إلى ما يمكن وصفه بالولادة الثانية للغة العربية بتحولها من لغة كتّبة إلى لغة أمة، وإلى عملية الاستزراع والنمو المتسارع للفكر السياسي والاجتماعي، ولاسيما في المشرق، وإلى التطور المذهل في فنون الأدب حيث عرف الشعر بدوره ولادة ثانية فيما جازت الرواية والقصة بنجاح مرموق تجربة مخاضهما الأول، وإلى البداية الواعدة التي يعرفها اليوم الفكر الفلسفي، ولاسيما في المغرب.

5. كما أن الثقافة القومية لا يجوز أن توضع في موضع التعارض مع الحضارة الحديثة، بل يجب أن تكون على العكس قناتها الموصلة وجسر العبور منها وإليها، كذلك فإن التراث، وهو مظهر رئيسي للثقافة القومية، يجب ألا يوضع في قطب المواجهة للحضارة الحديثة، وألا يوظف كسلاح أيديولوجي في حرب القطيعة معها وضدها. أولاً لأنه لن يكون في هذه الحالة إلا سلاحاً مفلوياً. وبالفعل، إنه لظلم كبير للتراث أن يُطالب - وهو الذي لنقطع عن التطور وعن العطاء منذ قرون عدة - بالتسدي لحضارة من نمط مغاير، وذات اندفاع جبروتي، وما انفكت منذ قرون عدة تتطور بإيقاع متسارع، وفي العقود الأخيرة حسب قانون المتوالية الهندسية لا الحسابية. ولن يكون شأنه في مواجهة غير متكافئة

1. غليون، اغتيال العقل، ص 312.

ك هذه إلا كشأن السيف الذي يراد له أن يغلب الصاروخ. وثانياً لأن توظيفه على هذا النحو في حرب المواجهة الخاسرة مع الحضارة الحديثة سيجرّمه من فرصته التاريخية لوصل ما انقطع من تطوره ولتجديد نفسه بالاستعانة بما نتجحه الحضارة الحديثة من مناهج علمية لم يسبق لها مثيل في التحقيق والحفر والتنقيب والدراسة والنقد وإعادة القراءة. وبالفعل، إن التواصل مع الحضارة الحديثة، لا الانقطاع عنها، هو وحده الذي يمكن أن يضيف، إلى قديم التراث جديداً، وإلى قيمته فضل قيمة، وأن ينفخ في مواته حياة، وأن يكشف فيه، بالاستعانة بحفريات المعرفة الحديثة وبمعمارياتها، عن مكامن ثروة ما كان من الممكن قبل اليوم حتى الاشتباه بوجودها. وبكلمة واحدة، إن الانفتاح على الحداثة هو الذي يمكن أن يطرح على التراث أسئلة جديدة، وأن يستطقه أجوبة جديدة، وأن يصوغه، في جزئياته وكلياته، في إشكاليات جديدة. وحسبنا شاهداً على ما نقول، بالإحالة إلى الثقافة العربية المعاصرة، للتطور المرموق الذي أصابته الدراسات الخلدونية في الحقبة الأخيرة بفضل تطبيق المنهجيات الحديثة على النص الخلدوني، ناهيك عن أن واقعة اكتشاف أهمية ابن خلدون هي بذاتها إنجاز من إنجازات الحداثة. أضف إلى ذلك أن الانفتاح على الحداثة والمنهجيات العلمية الجديدة هو وحده الذي يمكن أن يضع حداً لمغامرة الاستشراق التي لا مجال للمماراة فيها، في بعض وجوهها، جارية نرجسياً للذات القومية. فيما أن التراث مقوم من مقومات الهوية، بل واجهتها الدفاعية كما رأينا، فإن اتخاذه موضوعاً للدراسة من قبل المستشرقين، أي من قبل متخصصين أجانب ينتمون في غالبيتهم إلى الحضارة الصانعة للجرح الاستعماري والنرجسي، قابل للتأويل شعورياً على أنه فعل اعتداء على الذات القومية، ولا شعورياً على أنه فعل خصاء وتأنيث للأنا القومي، بحكم احتكار المستشرق الدارس لمبدأ الفاعلية ضداً على مبدأ المفعولية الذي يكون بالضرورة في هذه الحال من نصيب الموضوع المدروس وما يمثله من رأسمال رمزي. والحال أن الامتلاك الذاتي لمنهجيات الحداثة وتخصيبها وتبينتها وتطويرها من خلال تطبيقها في حقل الدراسات

التراثية هو وحده الذي من شأنه أن يجعل الاستشراق غير ذي موضوع أو أن يعيده إلى حدوده المعقولة التي يقتضيها التعارف والحوار بين الثقافات. أما إذا لم نمثلك الحداثة فلن نبقي مالكين حتى لتراثنا، وسنبقي باب الإغراء مفتوحاً لدراسته وامتلاكه على الطريقة الاستشراقية.

إن هذه الملاحظات الخمس التي تتصل بجدلية الثقافة القومية والحضارة العالمية، أو ما يسمى في الخطاب العربي المعاصر بإشكالية الأصالة والمعاصرة، لا تدع مجالاً للشك في أن تحليلنا النفسي لهذا الخطاب الإيديولوجي مسكون هو نفسه بهاجس إيديولوجي، وهو ما يجعل تحليلنا نفسه قابلاً للتحليل، وما يؤكد أننا أنفسنا داخل اللعبة لا خارجها، وأن الذات التي تحلل هي في نهاية المطاف جزء من الموضوع الذي تحلله. نحن إذن لا ندعي الموضوعية المطلقة، بل نحن منخرطون في الصراع. وبما أن منهجنا نفسه ليس له سداد ولا فاعلية - علاجية أو معرفية - إلا حيث يقوم صراع في النفس الفردية كما في النفس الجماعية، فلنعترف بأننا نوظف هنا التحليل النفسي نفسه توظيفاً صراعياً.

ما ذلك الهاجس الإيديولوجي؟ إنه تجديد الانتماء إلى عصر النهضة من حيث أنه العصر الذي اكتشف ضرورة التقدم، أو على الأقل ضرورة استدراك التأخر.

ولكن تجديد الانتماء إلى عصر النهضة لا يعني إعادة طرح نفس أسئلته، ولا على الأخص تبني نفس أجوبته.

فإشكالية النهضة بالذات بحاجة إلى إعادة صياغة.

ولاً على ضوء الواقع المحلي. فالمجتمع العربي يواجه اليوم تناقضات متفاقمة وذات طبيعة انفجارية. وهو لم يعد حتى ذلك المجتمع الراكد الذي في مقدوره أن يراوح في مكانه في حركة اعتماد إلى أن يأتيه الفرج عن طريق مستبد عادل يكون رجل القدر. فالقانون الذي يبدو أنه يحكم المجتمعات العربية اليوم هو قانون تراكم التناقضات والتوردي. وإذا لم تستطع هذه المجتمعات أن تحقق نقلة جذرية باتجاه التقدم، فإن وتيرة

تدهورها ستتسارع، كما أن تناقضاتها بدل أن تتفجر عن قوى جديدة حاملة لمشروع تغيير جديد حسب القوانين المألوفة للجدلية الاجتماعية، قد تفجرها هي نفسها وتزج بها، على الطريقة اللبنانية بالأمس والعراقية اليوم، في شرنقة مغلفة من التقنيت والتكمير الذاتي والصراعات للتنافسية التي لا أفق لها سوى البربرية.

وثانياً على ضوء الواقع الإقليمي. فمن قبل كان العدو غازياً قدم من الشمال أو من الغرب، ولم يكن في خطته ولا في مقدوره - باستثناء الحالة الجزائرية - أن يتعدى في انغراسه في التراب الوطني سياج التكتلات والمخاطر الامامية. أما اليوم، فإن العدو مقيم بين ظهرائي للوطن، وفي نقطة القلب منه، وأطماعه في الأرض نفسها، لا في محاصيلها، و«زئيره يرد الفرات والنيل». وإن يكن قليل العديد، فقد عرف كيف يشل، بتفوقه التكنولوجي، قانون الكم. بل إنه، بانفراده بامتلاك القنبلة النووية، قد أمسى قادراً لا على إلغاء قاتنون العدد فحسب، بل على إلغاء العدد نفسه. وبدون نقلة جذرية باتجاه التقدم، فليس مستحيلاً ذات يوم، في حال انفلات التوسعية الإسرائيلية من عقالها، ألا يبقى من خيار آخر أمام الساكنين إلا الرحيل إلى الصحراء التي ينكر تنكيرهم في هذه الأيام بأنهم قدموا منها.

وثالثاً على ضوء الواقع العالمي. فالعالم لم يعد منقسماً اليوم، كما في عصر النهضة الأول، إلى «غرب» أثبت أنه قد تقدم و«شرق» اكتشف أنه قد تأخر. بل تكشف هذه القسمة عن أنها من طبيعة دينامية. فالعالم المتقدم يزداد تقدماً، والعالم المتأخر يزداد تأخراً بالمقياس النسبي، إن لم يكن في بعض الحالات بالمقياس المطلق. وما كان بالأمس القريب عالماً ثالثاً، فإنه يتميز اليوم إلى عالم رابع وخامس. ولا شك أن العالم العربي قد سجل بالمقياس الحسابي تقدماً، ولكن نتكاثر القرائن في الحقبة الأخيرة على أنه، بالمقياس الهندسي، أخذ بالتقهقر، ولا سيما في أقطاره التي كانت تزعمت سيرورة للتقدم الحسابي. وهناك اليوم أقطار عربية يسجل نموها الاقتصادي والثقافي تقدماً بعلامة ناقص (-) لا بعلامة زائد (+). وذلك ما يسمى في أدبيات التنمية بنمو التخلف.

ولكن المتغير الكبير في إشكالية التقدم كما تطرح نفسها اليوم بالمقارنة مع النحو الذي كانت تطرح به نفسها في عصر النهضة إنما يكمن في موقف صائغة هذه الإشكالية، أي الأنتلجانشيا العربية. ففي عصر النهضة بدا وكأن الأنتلجانشيا تنفصل بنفسها عن سواد الأمة الغارقة في ظلمات الاحتياط لتضطلع بدور مهمّز اليقظة وحامل لواء الدعوة إلى التقدم. أما اليوم فيبدو أن الأنتلجانشيا العربية تنفصل بنفسها عن سواد الأمة، المعذبة بنوقها إلى الحضارة، لتحمل على العكس لواء الدعوة إلى النكوص ولتمارس دور التثبيس الحضاري. وقد رأينا، وسوف نرى في جلستنا التحليلية المطولة مع حسن حنفي، كيف أصبح الحديث عن الصدمة الحضارية القائلة والسابق الحضاري المميت شائعاً في الخطاب العربي المعاصر. ولا يتردد ناقد «مجتمع النخبة» - على الرغم من كل صحو الفكر الذي يدل عليه في التحذير من احتمالات السقوط في البربرية - في إعلان قنوطه من إمكانية اللحاق بالحضارة الحديثة «طالما استمرت هذه الحضارة في التطور والتقدم بدون حدود»، وفي مجازاة دعاة التثبيس الحضاري في لعبتهم بتوكيده بلا تحفظ أن المجتمع العربي، رغم سبقه إلى صياغة إشكالية النهضة، «يشكل مثلاً على هذا اللحاق المستحيل بالحضارة»<sup>(1)</sup>.

والواقع أنه لا يكفي أن نقول إن دور الأنتلجانشيا العربية في إشكالية النهضة هو وحده الذي تغير بانقلابها، في شطر لا يستهان به منها، من طالبة تقدم إلى طالبة نكوص. بل لا بد أن نلاحظ أيضاً أنها أضحت، في وجودها وفي وظيفتها المعرفية بالذات، ولحداً من تعابير التخلف. فبالأمس كان يمكن القول إن الأنتلجانشيا العربية، التي سبقت غيرها من الشرائح الاجتماعية إلى الاستفاقة على واقع التخلف، استطاعت أن تقدم للمجتمع المتخلف، من خلال مقتضاها المعرفي، المقياس الذي كان يحتاجه ليقس مدى تخلفه. أما اليوم، فإن الأنتلجانشيا العربية، في شطر لا يستهان به منها،

1. غليون، مجتمع النخبة، ص 261، وكذلك، الوعي الذاتي، ص 119. ونلاحظ هنا أن المثال الذي قدمته ليابان بالأمس والمثال الذي تقدمه الصين اليوم، وربما الهند في الغد، ينهض دليل نفي على هذه الدعوى الغليونية عن «اللحاق المستحيل بالحضارة».



تحولت هي نفسها من أداة للقياس إلى موضوع له. وبعبارة أخرى، يمكن القول إن الأنتلجانسيا العربية عندما صاغت في عصر النهضة معادلة التخلف وضعت نفسها خارج المعادلة، باعتبارها على العكس عامل التقدم أو مهمازه، ولكن اليوم لم يعد من الممكن أن تصاغ معادلة التخلف بدون أن تدرج الأنتلجانسيا العربية نفسها ضمن عواملها. وعلى هذا النحو أمكن لصاحب مشروع «نقد العقل الإسلامي» أن يلاحظ أن «المسافة المعرفية بين الفكر الإسلامي - يقصد الفكر العربي الإسلامي - والفكر الغربي تزداد بمثل إيقاع ازدياد المسافة الاقتصادية في القرن العشرين هذا»<sup>(1)</sup>.

مشروعنا يندرج إذن هو الآخر ضمن المشاريع المتكاثرة في هذه الأيام لنقد ما بات يسمى بلا تحفظ بـ«العقل العربي». ولكن العقل المستهدف بهذا النقد ليس العقل الظاهر بقدر ما هو العقل الباطن. لا العقل الأداتي كما تداوره الأنتلجانسيا العربية، بل العقل الذي يتخذ من الأنتلجانسيا العربية نفسها أداة له. إنه إذن مشروع لنقد «عقل العقل» إن جاز التعبير، وذلك بقدر ما يمكن القول إن عقل الأنتلجانسيا العربية، في شطر لا يستهان به منها، ليس بذی سودد ذاتي، وما هو بقبطان دقته، ولكنه محض عقل منفعل لعقل فاعل، أو محض عقل مطبوع لعقل طابع، يتبع له تبعية الجزء المنظور من جبل جليد الشعور لجزئه المظموّر في لجة اللاشعور حسب التشبيه الفرويدي.

ومن هنا ضرورة المنهج التحليلي النفسي بخصوصيته التي تجعله لا يغني غناء أي منهج آخر بقدر ما لا يستطيع أي منهج آخر أن يغني غناؤه. فهو منهج يقوم بامتياز لا عل استنباط المجهول من المعلوم - كما هو الشأن في كل منهج علمي آخر - فحصب، بل كذلك على بيان علاقة التبعية التي تشد وثاق هذا المعلوم للمجهول الذي يجري استنباطه منه. وخلافا للقاعدة الفقهية المشهورة، فليس الغائب هو الذي يقاس على الشاهد هنا، وإنما هو الشاهد الذي يقاس بالأحرى على غائبه، قياس المجهور به على المسكوت عنه في الابستمولوجيا الحديثة. وبديهي أن تأكيدنا هذا على مطابقة منهجنا

1. أركون، نحو نقد للعقل الإسلامي، ص 58.

— على خصوصيته — لموضوعه لا يعني إثباتاً مسبقاً لخصوصيته. فمعيار هذه الخصوصية هو التطبيق، أي الأجوبة غير المسبوق إليها التي يمكن استخلاصها من طرح أسئلة جديدة على موضوع قديم. وكما يقول إيرنست جونز، فإن «كل تعميم علمي لا يجد تبريره في التحليل الأخير إلا بما ينتجه من فهم لشيء كان لولاه سيبقى مجهولاً»<sup>(1)</sup>. فإذا خرج القارئ، بعد رحلته الطويلة معنا، بانطباع بأنه أضاف إلى جعبة معلوماته شيئاً ما كان ليضيفه إليها لولا تجشمه مشاق الرحلة، فإننا نعتبر أننا قد كسبنا الرهان. وهذا بدون أن نزع بحال من الأحوال أنه ما كان لغير منهجنا أن يكون هو المطابق. فأية ظاهرة إنسانية هي، بحكم انتمائها إلى ملكوت ما هو إنساني، متعددة التعيين وقابلة بالتالي للتفسير بأكثر من كيفية واحدة. وكما يقول داعية كبير للمنهج التكاملي في علوم الإنسان، فإنه فيما يتعلق بدراسة الإنسان فإن «كل ما سبق تفسيره يظل ممكناً بل واجباً تفسيره بكيفية أخرى، أي في إطار نظام مرجعي آخر»<sup>(2)</sup>. وبدون أن نتورط في خصومة المفاضلة المكروهة بين المناهج، فإن كل ما نرجوه أن نكون أفلحنا، ضمن إطارنا المرجعي الخاص، في تقديم إضافة تكاملية إلى ما قاله أو ما يمكن أن يقوله دارسون آخرون لخطاب الأنتلجانسيا العربية المعاصرة في إطار أنظمتهم المرجعية الخاصة.

---

1. نقلاً عن بول روازن، فكر فرويد السياسي والاجتماعي، الترجمة الفرنسية (منشورات كونيبلكس، بروكسل 1976)، ص 80.

2. ديفرو، التحليل النفسي الإثنولوجي التكاملي، ص 268.



في هذا الكتاب، وقد يكون هو الأول في منهجيته بالعربية، يمدد جورج طرابيشي على سرير التحليل النفسي الخطاب العربي المعاصر المريض بعقدة التفوق الغربي التي لا تني تتفاقم طرداً مع انكشاف العجز العربي عن ردم هوة الفوات الحضاري. وطرداً مع تراكم الصدمة النابليونية لعام ١٧٩٨ مع رضة هزيمة ١٩٦٧ التي كان لها مفعول ممرض على الشخصية العربية أخذ شكل «غصاب جماعي».

ومن خلال تحليل نقدي لموقف العشرات من المثقفين العرب في تعاطيهم مع إشكالية الأصالة والحداثة واحتمالهم بمظلة تراث الماضي في مواجهة حاضر جرح، يكشف طرابيشي عن مظاهر النكوص في الخطاب العربي المعاصر بوصفه، في المقام الأول، خطاب ارتداد عن مقولات عصر النهضة، واستقالة من الفعل التاريخي، وازدواجية في الرؤية، وطلب للحلول السحرية، وممارسة لاشعورية لآلية الترميز الجنسي، وإحياء للمخطط الطفلي في التعامل مع العالم، والتفكير بوساطة الرغائب لا الوقائع، وبمنطق الألفاظ لا الأشياء، وصدور عن موقف نفسي لا عن موقف معرّي، وسيطرة على عالم الخطاب بدلا من السيطرة على عالم الواقع.

وفي الوقت الذي يتقيد هذا الكتاب بمنهجية علمية صارمة بالاستناد إلى حضريات التحليل النفسي، فإنه يريد نفسه متورطا في المعركة من أجل تجديد الانتماء إلى النهضة في أيام الردة هذه التي تأخذ، أكثر فأكثر، شكل جائحة إيديولوجية ووباء نفسي، وتصميم على القطيعة مع الحضارة، والانحباس في علاقة فصامية مع العصر بذريعة التأصيل ومقاومة التغريب.

